الصادق النيهوم

الرمز في القرآن

الدراسة - الحوارات - الردود

جمع وإعداد وتقديم: سالم الكبتي





الرمز في القرآن

الدراسة - الحوارات - الردود

الصادق النيهوم



طرابلس
الجماهيرية العربية الليبية
الشعبية الاشتراكية العظمى





ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-24-8

الطبعة الأولى 2008

فهرس المحتويات

مقدمة

عن «أزمة» لم تكن «لازمة»

مجموعة المقالات

(دراسة لم تكتمل)

حوارات
مع النيهوم عن «الرمز في القرآن»

ردود ومناقشات

مقالات ذات صلة

الإهداء

(إلى الصحافة الليبية..

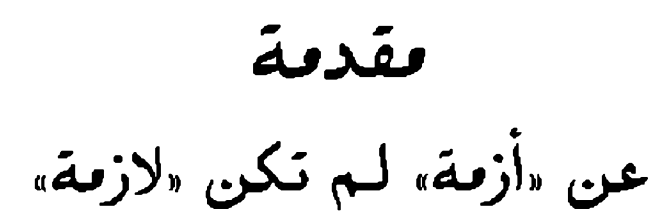
التي نشرت الدراسة والحوارات والردود..

بكل حرية..)

«وإن كان ذنبي كلَّ ذنبٍ فإنه

محا الذنب كلَّ المحوِ من جاء تائبا»

(المتنبي)



مقدمة

عن «أزمة» لم تكن «لازمة»

مقدمة:
عن "أزمة" لم تكن "لازمة"
طريق غير سالكة إلى دراسة لم تكتمل!!

عام 1937، كانت بنغازي القابعة شرق ليبيا فوق بقايا مدينتي (بوسبيريرس) و(برنيق) الإغريقيتين.. مدينة صغيرة تلوح حدودها القريبة للرائي على مرمى حجر وتمتلىء دروبها بأضرحة الأولياء والمرابطين، وتنام مثل غيرها من المدن الليبية تحت عين المحتل الإيطالي وتمضي الأيام فيها بتثاقل ورتابة.. على حين كانت حرب الحبشة مشتعلة ووقودها، في الغالب، شباب من مختلف مناطق ليبيا.. وبوادر الحرب العالمية الثانية ستلتهب في أفق العالم بعد عامين.

في ذلك العام حيث هطل المطر غزيراً بلا انقطاع وفاض الموسم.. في تلك المدينة سيولد الصادق النيهوم، مثل أي طفل ليبي، في بيت قديم للعائلة بسوق الحشيش.. الحي الصغير الذي يجاوره في مسافة قريبة منه أحد معسكرات الجيش الإيطالي وتصبُّ فيه أزقة وطرقات أخرى.. تتقاطع وتلتقي، وسترحل والدته إلى العالم الآخر

بعد أسبوع من ولادته، وسينشأ من بعد لدى أخواله آل الصنهاجي في حي آخر بعيد: (سيدي حسين) الذي عزلته السلطات الإيطالية مع بقية الضواحي عن المدينة وجعلت بينهما بوابة وجنداً مدججون بالسلاح حتى بلوغه الثامنة (عام 1945) فيعود صوب والده رجب عبد الرحمن النيهوم.. البحار والتاجر والنقابي المدافع عن حقوق العمال. وبعد ثلاثين عاماً آخر من الولادة (1967) سيغدو هذا النيهوم كاتباً بارزاً على صفحات (الحقيقة) يطوّر من أسلوب المقالة السائد في الحياة الأدبية الليبية ويطرق موضوعات كانت أبوابها مغلقة ويثير الغبار من حوله وينشر دراسة لم تكتمل عن (الرمز في القرآن).

* إطلالة على واقع:

كان النيهوم صاحب موهبة كبيرة. وهو من جيل ليبي اعترت ظروفه وحياته زوايا معتمة من الفقر والجوع والحاجة البائسة، ونشأ في أعوام ما بعد الحرب العالمية الثانية التي ألقت بظلالها على العالم بأسره وأحدثت خلاله تبدلات كبيرة في السياسة والاقتصاد والفكر والثقافة والفن، وقد امتدت هذه الظلال إلى مساحات قصيّة من الدنيا، من بينها ليبيا، موطن النيهوم، البلد المجدور الوجه من أثر الاحتلال والحرب، الممتد بين البحر والصحراء قبل تفجر النفط من تحت رماله الهائلة.

كانت تلك الأعوام بأيامها ولياليها الطوال نقطة

(مفصلية) في حياة ليبيا والليبين، وكان معظم أفراد الجيل الذي عايشها واكتوى بلظاها وألغامها يتعطّش إلى مستقبل آمن، وإلى الحرية وإلى المعرفة ويشتاق إلى الاقتراب من مصادر الثقافات الأخرى والاحتكاك بها، ولقد اصطف جلّ هؤلاء الأفراد في طوابير عديدة وبملابس رثة وحقائب صدئة من مخلفات عتاد الحرب أمام مبانٍ عتيقة في المدن والقرى ليتلقوا الدروس في فصولها الرطبة من معلمين ليبيين ومصريين كانوا - ذلك الزمن - مثالاً في العطاء النادر والتضحية.

كانت البلاد، في مجملها، وبحكم الواقع القاهر والصعب تعاني من فراغ موحش في كل شيء، أهمه: (الفراغ الفكري والثقافي)، رغم المحاولات التي أبداها بعض الرجال فيما تواجدت المصادر لاحقاً وتنوّعت بمرور الوقت أمام أعين الكثيرين من ذلك الجيل، خاصة في بنغازي: مكتبة بوقعيقيص، مكتبة بوزقيه، مكتبة حماد، لجوء ثلاثة مصريين من جماعة الأخوان المسلمين إلى بنغازي، المركز الثقافي المصري، والأمريكي، وصالة المطالعة البريطانية، المكتبة المتجولة، دور السينما، الأساتذة الرواد في الجامعة الليبية بعد تأسيسها في بنغازي أواخر عام 1955 ومواسمها الثقافية المتوهجة، ناشطو العمل الأهلي في المدينة من أصحاب الدور الفاعل في التطوع من خلال المدارس الشعبية والليلية لمحو الأمية

وتعليم الكبار ونشر الوعي بين الناس (كان النيهوم هنا من الشباب الذين تطوّعوا للتعليم في تلك الفصول وهو ما يزال طالباً في المرحلة الثانوية)، وبدأ الفراغ يضيق إلى حدٍ لا يخطئه البصر بانتشار المؤسسات التعليمية التي اهتمت بها الدولة الناشئة، وتوافد مزيد من المعلمين العرب والأجانب، ودخول الفتيات على الخط الذي كان (أحمر) في نيل حظهن من المعرفة والتنوير.

النيهوم، وفقاً لهذا الواقع، مع نفر من جيله كان متشبعاً بهذه المصادر، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وبالقراءة المستمرة، والواضح أنه بثقافته واطلاعه تجاوز آفاق المجتمع (المحافظ)، وهذا التجاوز أو الاجتياز حدث منه بثقة كاملة.. فاصطدم معه لكنه لم يتعال عليه!

هذه الآفاق التي شكّلت قوام المجتمع من عادات وتقاليد وثقافة موروثة يتمّ الدفاع عنها بشراسة، جعلت النيهوم، ومن في عمره، يتأثرون بما تحصّلوا عليه من قراءات وما اكتسبوه من معرفة ـ حتى وإن كانت محدودة ـ ويتطلعون منها وهم في حماسة الشباب وعنفوانه إلى المزيد مما هو مدهش ـ في رأيهم ـ ومعاصر ـ إلى أبعاد أخرى أكثر إشراقاً ودون التخلي عن الجذور والأصول. كانت تلك بداية خطوة للنيهوم وجيله نحو الخروج من إطار صلب، من العسير اختراقه، تحدّد في (معرفة) كانت رائجة وواضحة المعالم هي (ثقافة وخبرة الفقي البسيط) الذي

يعلّم الصبيان بإمكانيات مشوّشة توارثها بلا وعي، ثقافة كان الدين فيها مغطى بستار كثيف من الخرافات والأساطير وظلت تعتقد في المزارات والأضرحة والبيارق الملونة التي تعلو قبابها وتعتبر أن عصا وفلقة ذلك الفقي هبطتا من الجنة وتؤمن بالتبرك بأنواع معينة من الشجر والطيور والثعابين والراية البيضاء التي تعلّق على بيت الذاهب إلى الحج حتى عودته والحلف بالمرابطين وإيقاد الشموع والبخور وكتابة الأحجبة والتمائم.. وغيرها من عادات ترسخّت في المجتمع بإرادته أو من دونها، وكان الدين العظيم بجلاله ومهابته خارجها ولا يمتّ لها بصلة، وظلّ الناس آنئذٍ في ليبيا وفي بعض البلدان المتاخمة من الرجال والنساء يجزمون بصحتها وقداستها ويشعرون إزاءها بالخوف والعجز، إلى أبعد مدى، اتقاء للعنة تحلّ عليهم بسببها، ويتصدّون لجميع محاولات الانتقاص من (قدرها)، كانت ثقافة متخلفة ألحقت بالمجتمعات الإسلامية وغذّتها عصور الانحطاط، وربما أسهم في تشجيعها المحتلون الأجانب الذين كانوا يريدون أن يبقى الإسلام (بلدياً) على هذا النحو. إن هذا المخزون (البدائي) تراكم بحدة في أعماق النيهوم وظلّ حيّاً لديه يستدعيه من ذاكرته إلى كتاباته المختلفة على الدوام بالرغم من حدوث التطور في المفاهيم والعادات، والفكر والمعرفة، وفي أوجه الحياة اليومية في المجتمع الليبي، ومن الضروري الإشارة إلى أن (الفقي البسيط

المتواضع القدرات) لا يمثّل الصورة الأخرى للكثير من الفقهاء والعلماء الليبيين المتنوّرين الذين عرفتهم أجيال عديدة من أبنائها، فأولئك كان لهم شأن آخر مختلف على مدى الزمن!. كان طبيعياً أن ينشأ عن ذلك المخزون الحاصل في الصدور اصطدام واختلاف كبيرين، وهو في الحقيقة ليس (اصطداماً.. وفقط) وإنما مثّل في سياقه صراعاً جلياً بين ثقافتين، وعالمين، وجيلين:

بين ثقافة جديدة، ومعرفة متجددة وصلت وانهمرت بكل الطرق والوسائل وتغلغلت في (المجتمع المحافظ) ولا بدّ أن تؤثر فيه.. وثقافة قديمة عجزت في بعض جوانبها عن تقديم الدين كما أراده الله، ولم تخرج عن فهمها لجوهره وسماحته وعظمته بمنأى عن الإطار الصلد للخرافة والأسطورة.

بين عالم حديث ومعاصر لا يمكن أن تعيش الخرافة فيه باسم الدين، بدأ يظهر بتطوره وتقنيته ومعارفه ووسائله المذهلة.. بما فيه من علماء دين ممتازين.. وآخر موغل في التخلف لم يستطع الصحو من غفوته أو الفكاك من أسر الإطار الذي وضع فيه نفسه.

بين جيل متوثب طموح يتقد سرعة وقوة ونشاطاً مع الأيام ولديه الرغبة في الإصلاح والتغيير وأخذ مكانه في المجتمع مع الآخرين.. حتى وإن كانت له أخطاؤه وسلبياته ومشاكله.. وجيل، أو بقايا جيل، إقناعه بتغيير ما يعتقده

ويجزم به ولا يروم عنه قيد أنملة، رغم نضج بعض جوانب تجربته في الحياة، أمر شاق للغاية.

كان (الاصطدام) بثقافة الفقي البسيط هو حاصل كل ذلك.. ونتيجة طبيعية لثقافة أخرى مغايرة وتأثيرات لما كان يسود المنطقة والعالم الضاجّ بالحركة والتفاعل كل لحظة، وبدا هذا الاصطدام أكثر وضوحاً، وبشكل مبكر لدى النيهوم منذ ذهابه للدراسة العليا في أوروبا ـ وبالتحديد ألمانيا الغربية أواخر عام 1962 ـ وتأثّره الجديد والمباشر بالحياة هناك وإقامته وسط الجامعات ومصادر الثقافة والمراجع والمشاهدة بعينيه دون أن يحكي له أحد عن ذلك أو يأتيه مترجماً، كما في بنغازي، من بيروت ودمشق والقاهرة. لقد لامس العالم مباشرة ودون وسيط.. وعاش (الصدمة) منذ اللحظة الأولى للوصول.

في حوار أجري معه وأذيع في إحدى برامج الإذاعة الليبية صيف 1968 حول (الفقي) و(ظاهرة التداوي والتماس الشفاء لدى ممن يسمون فقهاء) وجد النيهوم الفرصة للقول بأنها: (ليست نوعاً من الذكاء، وأنها ظاهرة تاريخية ذات جذور تتأصّل في الحضارة إلى ما يقرب من سبعة آلاف عام، وليس من المتوقع على الإطلاق أن يقفز فوقها أحد المجتمعات.. هكذا ببساطة وفي لحظة واحدة..) وأشار بأن: (أوروبا عاشت فترتها الثقافية المتأخرة خلال العصور الوسطى، والمرء عندما يراجع التاريخ الأوروبي،

خاصة بين القرن السابع الميلادي وبين القرن السادس عشر، لا بدّ أن يصطدم بمظاهر التأخر الثقافي التي تمثّلت أيضاً في تبني العلاج بالنصوص الدينية وبنصوص السحر..) ثم لاحظ في حواره بأن: (الفقيه خصوصاً ـ الفقيه الليبي ـ الذي يعيش على بيع الأحجبة مخلوق فقير ومتخلف ولا يمكن أن يوصف بالذكاء) مؤكداً ـ ما دامت الفرصة متاحة ـ بأن: (الإسلام دين الإنسان وليس دين الفقي، وأن الدين ليس مهنة، الدين الإسلامي بالذات لا يعترف بالمهنة الدينية. الدين ملك للإنسان والقرب من الله مقياسه التقوى).

إذاً، لخّص النيهوم موقفه من الفقي الذي كان يلوح له قوياً في غربته من بين شخصيات ومعالم المجتمع ويصاحبه في كل ما يكتب، وكأنه موضوعه الوحيد أو شغله الشاغل، ملمحاً ـ ربما ـ من طرف خفي، وإن لم يعلنه صراحة بأن مناقشة الموضوعات الدينية في الإسلام من حق الجميع وليست حكراً على أحد دون آخر. النيهوم بذلك كان يدرك أنه يواجه (شيئاً مقدساً) و(سلطة في المجتمع) ممثلة في (الفقي) ولا أحد سواه!

*** الطريق إلى الرمز:**

في كل هذه الدوائر المتقاطعة كان النيهوم نتاجاً لمرحلة محلية بما فيها من فقر وتأخر وطموح وحلم، ثم خارجية بما تحتويه من حرية وتقدم وانطلاق، وكان لا بدّ من أن تساوره

ظنون ويعتريه قلق وتملؤه تساؤلات واهتمامات هي في الأصل، كما أسلفنا، حبيسة صدره منذ الطفولة وعبر معايشته لظروف ومعتقدات المجتمع من خلال ثقافة الفقي، وهو - في الواقع - قبل سفره لأول مرة من بنغازي للدراسة لم يعبّر عن هذه الآراء والأفكار كتابة، لكنه نشر بضعة مقالات في صحيفة العمل ببنغازي أواخر عام 1958، ومطلع عام 1959 وكان طالباً بالسنة الثانية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، وهي مقالات تعتمد على الإنشاء وكانت بسيطة في مضمونها تنحو باتجاه نقد المجتمع وتعتمد على الوصف وأسلوب الوعظ والإرشاد، وكان يتصدّرها اسمه دون لقب (صادق)، ولعل آراؤه الحبيسة كانت تأخذ طابعاً مغايراً في مناقشاته وأسماره في جلسات الأصدقاء، أو محاوراته مع أساتذته في الثانوية والجامعة - وإن لم تكن كثيرة - كان النيهوم وفقاً لما يذكره مجايلوه في تلك المرحلة (متمرداً) و(ساخراً) من ثقافة مجتمعه وبعض عاداته التي تتكىء على الدين البريء منها بالطبع.

وبهذا كانت (الثقافة الكبيرة) التي امتاز بها، و(التمرد) و(السخرية) اللتين عُرِفَ بهما أولى الخطوات على الطريق إلى الرمز.. الذي شابه بعض خداع البصر!.

*** إطلالة ثانية.. لكنها ضرورية:**

في أعوام الخمسينات من القرن العشرين شهدت صحف بنغازي كتابات ونقاشات بين مجموعة من المشايخ

تلازمت مع خطب الجمعة فوق منابر المساجد، كان أشهرها ما دار بين الشيخين محمد الصفراني وأحمد بازامة حول (ذبيحة أهل الكتاب) و(دعاء ليلة النصف من شعبان) بين الشيخ محمد الصفراني ـ مرة ثانية ـ والشيخ عبد السلام ابن عمران في درنة، وهذه المحاورات والكتابات لم يألفها الناس بهذه الصورة وعلى الصحف إلّا نادراً، وكان فيها أوجه خلاف واتفاق، مع الانتقاد الشخصي لأطراف التحاور، ثم علم الناس من خلال صحيفة (طرابلس الغرب) بالحملة الكبيرة من الخطب والمقالات التي قام بها الشيخ عبد الحميد شاهين، أحد علماء الأزهر المصريين وكان مديراً لمعهد القويري الديني في مصراته، على البهائية التي نشطت في الشرق تلك الأعوام، وانتهت بصدور كتابه عنها بعنوان (البهائية.. كفر وإلحاد فاحذروها)، كانت هذه المناقشات العلنية تحريكاً لساكن في كل الأحوال!

غير أن أكثر الكتابات ضراوة بدت من خلال الشعر عندما نشر الشاعر خالد زغبية الطالب بقسم اللغة العربية وزميل النيهوم في السنة نفسها، قصيدته الشهيرة (بلادنا) في صحيفة (فزان) في عددها الصادر يوم 11/ 11/ 1958. كان زغبية آنئذٍ أحد أصوات الحركة الشعرية الجديدة في ليبيا التي تأثرت في بداياتها بقصائد عبد الوهاب البياتي، ونزار قباني، وبدر شاكر السياب... وغيرهم، وكان ينشر قصائده في صحف بنغازي وطرابلس، لكنه آثر نشر تلك القصيدة

في صحيفة تصدر في جنوب البلاد بمدينة سبها، وقد قوبلت بسخط من بعض المشايخ ورجال الدين الذين اعتبروها موجهة لهم. في جزء من القصيدة قال زغبية:

(بلادنا عريقه

تاريخها مسطور في الصدور

وفي جماجم المخضرمين

ذوي العمائم البيضاء واللحى المرسله

أولئك الذين يهرفون بما لا يعرفون

وينفقون أعمارهم هباء في الصلاه

لكي تقيهم جهنم الحمراء

ويقطنون صوامع علياء

وفيها يحلمون بالجنة الفيحاء)[*]

كانت القصيدة ساخنة ولاذعة واستوجبت رداً شعرياً عنيفاً من أحد طلبة معهد (أحمد باشا الديني) في طرابلس هو الطالب عبد المولى البغدادي (الأستاذ الدكتور لاحقاً) نشره في صحيفة (الزمان) الصادرة ببنغازي يوم 1 يناير/

(*) نشر زغبية القصيدة مع تغييرات طفيفة ضمن ديوانه الأول (السور الكبير) الذي صدر في طبعته الأولى عن دار النشر الليبية. طرابلس، يوليو/تموز 1964 وتمت مصادرته آنذاك.

كانون الثاني 1959، على نسق عمودي ورد فيها:

أدلى الأديب برأيه فأصابا
وسما به أدب الورى فأهابا
لم تغنه (الآداب) عن تفكيره
فغدا يفكر حائراً مرتابا
حكم الأديب على الصلاة بأنها
عمل يحيك الهدم والإرهابا
ومضى يندّد بالعمائم ساخراً
حتى أهان المعلم والطلابا
اخرس فإنك قد خرجت من الهُدى
وطلعت فينا ملحداً كذّابا

ولم ينته التحاور شعراً عند هذا الحد إذ سارع زغبية بالرد بقصيدة عمودية أيضاً نشرها في صحيفة (العمل) الصادرة ببنغازي يوم 7 يناير/كانون الثاني 1959 أسماها (الراهب الشيطان) وقد تصادف أن نشر زميله الصادق النيهوم، الذي ظلّ بعيداً عن الشعر.. والمعركة، مقالة في هذا العدد باسم (التافهون) تناول فيها موضوعاً اجتماعياً عن المرأة العاملة في مصنع للنسيج في بنغازي، وصدّر زغبية قصيدته الطويلة بقوله: (إلى دعاة التردد والهزيمة، إلى دعاة التزمت والرجعية، إلى الذين يتترون بالدين ويتكسبون منه، إلى الذين شوّهوا الشريعة السمحاء، وهي منهم براء... إلخ)، وجاء في بعض منها:

ضجَّ (المعمم) بالشكاة، وعابا
ومضى يهدّد بالوعيد، رقابا
لم يغنه (الجلباب) عن تفكيره
فغدا يهرطق، لا يروم صوابا
ما باله خلع الوقار وقاحة
منه، فحاد عن الصواب وخابا
ما بال (حامي الدين) يبدو ثائراً
حسب (العمامة) مرجعاً ومآبا
حسب الديانة (جبة) و(عمامة)
فغدا يتيه على الورى إعجابا
حسب الديانة (لحية) و(مسابحاً)
تغني عن الأيمان أو (جلبابا)
ورماني بالإلحاد، والكفر الذي
هو منه (بالقوسين أدنى قابا)
أنا لا أرى في الدين ثمة مأخذاً
بل كان دوماً، كاملاً ومهابا

... إلى آخر القصيدة، التي فوجىء بها المجتمع وسبّبت مع سابقتها (بلادنا) مشكلة للطالب خالد زغبية مع القضاء، وقارب أن يُفصل على أثرها من الدراسة في الجامعة، لكن تدخّل بعض أساتذته المصريين أطفأ نار المشكلة داخل الجامعة بتوسطهم لتسوية الأمر مع مدير الجامعة. كان أولئك الأساتذة عايشوا آثار المعارك الفكرية

في القاهرة والتي دامت وقتاً طويلاً لعلي عبد الرازق وطه حسين وعباس العقاد ومصطفى الرافعي.. وغيرهم في موضوعات تتعلق بالإسلام، واعتبروا أن ما حدث علامة صحة في المجتمع.. لا علامة ضعف ومرض!

في هذا المشهد كان النيهوم، صامتاً.. يراقب من بعيد، لم يشارك في هذه (المعارك) أو (المحاورات). وكانت بدايته الأولى في الكتابة مقالة عن التاريخ نشرها وهو طالب بالسنة الأخيرة من المرحلة الثانوية عام 1957 في مجلة المدرسة ببنغازي.. ثم لينشر دراسة (الرمز في القرآن) عام 1967، عشر سنوات كاملة بين الخطوة الأولى، وبين تلك الدراسة، شهدت التحاقه بالجامعة وبعض الكتابات الخجولة في صحيفة العمل، وتخرّجه صيف 1961، وإيفاده للدراسة العليا في فقه اللغة العربية بألمانيا ومصر، ثم إقامته في هلسنكي بفنلنده (كاتباً محترفاً) في صحيفة الحقيقة ببنغازي.

* الصورة عام 1967:

نشر النيهوم أول مقالاته في الحقيقة في أول أعدادها اليومية في مارس/آذار 1966، بمقالة عنوانها (هذه تجربتي أنا) ختمها بقوله: (أرجو الا ينسى أحد أن ما أقوله في الأيام القادمة يعني بكل إخلاص ثلاث كلمات فقط «هذه تجربتي أنا».. ولكل منا الحق في أن يقول تجربته على نحو ما)، ثم

بدراسته عن (الكلمة والصورة) و(الحديث عن المرأة والديانات) إضافة إلى بعض القصص والحكايات وترجمة ما يُنشر في الصحف الأوروبية، ومقالاته الاجتماعية التي ظلّت (تناكف) العادات والتقاليد وتنقدها في سخرية واضحة، ثم بدراسته المطولة عن ديوان (الذي يأتي ولا يأتي) للبياتي وكان قد صدر حديثاً مستلهماً فيه الثورة والصوفية وحياة الشاعر عمر الخيام، ووصل النيهوم إلى مواجهة مباشرة لأول مرة مع رجال الدين في مقالته (من أكل القديد؟) والتي تناول فيها أضاحي العيد وفكرة توفير الإنفاق بصددها من الناحية الاقتصادية فكان الحاصل (ردّاً خفيفاً) من الجامعة الإسلامية نُشر في مجلتها (الهدى الإسلامي) وصحيفة الحقيقة، وحين كتب النيهوم كل هذه المقالات والدراسات شعر القرّاء بالدهشة على مختلف مستوياتهم فقد أتاحت لهم الاتصال بالمجتمعات الغربية من خلال ترجماته عن الحياة ومظاهرها هناك، كما وفّرت براحاً واسعاً للتعرّف على البياتي والفيتوري ونزار قباني وقضايا التخلّف والتنمية ومشكلة المرأة وموضوعات الفكر والفن.. وغيرها. كان النيهوم يعرف بالضبط (ماذا يريد القارىء) فعرض بضاعته فوق الرصيف في وقت اشتهر فيه محلياً وبقياس كبير ودون أن يعرف القرّاء العرب شيئاً مما يدور على هذا المستوى في الداخل.. لكنهم فطنوا إليه في وقت متأخرا

وكان أيضاً للنيهوم أن يثير حوله الجدل فيختلف معه كثيرون، ويتفق معه آخرون، ويشعر سواهما بالحساسية أو

الغيرة أو الإعجاب بعاطفة تجاه ما ينشره، وهو مخاض كان من الطبيعي أن يبرز ويلوح في ذلك الوقت، وربما كان مخطئاً ـ بحسن نية بالطبع ـ من اعتقد أن النيهوم صاحب أسلوب رائع فقط، ولم يكن صاحب فكرة تلحّ على خاطره باتصال سواء كانت على صواب أم تعثّرت في الطريق.

واستمر النيهوم بلا توقف (فغامر) بإرسال حلقات (الرمز في القرآن) وهي دراسة في سلسلة مقالات شرع في كتابتها منذ عامين سابقين (1965) لتُنشر على مدى أسابيع في شهري يوليو/تموز وسبتمبر/أيلول 1967 ثم توقف عند الحلقة السابعة، ويلاحظ أن الأمر نفسه فعله مع روايته (من مكة إلى هنا) التي كتبها أيضاً عام 1965 ونشرها بعد خمس سنوات في الحقيقة عام 1970 وصدرت في كتاب عدة طبعات.

والواقع أن (الرمز في القرآن) لم يكن موضوعاً عجيباً أو غريباً بتلك الدرجة التي تستأهل التهويل والمبالغة، لكن الغريب فيها أن نشرها وما تداعى عنها من ردود وحوارات جريئة من النيهوم الذي أصرّ على (رأيه الخاطىء!) ـ وتراجع عنه بعد فترة ـ أُنجز في ظروف اجتماعية محافظة وتقليدية.. وكأن شيئاً لم يحدث أو يستدعي الانتباه فيما أُعيدت بقية الحلقات التي لم تنشر إليه في هلسنكي.

كانت الصورة في بنغازي، وليبيا عموماً، عام 1967

متنوعة: ظهرت نعمة النفط على البعض وازدادت المشروعات والإنفاقات، وظلّت الحقيقة تصدر يومياً وبشكل متطور في الألوان والإخراج والطباعة والتوزيع ووصلت إلى مختلف المناطق في ليبيا، وكان النيهوم فارسها المجلّى، وكان ثمة معارك أدبية تنشأ حول قضايا الشعر والفن في صفحاتها، وكان طلبة الجامعة الليبية في بداية العام يعتصمون مطالبين بتكوين اتحادهم وظلّوا هكذا أياماً وليالٍ في وسط الشارع أمامها دون أن تمسّهم السلطة بسوء، وحضر نزار قباني ليقيم أمسية شهيرة في حديقة كلية الآداب، ثم عبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري بدعوة من الحقيقة التي كانت في ذلك العام أيضاً أول صحيفة ليبية وثاني صحيفة عربية تبدأ في التقاط صور لأحداث العالم بالراديو وتنشرها في عدد اليوم التالي، وظلّ الشباب متأثراً بأغاني عبد الحليم حافظ وفرقة الخنافس (البتلز) وملابس (الآرو)، واشتعل الموقف أواخر مايو/أيار بإغلاق مضائق تيران ليصل إلى نكسة الأيام الستة في يونيو/حزيران وتضيع ثلاث أراضٍ عربية في خبطة واحدة، وتأثرت ليبيا فتداعت بالسهر والحمى وانفجرت المظاهرات في مدينتي طرابلس وبنغازي واندلعت الحرائق بهما، وصار الأفق كله رماداً أسود، وفرض حظر التجول، وتوقف ضخّ النفط إلى دول الغرب، وظلّت الأناشيد الحماسية تلعلع وتصدح، واعتُقل مجموعة من الشباب المنضوين إلى حركة القوميين العرب

وحُوكموا في قضية اشتهرت باسم (106)، وهو عددهم الإجمالي، وخرج نزار على المسرح العربي بقصيدته (هوامش على دفتر النكسة) والياتي بأخرى عنوانها (الحمل الكاذب)، واستمر المواطن الليبي، في مدنه وقراه، تشدّه مع أذنيه إذاعة صوت العرب وتعليقات أحمد سعيد وخطب عبد الناصر، وراديو لندن.. يتابع منهما نشرات الأخبار وآخر الأغاني وقول على قول لحسن الكرمي والسياسة بين السائل والمجيب. كان الراديو يومئذٍ هو معقد الرجاء والأمل، والانتصارات والهزائم تأتي من خلال موجاته، وكان الاستماع إليه في الحوانيت أو البيوت أو السيارات مع رشفات الشاي والقهوة وأنفاس السجائر من الأشياء اللازمة والمحببة، وكأنها لحظة تجلٍّ رومانسية!

في أجواء هذه الصورة المتنوعة لذلك العام وما تحمله من مشاهد وألوان نشرت دراسة الرمز في القرآن ثم توقفت: لصدمة (المجتمع المحافظ) الذي لم يتعوّد على هذه الجراءة بهذا الشكل من قبل، وعدم الاقتناع الكامل بما ورد فيها، وكذا لتعرض الفقهاء، الذين لم يكن النهوم على وفاق معهم، بالنقد الحاد لها وتوجيه (اللعنات) من بعضهم من على منابر المساجد، ولوقوف الجامعة الإسلامية منها موقفاً شديداً تطلّب إيقافها عن النشر فيما أعدت رداً في كتيب صغير بلغ (11) صفحة رقنت على الآلة الكاتبة ووزع في نطاق محدود وكررت الجامعة نشره

على مدى حلقات في أعداد من صحيفة (طرابلس الغرب) إضافة إلى ردود أخرى لم يسلم النيهوم من هجومها ـ وإن بصورة غير مباشرة ـ وفي جانب آخر لاقت الدراسة التي لم تكتمل، رغم أخبار الحرب وظروف الطوارىء ومواجز الأنباء في لندن والقاهرة، الكثير من النقاش في المنتديات وأماكن العمل وأوساط المثقفين وطلاب الجامعة... وكلهم في الواقع لم يتفقوا مع النيهوم فيما ورد في دراسته، وأشاروا بأنه تسرّع.. ولم يضبط أموره جيداً!

ورغم أن المجتمع برمّته في ليبيا ما يزال محافظاً ـ مع التطور الذي يلحظه ـ وحدوث الصدمة المفاجئة من تفسير النيهوم في بعض حلقات الدراسة لما يتعلق بالسيدة مريم وابنها عيسى المسيح ﷺ، فإن النيهوم لم (يُضطهد) أو يمنع من الكتابة، ولم تصادر بقية مقالاته، ولم يمنع من دخول بلاده أو زيارتها متى أراد، ولم يسحب منه جواز سفره أو يوضع اسمه في (القائمة السوداء)، بل واختير عضواً في وفود أدبية ليبية للمشاركة في مؤتمرات وندوات في الداخل والخارج. كان هناك هامش واسع من الحرية وإبداء الرأي في هذا الموضوع ولم تتدخل أجهزة الدولة السياسية أو الأمنية بأي شكل من الأشكال.

لقد ظلّ (الفقي البسيط) هو قضية النيهوم، كما سبقت الإشارة، خاصة بعد توقف نشر الدراسة، وفي تصوّره أن (رجل الدين) في الإسلام غير معترف به، فاستمر يحارب

هذه (الحرفة) ـ وإن لم تكن موجهة للفقي بطريقة مباشرة ـ ولكن من خلال نقده لنظام الكنيسة والقساوسة في الغرب، ولعل ذلك لم يعط مبرراً معقولاً للنيهوم أو حجة في أحقيته لتفسير القرآن بالطريقة التي (تسرّع) فيها أثناء دراسة الرمز في القرآن.. فجاءت غائمة.. ومشوشة.. ومليئة بالأخطاء الكبيرة وسط مجتمع محافظ يستحيل معه قبول رأي مخالف في شيء مقدس وبسهولة. ومع ذلك ـ بعد هدوء الأمور، عاد النيهوم إلى التمسك بآرائه والمناداة بها علانية في حوارات أُجريت معه ونُشرت دون حذف أو مصادرة في مجلة (الإذاعة الليبية) ثم صحيفة (الرائد).. وهو أمر راكم السابق مع اللاحق وحصلت بشأنه ردود ومناقشات في بعضها قسوة.

*** مراسلات حول الدراسة:**

وصل النيهوم إلى قناعة مؤدّاها: نفض يديه من مواصلة الدراسة، والرد على ما وصله أو علم به من مناقشات وتعقيبات، واكتفى من الغنيمة بالإياب، ومؤثراً السلامة، فأرسل إلى صديقه رشاد الهوني أواخر 1967 قائلاً: (.. اريد أن أشكرك هنا.. وأشكر الأستاذ محمد على موقفكما الواعي تجاه ردّ الجامعة الإسلامية الذي بدا في النهاية مجرد شتم عادي لا يليق بسمعة أحد. وقد كان بودي لو أتيحت لي فرصة النقاش بصورة أفضل، فأنا لا اريد أن أشتم الفقهاء، ولا أتمنى أن أتورط في شجار مع أحباء الله. وقد انتابني الألم كثيراً أمام تصرف الجامعة. فالقرآن

ليس ملكاً للشيخ المدهش الذي يدعوني ـ فوق صحيفة حكومية ـ دودة تنخر في عظام الأمة ـ والمسؤولون في ليبيا إذ يسمحون بارتكاب هذه التفاهات في وضح النهار، إنما يضعون عنق ليبيا البائسة تحت مقصلة حقيقية من أظافر الرجال الجهلة.. ويفقدون أحسن أصدقائهم).

وانتهى في خاتمة رسالته إلى: (إذا تقرر أن نلتقي فأرجو أن تحضر لي معك كل حلقات دراسة الرمز في القرآن التي نُشرت والتي لم تنشر، وأحضر لي أيضاً المقالات التي يبدو أنكم قرّرتم عدم نشرها. فأنا أريد أن أقرأها مرة أخرى على ضوء تجربتي الحالية).

ويبدو أن النيهوم هنا، كان يود استمرار النقاش (بصورة أفضل) كما أشار، ولكن مسؤولي الصحيفة قرّروا الاكتفاء بما حدث والتوقف عند هذا الحد لأنهم أدركوا بأن النقاش في الموضوع لن يكون (أفضل). وثمة إشارة أخرى تفيد باستعداد النيهوم لإعادة قراءة ما كتبه، وربما إعادة النظر فيه، على ضوء ما حدث.. فهل وقع ذلك حقاً من النيهوم.. أم ضرب صفحاً عن ذلك، ولو أن بعض الدلالات تفيد بأن دراسته التي نشرها عام 1969 بعنوان (العودة المحزنة إلى البحر) فيها عودة من خلال بعض حلقاتها إلى الرمز في القرآن ولكن بطريقة أخرى.. وخالية من الأخطاء!

وقد أعاد تكرار طلبه بإعادة الحلقات، إذ لم يلتقِ برشاد الهوني وكان مقرراً أن يتم ذلك في القاهرة، فأرسل هذه المرة إلى صديقه الكاتب خليفة الفاخري رسالة طويلة يوم 11/ 1/ 1968، ذكر فيها: (.. المهمة الثانية يا صديقي خليفة أن تطلب من رشاد أو أخيه محمد كل أجزاء دراستي عن الرمز في القرآن التي نُشرت والتي لم تنشر وتبعثها لي هنا بالبريد العاجل فأنا أعدّ هذه الدراسة لمؤتمر المستشرقين في ميونيخ ولا بدّ أن أفرغ منها). والواضح أن خليفة اتصل برشاد وعرض عليه كلام النيهوم ويبدو أن ثمة نقاشاً حدث بينهما حول تداعيات الدراسة وغبارها الذي ما يزال عالقاً في الجو، ونقل ذلك في رسالة سريعة ردّ عليها النيهوم من هلسنكي في 20/ 2/ 1968 جاء فيها قوله: (.. وقال لك إن ردّ الجامعة الإسلامية يفيد أنني استقيت دراسة الرمز في القرآن من كتاب مستشرق ألماني، وأنا أملك نص الرد هنا، وليس به شيء من هذا القبيل فالفقي الذي شتمني على جريدة العلم، لم يستطع أن يلصق بي تهمة السرقة على الأقل).

وأيضاً قوله: (.. أما دراستي فهي عمل لغوي في الدرجة الأولى، والمستشرقون الألمان عاجزون عن إفادتي في هذا الاتجاه عجزاً مطلقاً.. إنها عرق، عمل عظيم صنعته بيدي ولن يستطيع الفقهاء والمستشرقون ورشاد الهوني أن يبدّلوا هذه الحقيقة. وإذا أتيحت لي الفرصة فسوف أقدّم

لجيل ما، تفسيراً متكاملاً للقرآن، تفسيراً يأتي بعد أربعة عشر قرناً من رجل نصف ميت، ويكتشف الحقيقة كلها)!!.

وتوقف الموضوع، القضية عند هذا القدر من الرسائل بين الأصدقاء الثلاثة، ودون أن يتصل به القرّاء مباشرة أو يعرفوا عنه شيئاً آنذاك، وعلى ما يبدو فإن الدراسة وصلت لاحقاً إلى النيهوم في هلسنكي واحتفظ بها، وقد يكون نشرها (بأربع لغات أخرى) غير العربية، كما ورد في حواره مع الهتكي في (الرائد) بعد عام من تلك الرسائل، ولكن: أين ومتى وكيف، فذلك ما لم يفسّره النيهوم أو يُفصح عنه، مع ملاحظة عدم وجود ما يؤكد ـ حتى الآن ـ حضوره أو مشاركته في مؤتمر المستشرقين بميونيخ وتقديمه للدراسة في أيٍّ من جلساته، وأيضاً.. ما يؤيد تحقيق فرصته أو تفكيره في تقديم (تفسير متكامل) للقرآن.. وهل أن ذلك يقتصر على (الرمز في القرآن) فقط.. أم سيكون (شاملاً)، ويُستفاد من هذه الإشارة في رسالته لخليفة الفاخري أنه: (بصدد) أو (على وشك) إعادة النظر في دراسته (السابقة والمتعجّلة) على ضوء ما نتج عن نشرها من تداعيات وما حدث فيه من (خلل) أو (قصور).

*** ... وحوارات أكثر جراة:**

في تداعيات موالية ـ كآثار الزلزال البعيد ـ وبعد هدوء (عاصفة الرمز) حضر النيهوم لزيارة بنغازي صيف

1968 وقضى بها أياماً أجرى فيها معه سليمان كشلاف حواراً نشره في مجلة (الإذاعة والتلفزيون) التي تصدر عن جهة رسمية هي وزارة الإعلام والثقافة.

كان ذلك أول حوار صحفي يتمّ مع النيهوم ويُنشر داخل ليبيا، وفيه أجاب عن أسئلة حول الرمز في القرآن بعد عام من نشر الدراسة، وأخرى تتصل بالسيد المسيح عليه السلام، ورغم ما أبداه من آراء اتسمت بالجرأة أيضاً إلّا أن المجلة وما تكلم به النيهوم خلالها مرا مروراً عابراً ودون أن يستدعي أي نقاش أو (تكفير) أو ردود بشأنه على مستوى رجال الدين أو القرّاء، ولعل الأسباب تعود إلى محدودية توزيع المجلة وانتشارها، أو اقتصارها على فئة معينة من القرّاء بعكس الصحف اليومية، سواء كانت حكومية أو خاصة، (كانت المجلة تصدر مرتين في الشهر)، وأكّد النيهوم في هذا الحوار استعداده لإعاة نشر دراسة الرمز في القرآن على صفحاتها مع تحميلها ما ينتج من متاعب!

وكانت تلك فرصة أولى للنيهوم للتوسع فيما عجز عن الإفصاح به في تلك الدراسة، ثم عاد ثانية في سبتمبر/ أيلول 1968 ليشارك في المؤتمر الأول للأدباء والكتّاب الليبيين الذي عقد في طرابلس، وقد تعرّف عليه أغلبهم للمرة الأولى، وأجرى معه محمود الهتكي مقابلة إذاعية عن (الفقي) والتداوي بالأحجبة مؤكداً، كما سبقت الإشارة،

عدم وجود هذه المهنة في الدين الإسلامي ولم يحدث تجاه ما أدلى به وعبر إذاعة (الدولة) على مدى ساعة كاملة تقريباً أية (مشكلة) أو (ردّ فعل) ومضت هذه المقابلة بسلام كما مضى حوار كشلاف، والاثنين: المقابلة والحوار تمتا من خلال الإذاعة مقروءة ومسموعة!.

هذا (السلام) ظلّ إلى مارس/آذار 1969 بعودة النيهوم إلى طرابلس مشاركاً في عضوية الوفد الليبي في مؤتمر أدباء وكتّاب المغرب العربي، وألقى فيه بحثاً عنوانه (نقاش مشاكلنا)، صرّح فيه منذ البداية بأن: (الثقافات المتخلفة في المنطقة هي في الواقع أسوأ ما يستطيع أن يواجهنا، وأسوأ ما يواجه الآخرين أيضاً. إنها نوع من القهر الثقافي الذي تمارسه الكتلة على الفرد وتضاءل بجانبه أي عمل للمقاومة) وألمح إلى أننا: (في ليبيا نواجه هذه المشكلة.. نحن ما زلنا نتعلم الكتابة، ولكننا بدأنا نواجه منذ الآن ضغطاً مباشراً من التيار الفكري المقابل الذي يجرّه المجتمع وراءه عبر محنته الثقافية، فالوعي غير الكامل لا يستطيع أن يعتمد على قدرته في النقاش المتزن، ولا يستطيع أيضاً أن يقبل شيئاً بجانبه. إنه يرد دائماً بعنف غير متوقع، ويجعل محاولة إحداث التغيير أكثر صعوبة من التغير نفسه..).

وبدا أن النيهوم في بحثه المطوّل الذي ألقاه أمام رفاقه (المغاربيين) يطرح همّه الخاص.. فوجد في ذلك

فرصة مؤاتية لمزيد من القول عن الرجل الليبي، الذي تجاوز الستين من عمره، بأنه (حشا رأسه بأقوال الفقي التركي الذي يبيع له المعرفة في الجامع مقابل ثلاث بيضات في الأسبوع، ثم جلس فوق النطع بقية حياته لكي يضع كل ذنوبه فوق عاتق الشيطان، ويعلّق أحلامه في إصبع القدر ويستهلك ما ينتجه أولاده في انتظار الذهاب إلى الجنة، فإذا قرّر ذات يوم أن يتخذ موقفاً تجاه مجتمعه فإن موقفه في الغالب مجرد رفض متعمد مُقام على التهديد بالجحيم وغضب اللّه أيضاً كأن الجحيم مجرد مكان معدّ للناس السيئي الحظ الذين لم تتح لهم فرصة الولادة في عصر الفقي التركي).

وبالطبع كان النيهوم لا يقصد أي (فقي تركي).. فالرمز كانت لعبته المفضلة، مشيراً ـ أيضاً بلا رمز ـ إلى أن: (الناس في شوارعنا لا يحتملون وخزات النقد، دون أن يفقدوا صبرهم نتيجة الحساسية المفرطة التي تتسم بها أية ثقافة غير ناضجة. والمرء يستطيع بالطبع أن يغمض عينيه ويقرر أن يجرِّب حظه في تأدية واجب النقد الشجاع، ولكنه بالتأكيد لن يكون بوسعه أن يواصل إغلاق عينيه عندما يُفاجأ في اليوم التالي بأنه قد وقع فريسة المقالات النارية التي يتبرع بها المرتزقة للدفاع عن أي شيء. إنه يستطيع أن ينهض في الصباح ويكتشف أنه جاسوس صهيوني، أو ابن عاهرة سكير مليء بالفضائح أو عدو لدينه ووطنه، فليس ثمة حد على

الإطلاق لمجموعة الشتائم المملّة التي يستطيع المرء أن يتعرّض لها إذا قرّر ذات يوم أن يقول شيئاً يؤمن به).

وهنا ظلّ النيهوم متمترساً وراء (موضوعه) بحزمة أخرى من الكلمات فواصل قائلاً: (نحن لدينا القرآن، لدينا النص السماوي الوحيد في العالم الذي يمكن الوثوق بكل كلمة فيه، ولدينا نتائج هائلة من الدراسات الحديثة التي تصلنا بلا انقطاع من كل الاتجاهات. ونحن نزمع أن نجعل هذا الكتاب العظيم نصب أعيننا في تحديد مواضيع النقاش. فليس ثمة كاتب ليبي واحد لا يستشعر هذه الحاجة إلى تحديد معالم الطريق، ولكن دراساتنا لا بدّ أن تؤدي دورها في تقديم الجيل التالي إلى مكانه في العالم المفتوح).

ثم أسهب في التفاصيل بقوله: (.. فالدراسات الدينية لا علاقة لها بالتشريع السماوي، والمرء لا يستطيع أن يقبل إبقاء الباب مغلقاً بحجة الفقهاء وحدهم، فالدين ليس مهنة لأحد. إنه علاقة بين اللّه وبين إنسان من خلقه تخرّج عن اختصاص الفقي. ونحن نملك القرآن. نملك النص السماوي الوحيد الذي وصل إلى العالم كاملاً فإذا استطعنا أن ننقله إليه بأمانة، وإذا لم نفقد إيماننا بأنفسنا، فأنا أتوقع أن نساهم في إيجاد جسر أكثر متانة بين إنسان هذا العصر - الذي فقد إيمانه في الرومانتيكية الدينية - وبين اللّه..).

ثم انتقل للمقارنة دفاعاً عن - تلك التفاصيل -:

(.. فالمسيحية خسرت معركتها لأنها كانت تحارب عقل الإنسان. لقد ظلّت تمطره بالخرافات عن القديسين وأنصاف القديسين، وظلت تمتهن عقله بقصائد الشعر المعقدة وبيع الأماكن الشاغرة في الجنة حتى اعتراه الملل ذات يوم وقرَّر أن يذهب إلى الجحيم. إننا هنا لا بدّ أن نتجنّب هذا الفخ، فالإسلام لا يضع نفسه في طريق العقل البشري الباحث عن المعرفة. وليس من مصلحة أحد أن يحاول أن يضعه هناك، لأن ذلك في نهاية المطاف مجرد عمل ضد إرادة اللَّه، وما دام اللَّه يريد أن نعرف، فمن يستطيع أن يحرمنا من هذه المنحة دون أن يتعرض للخسارة). بهذا البحث الذي نُشر بعد انتهاء المؤتمر في عددين من صحيفة الحقيقة، نقل النيهوم معركته إلى (ساحة خارجية) ليست بعيدة عن ليبيا ودون أن يطرحها في تقريرية مباشرة، ومتخذاً من ذلك جسراً يشير من فوقه إلى (التخلف الفكري) الذي يسود المنطقة العربية بكاملها، وبلا استثناء، فهو عندما كان يقول (نحن) فإنه يعني مواطنيه الليبيين في الدرجة الأولى، وفي وجهها الآخر يعني (نحن العرب) جميعاً، فكلنا في (الهم شرق)، وكان يغمز من الاستبداد الذي شهدته المنطقة بنوعيه السياسي والديني! وبدا النيهوم أيضاً في هذه الجزئية الطويلة من بحثه (المغاربي) مثل صوفي، في حلقة ممتلئة بالمريدين والمهم أنه، بذكاء، سرّب (موضوعه الخاص) بشكل ما.. ودون أن يشوب كلامه أي لبس أو تشويش أو

سوء فهم، لكن هذا البحث والحديث بانطلاق في المؤتمر الذي شهدته قاعة (البرلمان الليبي) لم يكن كافياً أيضاً بالنسبة للنيهوم الذي تمنّى عليه الكثيرون ـ في مرحلة تالية ـ وهم متابعوه وأصدقاؤه أن يدع موضوعة (الدين) جانباً وينصرف إلى اهتماماته وكتاباته التي أجادها في الدراسات الأدبية، والنقد، والقضايا الاجتماعية.. فذلك أجدى له.

فما الذي حدث على هامش حضوره للمؤتمر؟

جلس ثانية في حوار آخر أجراه محمود الهتكي ليجيب عن أسئلة أعادت (الرمز في القرآن) على السطح من جديد وأفاض النيهوم في إجابته.. ولم يقصّر. تناول، هنا، بصورة صريحة ومكشوفة موضوع كفالة السيدة مريم وولادة ابنها السيد المسيح ومعجزاته مستنداً ـ كما قال في المؤتمر بالضبط ـ على أن الدراسات الدينية ليست ملكاً للفقهاء وحدهم.

وانفجرت الردود والمناقشات هذه المرة.. انفجرت أكثر من المرة السابقة فلم يعد ما قاله النيهوم (يحتمل السكوت) وفتحت صحيفة (الرائد)، التي نشرت الحوار، الباب واسعاً للمزيد وتباينت تلك الردود والآراء بين المثقفين ورجال الدين.. فبعضها كان قاسياً لأن ما صرّح به النيهوم كان قاسياً وصادماً أيضاً، وبعضها هادئاً، وبعضها كان محايداً أو خجولاً، وكان أطولها ردّ المحامي إبراهيم

الغويل الذي استثناه النيهوم في حوار آخر من عدم (امتلاك القدرة على النقاش).

على أن العجيب في الأمر، كما لوحظ في حينه، بأن بعض الردود ـ على شدّتها ـ لم تتهم النيهوم بالكفر أو ترميه بالزندقة والإلحاد، ولم تطالب بتقديمه للمحاكمة، ولم يتبرع أحد بالدعوة إلى إهدار دمه وإقامة الحدّ عليه!

ومن المنطقي ـ بعد مضي أربعين عاماً أو يزيد ـ على تلك المحاورات والنقاشات أن يشعر المرء بذهول إزاء هذا (الموقف العجيب) الذي شهده المجتمع الليبي وربما لم يحدث في مجتمعات عربية أخرى آنئذٍ، بالصورة نفسها، أو لم يتكرر لاحقاً في واقع ـ غير الواقع الليبي ـ وفي ظروف أضحى العالم فيها أكثر تقدماً وانفتاحاً و(قرية صغيرة) بفضل الاتصالات والفضائيات.. واقع، رغم ذلك ـ يخالف في بعض جوانبه ثبات وخلود وروعة (الجدال بالتي هي أحسن) التي نادى بها القرآن الكريم.

لقد سبق النيهوم بدراسته عن الرمز في القرآن وبجرأته في حواراته بشأنها الكثيرين في تلك الفترة ـ خاصة خارج ليبيا ـ ولم يسمع أحد من القرّاء أو المثقفين العرب ـ كباراً وصغاراً ـ عن الأجواء المتاحة التي دار فيها النقاش بلا عسف من السلطة أو من الرقابة.. مقارنة بما حدث، على سبيل المثال، لصادق العظم وكتابه (نقد الفكر الديني) الذي قُدِّم بسببه للمحاكمة في بيروت ـ رغم الاختلاف الكبير بين

المجتمعين الليبي واللبناني.. الأكثر حرية وانفتاحاً.. وانطلاقاً!

ذلك لم يحدث للنيهوم الذي صودرت كتبه الثلاثة في لبنان بعد وفاته بشهرين وهي: (صوت الناس ـ إسلام في الأسر ـ إسلام ضد الإسلام) والتي تولّت نشرها (دار لبنانية) وقد قصدت هنا تكرار تأكيد (ما لم يحدث للنيهوم) بعد نشر الدراسة التي لم تكتمل والحوارات في حينها، مقارنة بالموقفين في بنغازي.. طرابلس وبيروت بالرغم من حساسية ما يتجرأ على قوله والتصريح به، أكثر من مرة، في حرية تامة، وهو شيء فاصل ومهم يحسب للدولة الليبية (المحافظة) ـ وصحافتها التي تحملت مسؤولية النشر دون أية خسائر تذكر!

النيهوم، الآن في ذمّة الله والتاريخ

ولا شك أنه حاول من حيث كان يعتقد أنه (صحيح) وتعثر في طريق لم تكن سالكة، لكن الموضوع، شئنا أم لم نشأ، حرّك ساكناً.. وأثار جدلاً.. وشدّاً وجذباً لعل الحياة الفكرية العربية المعاصرة تفتقر إليه.. وتظل مشدودة بصرها نحوه.

وفي صفحات هذا الكتاب ذكر ما جرى عندنا في ليبيا خلال (1967 ـ 1969) ولم يكن القرّاء العرب أو (النخب العربية المثقفة) على صلة به، وقد مضت أربعة

عقود، حدث فيها ما حدث، وعرف النيهوم لاحقاً خارج وطنه.. دون أن يُعرف ثمة شيء عن بعض معاركه الفكرية أو (عثراته) قبل ذلك.

إن هذه الصفحات تصبّ في خانة (التاريخ) ولا شيء غيره. ولا يقصد بها الدفاع عن النيهوم أو الانحياز للردود، أو رغبة في نشر الغبار من جديد، فالموضوع انتهى في حينه.. وبقي أن يستفيد من توثيقه وعرضه، بطريقة أو بأخرى، المتابعون لمثل هذه القضايا والموضوعات الفكرية.. والمحبون للتأمل والمقارنة.. واستدعاء التاريخ، بعد أن ظلت حبيسة أرشيفي الخاص لفترة من الأعوام وأرفقت معها مقالات للنيهوم ذات صلة بالموضوع لعلها تفيد في الإلمام بتفاصيله.

وأود الإشارة بأنني لم أتدخل فيما ورد سوى بوضع التعليقات في الهوامش والإحالات والتعريف بالأعلام أو الموضوعات ذات الصلة، وأخذت من ذلك سواء مما توافر لي على مستوى شخصي أو من عديد المصادر (كالموسوعة العربية الميسرة والقاموس الإسلامي والموسوعة العربية العالمية وبعض مواقع شبكات المعلومات)، ورأيت أن ذلك أمر ضروري يغطي الصورة كما حدثت.. ويلقي الأضواء للقارىء.. عن طريق لم تكن سالكة أبداً أمام النيهوم.

سالم الكبتي

بنغازي: 18/12/2008

مجموعة المقالات
(دراسة لم تكتمل)

أنا لا أعمل في تفسير القرآن، ولست (فقيًا)، ولا أعتقد أنني أستطيع أن أحترف تلك المهنة الشاقة ذات يوم. كل ما في الأمر، أنني كنت أقوم بدراسة في «الكلمة والصورة»[1] محاولاً أن أتعرف على أبعاد الرمز وراء حدود اللفظ. وقد قادتني مراجعي منذ البداية إلى كلام الله في القرآن، وبذلت جهداً جانبياً لفهم النص المقدس ضمن إطار دراستي، ورغم اعتقادي بأنني وجدت طريقاً سليماً وواضحاً، فقد آثرت أن أنتظر نشر نتائجي ريثما أنال فرصة أكثر ثباتاً لمواصلة المراجعة.

وهنا، في هذا المكان العام[2] بعد سنتين[3] من

(1) دراسة أدبية نشرها النيهوم على مدى حلقات اعتباراً من مارس/آذار 1966، في صحيفة الحقيقة، بنغازي، وصدرت في كتاب سنة 2002، دار تاله، والانتشار العربي، بيروت، تحقيق سالم الكبتي.

(2) يقصد، صحيفة الحقيقة، حيث نشر الدراسة قبل أن يوقف نشرها في سبع حلقات وعلى مدى شهرين من يوليو/تموز إلى سبتمبر/أيلول 1967.

(3) سنة 1967، ويفهم من ذلك أن النيهوم بدأ في كتابة هذه الدراسة منذ سنة 1965.

التردد، أنا أزمع أن أنشر ما لديّ، ولست (فقياً) ولا أعمل في تفسير القرآن. ولا أريد أن أحقّق شيئاً سوى أن أعرض محاولتي لفهم النصوص المقدسة بأبعاد الرمز. وذلك يعني أن بعض الآيات يمكن تفسيرها طبقاً لوحدات رمزية معينة وراء حدود اللفظ وأنني أزمع أن أعرض هنا هذه الآيات مقترحاً حلّ مشكلة الرمز داخل أبعادها.

وليس لديّ ثمة منهج معين. ولا أود أن أحدد هدفاً واحداً من وراء هذه المحاولة. وكل ما أريده أن أعرض النص والرمز دون خطة من أي نوع. يعينني في إنجاز هذا الحديث ثلاثون مرجعاً كبيراً، أهمها نسخة إنجليزية من تفسير القرآن كتبها (مولانا محمد علي)[1]، والقاموس، والتفسيرات العربية المعتمدة.

---

(1) هو محمد علي الهندي، و«مولانا» لقب شعبي، ولد في رامبور بالهند سنة 1878، درس بكليتها الإسلامية وتخرّج فيها ثم التحق بجامعة أكسفورد في بريطانيا ونال شهادتها العليا، وعاد إلى بلاده، وعيّن في بعض الوظائف ثم تركها واشتغل بالصحافة وعمل في الحركة الوطنية في بلاده لمقاومة الاحتلال البريطاني. وانضم إلى المهاتما غاندي سنة 1920 واشترك معه في عدم التعاون مع الإنجليز ومقاطعة البضائع الإنجليزية. اعتقل وأخيه (شوكت علي) في الحرب العالمية الأولى وحكم عليهما بالسجن الشاق سنتين. انتخب رئيساً للمؤتمر الوطني، وسافر وتجول في بلاد كثيرة لخدمة الإسلام. له: تفسير القرآن، وساعات حاسمة في حياة محمد، توفي سنة 1931 في لندن، ودفن في المسجد الأقصى بالقدس، وأقيمت له حفلة تأبين =

وبدايتي من سورة الكهف. من هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾[1]، والسؤال: هل يروي القرآن هنا حدوث معجزة؟ وهل نام أصحاب الكهف ثلاثة قرون حقاً؟

وليس ثمة شك أن المرء يستطيع أن يعتمد الإجابة باعتبار أن المعجزة ظاهرة في معظم الديانات، وأن اللّه على كل شيء قدير، ولكن! أليس ثمة طريق آخر؟.

أنا سأفترض أن القصة بأسرها حادثة رمزية تهدف في الظاهر إلى الحديث عن بضعة من القديسين المطاردين في الجبال، وتهدف في الواقع إلى الحديث عن تاريخ المسيحية ذاتها، وهذا طريقي إلى ذلك الافتراض.

المسيح لم يولد في الخامس والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول كما يزعم الإنجيل، وقد ثبت الآن بأدلة لا تقبل الشك أن عيسى قد ولد قبل التاريخ المعتمد حالياً بخمس سنين على الأقل، والقرآن يذكر أن مريم جاءها المخاض بجانب نخلة، وقد أشار القرآن إلى هذا المكان

= كبيرة في القاهرة، ألقى فيها أحمد شوقي قصيدة رثاء نبه مطلعها:

«بيت على أرض الهدى وسمائه
الحق حائطه وأسُ بنائه»

انظر: **الأعلام الشرقية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994، **والشوقيات**.

(1) سورة الكهف، الآية: 25.

بالذات لكي يشير بعد ذلك إلى أن بلح النخلة كان قد استوى وصار رطباً.

ولأن البلح لا ينضج في ديسمبر/كانون الأول، فمن الواضح أن القرآن يرفض تاريخ الميلاد الحالي الذي يحتفل به المسيحيون. ولعله من المدهش أن يثبت علماء المسيحيين بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن أن المسيح لم يولد في شهر ديسمبر/كانون الأول فعلاً، ثم أثبت الأسقف (بارنز) أن تاريخ الميلاد ذاته ليس صحيحاً، (وأن عيسى كان قد ولد قبل ذلك بخمس أو ست سنين)، فإذا افترض المرء أن المسيح بدأ في نشر دعوته ـ مثل كل الأنبياء ـ بعد أن بلغ مبلغ الرجال، فإن المسيحية تكون قد بدأت في السنة الخامسة والعشرين للميلاد، وليس في السنة الثلاثين كما يزعم القس.

وهذه السنوات الخمس مهمة للغاية، فبعد ثلاثمائة وخمسة وعشرين عاماً بالضبط أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي، وفقدت وحدانيتها لأول مرة عندما اعتمد الامبراطور نظرية الثالوث، وعملية الحساب العادية تثبت أن الدين الجديد ظل مطارداً ثلاثمائة عام بالضبط، وظلّ عبادة سرية يزاولها القديسون في الكهوف طبقاً لكل المراجع المعتمدة حتى عصر قسطنطين[1]. ألا يفسر ذلك قول

(1) قسطنطين الكبير: (275 ـ 337م)، أول الأباطرة الرومان الذين دخلوا النصرانية، ويعرف باسم قسطنطين الكبير. استعاد =

القرآن: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾؟، أليست هذه بالضبط نقطة الإعجاز التي وقفت تتحدى محاولات الشعراء لتقليده، فالشاعر يستطيع أن يجد اللفظ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاوز معلومات عصره التاريخية، وليس ثمة شك أن أحداً في العالم بأسره لم يكن يعرف تفاصيل حادثة الميلاد إلى هذا الحد.

ثمة نقطة أخرى: إن القرآن يقول: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، فما هي السنوات الزائدة؟

الإجابة المذهلة أن كل مائة سنة شمسية تزيد بمقدار ثلاث سنوات عن كل مائة سنة قمرية، والمسيحيون يحسبون تاريخ الميلاد بالتاريخ الشمسي والعرب يحسبون بالتاريخ القمري، وإشارة القرآن إلى الفرق دليل حاسم على أنه يتحدث هنا عن حقيقة تاريخية تتطلب كثيراً من الدقة، وليس من المحتمل أن تكون تلك الحادثة شيئاً آخر غير التأريخ المسيحي الذي يتبناه العالم الآن.

الرمز لم يكتمل بعد، فباقي الآيات تتحدث بوضوح عن كهف معين عندما تقول: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ

= النصارى خلال حكمه حرية التعبد وأصبحت الكنيسة النصرانية شرعية. أعاد بناء بيزنطة (اسطنبول الآن) وأسماها القسطنطينية وجعلها عاصمة له.

فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1]. وحركة الشمس هنا ليست معجزة، فأي كهف ذي مدخل شمالي يقع فوق مدار السرطان في نصف الكرة الشمالي لا تصله الشمس في أي وقت من أوقات النهار، فإذا أضاف المرء إلى هذه الحقيقة، أن المسيحية انتشرت أولاً في أوروبا فوق مدار السرطان فإن الرمز يصل نهايته من الدقة، وتتحول الحادثة إلى صورة بلاغية معجزة، فالكلمات تروي قصة أصحاب الكهف كما تناقلها الناس في عصر النبي، والرموز وراء الكلمات تتحدث عن حقائق تاريخية خفية لا علم لأحد بها، والنص بأسره متناسق ومنطقي بصورة مقنعة في كلا الحالتين.

وأنا أزعم أن أواصل عرض هذا التناسق تحت سطح الكلمات، فالحديث عن مجموعة من القديسين في أحد الكهوف يستطيع أن يكون مجرد مدخل إلى كليات تاريخية عامة، وهذا العمل معروف في آداب العالم المعاصرة، ولعل القصة القصيرة أهم مسارح هذه الظاهرة كما نعيشها الآن.

فالقصّاص يعمل بوحدات الرمز لتحقيق الشمول.

والقرآن يتبع منهج القصة عبر هذا الطريق.

---

(1) سورة الكهف، من الآية: 17.

وليس ثمة ما يمنع الباحث من اكتشاف نقطة الشمول في ذلك المنهج، فلعل قصص القرآن كلها مسخّرة لأهداف الرمز، ولعل لدينا تفسيراً معاصراً لهذه الرموز، وأصحاب الكهف قصة قصيرة كاملة، وطريقة القرآن في روايتها منهج قصصي آخر. وأنا أعتقد أن مواصلة الحديث عن أبعاد الرمز وراء حدود اللفظ، ستقودني في النهاية إلى موقف مفصل للقصة الحقيقية الكامنة تحت سطح الكلمات، وسأبدأ مرة أخرى من البداية:

تبدأ القصة في سورة الكهف من هنا:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾[1].

والمرء يستطيع أن يلاحظ بيسر أن النص يخلو خلواً متعمداً من التفاصيل، فليس ثمة إشارة إلى عدد أصحاب الكهف أو عدد السنين التي قضوها هناك أو مكان الكهف نفسه، وليس ثمة تحديد خاص لمفهوم الكلمات المستعملة.. فالآية ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ تعني (منعناهم من السمع)، وأحد معاني (ضرب): سدّ وأغلق. ولكن الآية

---

(1) سورة الكهف، الآيات: 9 ـ 12.

تعني أيضاً (عزلناهم عن العالم من حولهم)، واللغة العربية ما تزال تستعمل جملة (ضرب حوله ستاراً من العزلة) وتعني (عزله كلية عما يحيط به). فأي التفسيرين أقرب؟

المعروف أن كتب التفسير تتبنى فكرة العزلة بطريق النوم، وهي فكرة تستند في الدرجة الأولى إلى أسطورة مسيحية تقول إن سبعة من أتباع المسيح لجأوا إلى أحد الكهوف هرباً من الاضطهاد الديني في عصر الأمبراطور (ديكيوس)[1]، وقد اكتشفت الشرطة أمرهم وسدّوا عليهم منفذ الكهف، فظلوا نائمين بداخله مائة وسبعة وثمانين عاماً طبقاً لإحدى الروايات، وثلاثمائة وخمسة وسبعين عاماً طبقاً لرواية أخرى. والقرآن لا يثبت هذا الزعم ولا ينفيه، وخلو النص من التفاصيل يشير إلى فكرة التعمد القرآني لاختيار هذا الموقف الوسط، وتجنب كلمة (النوم) بالذات تبدو بمثابة اقتراح محدّد للبحث عن تفسير آخر أكثر شمولاً.

إلى جانب ذلك يبدو الإصرار على ذكر كلمة (الرقيم)[2] ظاهرة أكثر مدعاة للتريث في قبول الأسطورة المسيحية، (فالرقيم) رمز واضح محدّد للنشاط التجاري

---

(1) أو، (دشياس)، إمبراطور روماني اشتهر بحروبه الضارية على المسيحية وأتباعها.

(2) ورد في بعض التفاسير للرقيم بأنه: اللوح الحجري الذي كتبت عليه أسماء الفتية، وبأنه اسم الجبل أو الوادي الذي كان فيه الكهف.

الذي تميّزت به الأمم المسيحية في العصور الحديثة، و(الكهف) رمز آخر محدد للنشاط الكهنوتي في الأديرة المتوحدة وبقاع النسّاك في الجبال، وترتيب وضع الكلمتين في النص (الكهف والرقيم) يبدو بمثابة تلخيص مذهل لتاريخ المسيحية بأسرها التي بدأت في كهوف الرهبان وانتهت في بورصات المدن الكبيرة والبنوك، وهو أيضاً نبوءة واضحة بالمصير العادي لتعاليم المسيح.

وهذا الاقتراح لا بدّ أن يدعو في النهاية إلى اعتبار القصة كلها عملاً رمزياً متعمداً، فالشواهد تشير بوضوح إلى أن القرآن لا يسرد حادثة معينة داخل أية تفاصيل. ونقاط الاقتراح تتوالى على هذا النحو:

أولاً: تعمد النص إغفال كلمة (النوم)، وهي في الواقع الكلمة الوحيدة التي كان بوسعها أن تؤكد حدوث المعجزة، ولو أن القرآن يرمي إلى الحديث عن (خارقة) غير طبيعية، فمن المستبعد حقاً أن يتعمد إغفال تلك الكلمة أو يتجنب ذكرها بوضوح كلي.

ثانياً: وردت كلمة (الرقيم) في نص بالغ الإيجاز دون أن يكون لها ثمة علاقة مباشرة بتفاصيل المعجزة، ولو كانت القصة تروي حدوث خارقة غير طبيعية فقط لما كان ثمة حاجة ملحّة إلى ذكر (الرقيم) أصلاً.

ثالثاً: قدّمت الآيات الكريمة صورة غير محصورة

لمجموعة من النساك لجأوا إلى كهف ما، عدداً معيناً من السنين ثم غادروه في النهاية، ولم تتقدم الآيات بأية تفاصيل لتثبت حدوث المعجزة أو عدم حدوثها. والقرآن لا يتعامل مع الظواهر غير الطبيعية بهذا الأسلوب إلّا إذا كان ثمة تفسير آخر أكثر احتمالاً يعترض طريق التحديد.

أما التفاصيل فتبدأ بعد ذلك في هذا النص:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[1].

والواضح حتى الآن أن القرآن يشير إلى أول ثورة دينية في المسيحية، وهي تلك الثورة التي يُعرف أتباعها باسم (الموحدون) في الشرق، وباسم (المفكرون) في الغرب لأنهم يرفضون الاعتراف بعقيدة التثليث، و(الآلهة) هي عيسى المسيح ومريم العذراء، والآية: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ إشارة مذهلة إلى حجة الموحدين

(1) سورة الكهف، الآيات: 13 ـ 16.

الذين تحدّوا القائلين بالتثليث بأن يثبتوا أن عيسى المسيح قال إنه ابن اللّه، وذلك بالضبط هو ما سيعمل الرهبان على تزويره في نسخ الإنجيل التي كُتبت في نهاية القرن الأول.

أما نقطة النقاش هنا فهي قول القرآن: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فالاعتزال حادثة معروفة في معظم الديانات، وهي أيضاً حقيقة تاريخية فيما يخصّ الموحدين بالذات، وليس ثمة اقتراح واحد هنا بحدوث أية معجزة، فهؤلاء الرجال يعتزلون بقية الفرق القائلة بالتثليث التي تقترف إثم الشرك باللّه اعتزالاً عادياً خالياً من أية إشارة إلى الخوارق غير الطبيعية.

ثم تصل تفاصيل أكثر:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾[1].

والذي يلفت النظر هنا أكثر هو سرد التفاصيل لمكان الشمس بالنسبة للكهف مما يوحي للوهلة الأولى بأن ذلك هو موطن المعجزة، ولكن المعروف أن أي امرىء ذي معلومات جغرافية محدودة يستطيع أن يؤكد أن حركة الشمس هنا لا تقترح أية معجزة، فالكهف ذو المدخل

(1) سورة الكهف، الآية: 17.

الشمالي فوق مدار السرطان لا تصله الشمس مباشرة لأنها تشرق من يمينه وتغرب من يساره طوال أيام العام.

فماذا يقترح النص على وجه الضبط؟

المعروف أن المفسرين القدامى اعتبروا حركة الشمس جزءاً من المعجزة، وهو تفسير لا يخالف روح النص بأي حال، ولكن معلومات هذا العصر تتقدم بتفسير آخر أكثر مطابقة للظروف الطبيعية السائدة في مناطق انتشار المسيحية الأولى، وتلغي حدوث المعجزة في هذا الموضع على الأقل، وهو عمل يمكن أن يظل قاعدة لمحاولة مخلصة في البحث عن أبعاد الرمز في بقية النص، ولعل الآيات القادمة تلقي مزيداً من الضوء على هذه النقطة:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[1].

وهنا ترد أول إشارة إلى (النوم) باعتباره عكس اليقظة، وترد بقية التفاصيل الخاصة بكلب الحراسة ومكانه عند المدخل في وضع محدد حافل بالحياة، والسؤال المباشر: هل هذه طريقة القرآن المتميز بالإيجاز في سرد الحوادث الخارقة؟ وماذا تعني ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ إذا كان النص يقترح تفسيراً حرفياً؟

---

(1) سورة الكهف، الآية: 18.

أنا أعتقد أن إجابة الأسئلة ستبدو أكثر يسراً وتحديداً عبر تفسير رمزي لكل وحدات الصورة. وسوف أحاول أن أثبت هذا الاقتراح.

الآية تقول:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[1].

وهذه الصورة التي يعتبرها معظم المفسرين نقطة الحادثة في رواية أهل الكهف، تثير ـ في الواقع ـ مزيداً من الثقة في تبني تفسير رمزي من نوع مغاير، فالوحدات اللفظية المخصصة لتحديد صورة القديسين داخل الكهف تتميز بأربع ظواهر حادة من ظواهر الرمز:

الأولى، إن الآية تقول ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ ولو كانت الصورة تتعامل مع نظر بضعة من القديسين النائمين في أحد الكهوف لما كان ثمة حاجة إلى تحديد لحظة (الشذوذ) في المظهر. فالنوم ظاهرة عادية من جميع الوجوه وعندما يرى المرء بضعة رجال يستلقون في كهف ما، فإن أول ما يخطر بذهنه أنهم هاجعون للنوم إلّا إذا كان ثمة شيء شاذ يعترض طريق رد الفعل الطبيعي لديه وإشارة

(1) سورة الكهف، الآية: 18.

القرآن إلى هذه النقطة بالذات لا يمكن اعتبارها مجرد وحدة لفظية عادية.

الثانية: إن الآية تقول ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وهي حركة تحتمل التفسير بحالة واضحة من النوم القلق، ولكنها ـ بالتأكيد ـ تحتمل أكثر من تفسير آخر ولو كان القرآن يتعامل مع صورة واحدة محددة لبضعة قديسين يلجأون للنوم في كهف ما، لاستبعد كل مسارب التفسيرات الجانية.

الثالثة: الإشارة إلى وضع الكلب المتأهب للحراسة في مدخل الكهف جزء جانبي من الصورة الأصلية يضاهي أجزاء الرمز العاملة في أبعاد الأصل القائم وراء السطح اللفظي، وليس ثمة شك أن الصورة مكتملة بدون ذلك الجزء، وأن الإصرار على ذكره في نصّ موجز لا بدّ أن يكون عملاً ذا أهداف أوسع نطاقاً.

الرابعة: إن الآية تقول ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ وهي إشارة إلى حالة من الشذوذ لا يمكن تفسيرها كلية داخل أبعاد صورة القديسين الهاجعين في أحد الكهوف. وموجز هذا كله، أن الوحدات اللفظية في الآية تتميز بظاهرتين:

الأولى: إنها تتطابق تماماً مع حدود التفسير المعروف

الذي يتبنى قصة شبان (إيفيـوس)[1] في عصر الإمبراطور (ديكيوس).

الثانية: إن كل جملة في النص المقدس تأتي في صيغة أكثر اتساعاً من أبعاد تلك القصة وحدها.

ولعلني أستطيع أن أقترح هنا أن ثمة تياراً رمزياً خفياً يجري تحت سطح الأحداث الظاهرة في الرواية وأن القرآن يجمع بين صورة محددة لبضعة رجال في أحد الكهوف النائية وبين صورة أخرى شاملة لرمز أكثر أبعاداً.

وهنا تصبح الآية ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظًا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ رمزاً لحالة الركود المعروفة في تاريخ المسيحية بين ميلاد عيسى المسيح وبين عصر الامبراطور قسطنطين. وهي فترة تميّزت بحالة حادة من الخمود الكلي في جميع مناطق الدين الجديد.

وتصبح الآية ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ رمزاً لحالة التيه التي عاشها أتباع المسيحية في تلك الفترة، ملتمسين طريقهم لنشر تعاليم المسيح بين أوروبا وبين أثيوبيا عبر أديرة سيناء وكهوف الرهبان في جبال البحر الأحمر.

وتصبح الآية ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ إشارة أكثر وضوحاً إلى أن الدين الجديد كان يواصل انتشاره في

(1) أيفيـوس: مدينة في آسيا الصغرى ينتمي إليها أصحاب أهل الكهف كما تشير المصادر التاريخية.

مناطق مأهولة بالشعوب التي تحترف الرعي وهي حرفة شعوب أوروبا خلال تلك الفترة بصورة عامة، وحرفة سكان سيناء والمناطق العربية المجاورة وأثيوبيا. ثم تصبح الآية ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ إشارة أخرى إلى تلك الفترة التي سادت المسيحيين الأوائل ـ خاصة في أوروبا ـ والتي ظلّت تربط بين التعبد وبين ممارسة الزهد المسيحي المتطرف إلى حد تجاوز النطاق الطبيعي بكثير، حتى معظم الرهبان كانوا يمارسون حياة أقرب إلى حياة المتوحشين في الأدغال، ويطلقون لحاهم وشعورهم ويعزفون عن الغسل ويطيلون أظافرهم ويعيشون العمر كله في مسوح ممزقة، وهي ظاهرة بوذية ما زالت معروفة حتى الآن.

والنص بأسره يوافق هذا التفسير إلى حدّ يدعو لإثباته، والآية تحمل مزيداً من التفاصيل:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[1].

(1) سورة الكهف، الآيتان: 19 ـ 20.

والقصة عادية إلى هذا الحد، فليس ثمة إشارة إلى حدوث أية معجزة، والقرآن يروي الحادثة كما وقعت بين أصحاب الكهف دون أن يحدّد مدى (الزمن) الذي قضوه نائمين، ولكن المعجزة تأتي من أسطورة مسيحية تقول إن الرجل الذي ذهب ليشتري الطعام ـ واسمه جامبليكوس[1] ـ انكشف أمره بعد أن قدّم للبائع عملة فضية من عصر ديكيوس. والقرآن لا يشير إلى هذه الحادثة من بعيد أو قريب، ولكنه يثبت بوضوح أن أصحاب الكهف قد انكشف أمرهم في النهاية دون أن يحدّد متى حدث ذلك وهل وقع في نفس اليوم أم بعد عدة سنين:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾[2].

وهنا تتفتح ثلاث وقائع محددة:

الأولى: إن أصحاب الكهف قد حكم عليهم بالموت، وذلك ما يشير إليه القرآن بقوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

---

(1) تحدّد بعض المصادر أسماؤهم كالتالي: مكسلمينا، تمليخا، مرطونس، نينونس، ساربونس، ذونوانس، فليسطيونس، واسم كلبهم (قطمير).

(2) سورة الكهف، الآية: 21.

الثانية: إن الفريق الذي عثر عليهم كان يمثل ـ في معظمه ـ سلطة الدولة الوثنية وقد نال حق إصدار الحكم النهائي لأنه يمثل السلطة الأقوى.

الثالثة: إن ثمة مجموعة من المسيحيين كانت بين أفراد تلك الفرقة، وقد عجزوا عن إنقاذ أصحاب الكهف من الموت ولكنهم قرروا اعتبارهم قديسين، وهو ما يشير إليه القرآن بقوله: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ معلناً بوضوح بداية تلك الظاهرة التي ستعرف في تاريخ المسيحية بإقامة النصب وعبادة القديسين.

والقصة ما تزال تخلو من المعجزة: فالذي رواه القرآن حتى الآن أن بضعة رجال من أتباع التوحيدية قد لجأوا إلى كهف ما هرباً من الاضطهاد ثم انكشف أمرهم بعد أن لفتوا الأنظار في المنطقة المجاورة وصدر ضدهم حكم بالموت، فيما اعتبرهم باقي المسيحيين قديسين شهداء، ولكن المعجزة تأتي من الأساطير المسيحية وحدها التي تدخل في تفاصيل بالغة التعقيد وتجعل من الحادثة بأسرها خارقة حافلة بالغموض عبر كل جزء، وموقف القرآن من هذه الأساطير موقف رافضي واضح:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ

فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[1].

وكلمة (منهم) تعني المسيحيين على الإطلاق، ومن الواضح أن القرآن يرفض ما يقوله المسيحيون في شأن أصحاب الكهف، ولكنه يشير بقوله ﴿فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى أن أصحاب الكهف كانوا فعلاً من المسيحين.

وهذه نهاية القصة في القرآن، ولكن الإشارة إلى أن الثلاثمائة عام تأتي بعد ذلك في مرحلة خاصة من تطور النص، ولا بدّ من تجميع وحدات القصة مرة أخرى لكي تفتح نقطة الحادثة عبر التوزيع اللفظي المتلاحق، وهذا عمل قائم بذاته لا بدّ أن أقوم به في فصل خاص.

الملاحظ في قصة أصحاب الكهف أنها تُروى مرتين على التوالي داخل بعد شعري واحد، المرة الأولى تتميز بإيجاز متعمد بطريقة واضحة:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[2].

وهذا الهيكل العام يضمّ أربع نقاط ذات وضع رئيسي في القصة:

---

(1) سورة الكهف، الآية: 22.

(2) سورة الكهف، الآيات: 10 ـ 12.

الأولى: إغفال العدد بالنسبة لأبطال القصة وبالنسبة لسنوات العزلة داخل الكهف.

الثانية: إغفال (نوعية) العزلة، وهل تمّت بطريقة المعجزة أم تمّت على نحو عادي كما حدث دائماً في تاريخ الرهبنة.

وفي مقابل نقطتي الإيجاز ثمة نقطتا إثبات:

الأولى: إن الاعتزال تمّ بمقتضى حاجة دينية ملحة لتجنّب أخطاء الآخرين.

الثانية: إن ثمة حزبين معينين سيدخلان في نقاش حاسم حول قضية الزمن في القصة.

وهنا لا بدّ أن يشير الرد إلى أن النص لا يقترح حدوث المعجزة ولا ينفيها، وأنه يتعامل مع حدّ شعري داخل نطاق الوحدة اللفظية التي تحمل أكثر من تفسير، فكلمة (النوم) لا ترد في النص، وكلمة (بعثناهم) تعني (البعث من الموت أو النوم أو حالة الخمود) واللغة العربية تستعمل اصطلاح (بعث الأمم) بمعنى (انطلاقها وراء أهداف جديدة بوسائل أفضل)، وليس ثمة ما يحول دون تبني هذا المعنى بالنسبة لأبعاد النص.

ثم يعود القرآن فيروي القصة مرة أخرى بتفاصيل أكثر:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾[1].

والواضح هنا أن القرآن يتعامل مع قصة مجموعة من (الموحدين) المسيحيين الذين رفضوا قضية الثالوث ورفضوا اعتبار المسيح ابن الله معلنين أن (التثليث) فكرة باطلة لا دليل عليها.

والمعروف أن كلمة (ابن الله) ذاتها - في لغة المسيح - تعني أيضاً (عبد الله أو خادم الله)، فالقضية اختلاف في تفسير رمز معين، وليس ثمة شك أن المسيح كان أكثر الأنبياء إيغالاً في أبعاد الرمز.

والنص القرآني يتعامل مع هذه الفكرة هنا بطريقة متعمدة خصوصاً عندما يبدأ في تحديد موقع الكهف: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾[2]، وهذا بالضبط أسلوب المسيح عبر إشاراته ذات البعد الرمزي المباشر، ثم تصل هذه الصورة التي تظهر خط الرمز بطريقة

(1) سورة الكهف، الآيات: 13 - 15.

(2) سورة الكهف، الآية: 17.

متعمدة: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[1]، ولكن القرآن لا يستعمل هنا رمزاً مسيحياً خاصاً لا واقع له، فالقصة ما تزال عماد الحادثة بأسرها، والنص يتعامل معها داخل إطار الرمز الشامل، وهذا يعني أن قصة أصحاب الكهف التي أشار إليها أكثر من مرجع تاريخي آخر، تروى هنا فوق قاعدة رمزية عامة من شأنها أن تحدّد نقاطاً أكثر أهمية في تاريخ العالم، وهذا يتضح بجلاء عبر الآيات التالية:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾[2].

ثم يصل عدد آخر: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾[3].

الملاحظ أن محاولات الأساطير لتحديد عدد أصحاب الكهف محاولات مرفوضة بالنسبة للقرآن، وإذا كان بعض المفسرين المسلمين قد تبنوا العدد (سبعة) لأنه ورد وحده، فالواقع أن ذلك مجرد اجتهاد خاص لا دليل عليه، وما دام

(1) سورة الكهف، الآية: 18.
(2) سورة الكهف، الآية: 22.
(3) سورة الكهف، الآيتان: 25 ـ 26.

القرآن يقول: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ فمن المستبعد أن تكون أي من الأرقام المذكورة مطابقة لواقع العدد.

وذلك يعني أن القصة تنتهي في القرآن دون إشارة حاسمة لعدد أصحاب الكهف، أما عدد السنين التي قضوها في الكهف فترد بعد ذلك في وحدة قائمة بذاتها، وبعد آيتين لا علاقة مباشرة لهما بجسم القصة: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ۝٢٤ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ۝٢٥﴾[1].

وإذا كان بعض المفسرين يلحقون عدد السنين بعدد أصحاب الكهف في الآيات السابقة ويعتبرون العددين معاً جزءًا من السر الذي لم يشأ القرآن أن يفصح عنه، فإن هذا التفسير أيضاً دليل عليه. والأقرب إلى روح اللغة العربية أن يعتبر المرء آية ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾، تقريراً يتميز بصفة الإثبات، خصوصاً بعد أن أشار القرآن إلى السنين القمرية الزائدة طلباً للدقة في تاريخ الحوادث الكبيرة.

وهذا يعني أن عدد سنوات العزلة ـ الذي لم يفصح القرآن عنه داخل القصة ـ قد ورد بعد أن انتهت رواية الحوادث وبعد أن وصلت القصة ذاتها إلى نهاية واضحة وتمّ فصلها عن بقية التقريرات بآيتين كاملتين، فهل يستطيع

---

(1) سورة الكهف، الآيات: 23 ـ 25.

المرء أن يفترض أن قصة أصحاب الكهف ترد في القرآن لتأدية أبعاد رمزية تحت سطح الألفاظ؟ وأن الحادثة التي تروي لجوء بضعة رجال إلى كهف ما عدداً ما من السنين، تضم ـ داخل أبعادها اللفظية ـ رموزاً محددة أكثر شمولاً؟

أنا أفترض ذلك، وأقيم افتراضي على نقطتين أساسيتين:

الأولى: إن قصة أصحاب الكهف ـ التي وردت في الأساطير المسيحية ـ تُعاد في النص القرآني مجردة تماماً وفي كل المواضع من فكرة المعجزة، فالقرآن لا يشير إلى عدد السنين ولا يشير إلى فكرة النوم، ولا يقترح حدوث المعجزة بأي حال.

الثانية: إن (التحديد) ـ الذي أورده القرآن ـ حدث في موضعين هامين بالنسبة لتاريخ المسيحية. الموضع الأول: يخصّ موقع الكهف فوق مدار السرطان، وهو بالضبط مكان انتشار المسيحية بصورة عامة، والموضع الثاني: يخصّ عدد السنين الذي جاء منفصلاً عن أصل القصة ومحدداً بالسنوات الشمسية والقمرية، وهو بالضبط عدد السنوات التي قضتها المسيحية قبل أن تتبناها الدولة الرومانية وتصبح دين الدولة الرسمي.

وإذا كان هذا الافتراض سليماً كما يبدو لي، فأنا أنوي أن أقترح هنا أن قصة أصحاب الكهف ـ كما وردت في

القرآن ـ كانت تتجاوز معلومات العالم التاريخية في عصر النبي، وأن أحداً من المفسرين الأوائل لم يكن بوسعه النفاذ إلى منطقة الرمز التي تعتمد أصلاً على معلومات لا يملكها.

ولعل ذلك هو المصدر الحقيقي لإصرار القرآن على استعمال حدود لفظية واسعة مثل: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ ومثل تأخير الآية: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾، والواقع أن وجود احتمالات التفسير المتعددة دليل حاسم على هذه الحقيقة، ولكن الرد يحتاج دائماً إلى مزيد من الأمثلة لكي يطمئن إلى أي افتراض، وما دام القرآن قد قدّم لنا هذا المنفذ في سورة الكهف، فليس ثمة ما يحول دون القول إن ذلك قد حدث أيضاً في بعض السور الأخرى.

وأنا أبحث عن سند تاريخي لهذه الحقيقة، وأزمع أن أجده في قصة ذي القرنين[1] الذي ذكره القرآن وعرفه العالم (دارا الأكبر)، وما يزال هدف البحث أن أعرف مزيداً من التفاصيل عن طريقة القرآن في التعامل مع الحقائق التاريخية المجهولة للعالم في عصر النبي.

بداية الحديث عن (ذي القرنين) مقدمة عامة تصل قرب نهاية سورة الكهف:

(1) ذو القرنين: من الأعلام الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع جميعها في سورة الكهف، وأجمع المفسرون على أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني، ذلك لأنه بلغ في فتوحاته مطلعي الشمس، أي (قرنيها).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[1].

وعبر هذه المقدمة الموجزة يتضح منهج القرآن في اختياره لحدود لفظية واسعة تحمل أكثر من تفسير وتتسع على الدوام لكل الحقائق التاريخية المتوقعة، فكلمة (ذي القرنين) تنال ثلاثة تفسيرات:

الأول: إنها كنية (الإسكندر الأكبر) كما اعتقد كثير من علماء المسلمين نتيجة افتقارهم إلى معلومات تاريخية أكثر دقة.

الثاني: إنها إشارة إلى رؤية النبي دانيال[2] التي وردت في الإصحاح الثالث عندما فسّر حلمه بالكبش ذي القرنين على أنه رؤية لاتحاد مملكتي ميديا وفارس تحت حكم كيروس.

الثالث: إنها إشارة إلى الملك دارا الأكبر[3]، أو ماريوس الأول الذي عاش بين القرنين السادس والخامس

(1) سورة الكهف، الآيتان: 83 ـ 84.

(2) نبي من أنبياء بني إسرائيل لم يرد ذكره في القرآن الكريم .تروي التوراة قصته في السفر المعروف باسمه (سفر دانيال)، ويختلط في هذه الروايات الكثير من الخيال بالأسطورة، ومنها عن رؤاه التي رآها بعد سبيه في قصر (نبوخذ نصر) ملك بابل وبراعته في تفسير أحلام الملك مما جعله يصبح من خاصته الأثيرين.

(3) اسم أطلقته المراجع العربية على اثنين من ملوك الفرس القدماء ينتسبان إلى الأسرة الكنعانية وهي الطبقة الثانية من =

قبل الميلاد، والواضح هنا أن كلمة (قرن) ذاتها تملك معنيين، فهي إما قرن الحيوان أو قرن من الزمن، واختيار القرآن لهذا اللفظ بالذات منهج واضح لما أريد أن أدعوه هنا (بالحد اللفظي الواسع).

أما ترجيح أحد التفسيرات السابقة أكثر من سواه، فهو عمل لا بد أن تقوم به الآيات الكريمة وحدها، والقصة تبدأ بإحدى الرحلات:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾[1].

وهنا يتضح أن التفسير الذي يختار الإسكندر الأكبر تفسير تنقصه الدقة، فالقرآن يتحدث عن ملك ذي رسالة دينية كما يبدو من النص ـ وليس ثمة دليل تاريخي على أن الإسكندر الأكبر كان يملك تلك الرسالة بأية حال ـ بل من المؤكد أنه اعتبر نفسه إلهاً في السنوات الأخيرة وهي حقيقة من شأنها أن تبعده كلية من هذا النص.

= أولئك الملوك وهما: دارا الأول أو دارا الأصغر، ودارا الأكبر.. ابنه، وكان معاصراً للإسكندر الأكبر.

(1) سورة الكهف، الآيات: 85 ـ 88.

أما النقطة الأكثر أهمية هنا فتبدو عبر إشارة القرآن إلى مغرب الشمس في العين الحمئة فالمعروف أن كلمة (حمئة) تعني الوحل الأسود، و(العين) هي كل مجمع من الماء، وذلك بالضبط هو البحر الأسود الذي تنتهي عنده الحدود الغربية لأمبراطورية داريوس الذي عاش بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

يؤكد هذا الاقتراح أن داريوس ـ كما ثبت تاريخياً ـ كان من أتباع زرادشت[1]، وكان ملكاً موحداً ذا أهداف دينية محدودة، والإنجيل يشير إليه في أكثر من عشرة مواضع باعتباره الملك الذي سمح لليهود بإعادة بناء المعبد، غير أن الاقتراح لا يمكن أن يظل نهائياً حتى يطابق باقي الآيات، والإشارة تبدأ برحلة أخرى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾[2].

والقرآن يشير هنا إلى القبائل البربرية على شواطئ البحر الكاسيبي الذين كانوا يقطنون السهول المعروفة باسم (بلاد الشمس المشرقة)، فخلو المنطقة من المرتفعات يجعلها

---

(1) نبي من أنبياء مجوس إيران القديمة تنسب إليه العقيدة الزرادشتية، عاش في نحو القرن السادس قبل الميلاد، وكانت عقيدته هي الدين الشائع بين الفرس عند ظهور الدعوة الإسلامية.

(2) سورة الكهف، الآيتان: 89 ـ 90.

معرضة للشمس، خالية من السحب طوال العام، وهذه المنطقة بالضبط هي الحدود الشرقية لأمبراطورية داريوس.

ثم تبدأ رحلة أخرى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤﴾[1].

والسدان هما جبلا إرمينيا وآذربيجان، وقول القرآن ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ إشارة سليمة إلى أن سكان هذه المنطقة ـ رغم خضوعهم لفارس ـ كانوا لا يتحدثون اللغة الفارسية، ولم يكونوا من أصل إيراني أو هندي أو أوروبي، والواقع أن معظم المؤرخين يلحقونهم بالقبائل القوقازية التي تعيش غربي المنطقة. والنص هنا يتحدث عن معاهدة عسكرية تدفع بموجبها ضرائب لدولة إيران على أن تبني الدولة قلاعاً عسكرية على حدودهم لحمايتهم من هجمات البرابرة، والقرآن يدعو أولئك البرابرة (يأجوج ومأموج)[2] وهو اسم محدود ذو تاريخ حافل بالغموض

(1) سورة الكهف، الآيتان: 93 ـ 94.

(2) تشير بعض التفاسير عنهما، إلى أنهما قبيلتي: التتر والمغول، كانتا تسكنان الجزء الشمالي من قارة آسيا بين (السدين) وهما جبلان عظيمان بين أرمينيا وآذربيجان، أو بين بحر قزوين والبحر الأسود، وقد ورد ذكرهما للمرة الثانية في القرآن الكريم في الآية 96 من سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

والإبهام، والإنجيل يشير إلى هذه القبائل إشارات متعددة ومتناقضة في أكثر المواضع، والمؤرخون لا يتفقون على نقطة خاصة بأسباب هذا الاختلاف، ولكن المعروف بصفة عامة أن قبائل (يأجوج ومأجوج) قبائل قوقازية ذات صبغة عسكرية كانت تسكن المنطقة في الشمال والشمال الشرقي للبحر الأسود وتدعى أحياناً (توبال وميسكو)، ومن المرجّح أنها قد أعطت اسمها لنهر توبال ونهر ميسكو الذي تقوم عليه مدينة موسكو الحالية. والقرآن لا يتتبع هذا التاريخ ولكن إشارته إلى مناطق تلك القبائل إشارة سليمة بالنسبة لكل المعلومات المتوفرة وهي أيضاً تأكيد آخر بأن ذا القرنين المقصود هنا، هو داريوس الأكبر فالثابت تاريخياً أن القبائل البربرية كانت مصدر متاعب لا تنضب للأمبراطورية الفارسية، وأن داريوس قام بحملة لإخضاعها عام 512 قبل الميلاد.

والملاحظ أن النص بأسره يتناول رحلات داريوس الثلاث لتأمين الأمبراطورية بين عام 521 وعام 482 قبل الميلاد:

المرحلة الأولى، إلى الغرب وقد انتهت عند البحر الأسود.

والثانية، إلى الشرق، وقد انتهت وراء شواطىء الكاسبي.

والثالثة، إلى الشمال حتى جبال آذربيجان وأرمينيا.

فإذا لاحظ المرء إشارات القرآن إلى ديانة التوحيد التي حمل الملك رسالتها، ثم كلمة (ذي القرنين) التي تعني أيضاً كل من يعيش بين نهاية قرن زمني وبداية قرن آخر بجانب الإشارات الواضحة إلى الحروب ضد القبائل القوقازية، فإن الاقتراح بأن القرآن يقصد داريوس الأكبر يبدو اقتراحاً أكثر ثباتاً تؤكده ثلاث حقائق هامة:

الأولى: أن داريوس كان من أتباع النبي زرادشت.

الثانية: أنه عاش في نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس.

الثالثة: أنه الملك الفارسي الذي تكفّل بتأمين حدود الأمبراطورية على طول المناطق الواقعة إلى الغرب والشرق والشمال.

أما الدليل الحاسم فيأتي عبر إشارة القرآن إلى بناء القلاع العسكرية بين رعايا الأمبراطورية وبين قبائل القوقاز:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾[1].

---

(1) سورة الكهف، الآيات: 95 ـ 98.

والردم، أو القلعة العسكرية حائط عظيم وصفه بعض المفسرين القدامى وتصفه دائرة المعارف البريطانية على هذا النحو: (يعرف باسم «دير بنت» أو «دار بند» وهو اسم مشتق من إحدى مدن قوقاسيا في ولاية راجستان على شاطىء الكاسبي الغربي. ويسمى أحياناً «بدّ الإسكندر» طوله خمسون ميلاً، وارتفاعه 29 قدماً، وسمكه 10 أقدام وله بوابات حديدية عند أبراج المراقبة. والمعروف أنه قد بُني في القرن الخامس قبل الميلاد لحماية الحدود الفارسية من القوقازيين).

وقول القرآن: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ إشارة واضحة إلى أن قضبان الحديد كانت تُستعمل لإقامة البوابات، أما اسم (سد الإسكندر) فقد جاء نتيجة الخلط بين داريوس وبين الإسكندر عند بعض المفسرين القدامى.

والواضح هنا أن القرآن يسلك منهجاً معيناً في تعامله مع الحقائق التاريخية، ويستعمل الألفاظ بطريقة تهدف إلى إفساح المجال الرمزي المتماسك الأبعاد تحت سطح التفسير المباشر، فهل ثمة خصائص أخرى لهذا المنهج؟

إن دراسة النص السابق ومقارنته بمعلومات المؤرخين الثابتة تستطيع أن تتقدم بإجابة أكثر مدعاة للثقة، وهذا ما أزمع أن أفعله الآن.

أسلوب القرآن في التعامل مع حقائق التاريخ.. وحدة لفظية شديدة التركيز والعمق، تتجدد على الدوام عبر نطاق

من الخطوط الحادة، ولعل تتبع هذه الظاهرة في آيات الرمز الخاصة بأصحاب الكهف وقصة ذي القرنين تستطيع أن تقود إلى مثال كلي في نهاية المطاف:

فالقصتان تبدآن معاً بالإشارة إلى يقينية الخبر ذي المصدر الإلهي الخالص ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾[1] وبعد ذلك ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[2] ثم ترد الإشارة مرة أخرى ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾[3].

وهذا الإصرار الواضح على التزام اليقين ليس مجرد وحدة لفظية خاصة. إنه إشارة إلى قيمة المعرفة اليقينية لحقائق التاريخ، وإشارة إلى أغراض الرواية التي تتعدى حدود الترف القصصي.

ظاهرة أخرى تتمثل في اختيار الحد اللفظي الواسع الذي يحتمل أكثر من تفسير حسن الصياغة مثل ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾[4] وهي صورة تشمل حالة النوم بموجب المعجزة أو حالة الركود الاجتماعي، وكذلك قول القرآن: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ

---

(1) سورة الكهف، الآية: 13.
(2) سورة الكهف، الآية: 83.
(3) سورة الكهف، الآية: 91.
(4) سورة الكهف، الآية: 11.

ٱلشِّمَالِ﴾[1]، فالفعل (يزور عن) والفعل (يقرض) من أفعال (التعمد) وهو ما أوحى للمفسرين بحدوث المعجزة فقد كان من الواضح أن الشمس (تعمد) تجنب الكهف، ولكن الفعلين يشيران أيضاً إلى طبيعة القانون في حركة الشمس وهي طبيعة متعمدة بدورها.

وفي قصة ذي القرنين استعمل القرآن حدوداً لفظية شديدة الاتساع مثل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[2] وهي صورة تطابق التفسير بالأسطورة القديمة وتطابق أيضاً التفسير الحديث بأن داريوس وصل إلى حدود امبراطوريته الغربية عند البحر الأسود، ومثل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾[3] وهي إشارة سليمة إلى القبائل البربرية التي كانت تعيش في السهول المسطحة على سواحل الكاسيبي، ثم قول القرآن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[4] وهي إشارة أخرى إلى القبائل الناطقة بلغات قوقازية في جبال أرمينيا وآذربيجان، بل إن كلمة (ذي القرنين) ذاتها حد لفظي متسع لكل التفسيرات القديمة والحديثة على السواء.

---

(1) سورة الكهف، الآية: 17.
(2) سورة الكهف، الآية: 86.
(3) سورة الكهف، الآية: 90.
(4) سورة الكهف، الآية: 93.

ومن الواضح أن القرآن يختار هذا الأسلوب لتأدية أغراض التعبير المعقدة بالنسبة لظواهر التطور، فالثقافات العامة تتغير ومعارف العصور تخضع لعملية تنقية متواصلة ولكن الحقائق ذاتها لا تتغير ولا تخضع للتطور، وذو القرنين مثلاً الذي كان بالنسبة لمعارف القرن السادس ملكاً أسطورياً يخترق العالم شرقاً وغرباً، أصبح اسمه في هذا العصر (داريوس الأول) ويستطيع أي مرجع تاريخي صغير أن يحدّد غزواته بدقة بالغة، فالشخصية نفسها أصبحت ذات ملامح جديدة وكذلك أصبحت المعارف والحوادث والنتائج، والقرآن الذي يتعامل مع هذه الظاهرة البالغة التعقيد، ويتعرض لموضوعات المعرفة المتغيرة دون أن يتورط في حلقة المتناقضات ذاتها، يشير بوضوح وبطريقة لا تقبل الجدل إلى مصدره الإلهي المتعالي فوق أي جهد بشري، وقد قال المستشرق (آرو) مشيراً إلى هذه النقطة: (لقد ثبت لي أنه من الطيش أن يتقدّم المرء لفهم القرآن دون معرفة أكيدة ومتكاملة ونهائية للغة العربية، فالواقع أن كل ما كنت أعتبره مجرد أسطورة مثل باقي أساطير الإنجيل وجدته بعد ذلك عندما اكتملت معارفي باللغة، عملاً لغوياً خارقاً لا يمكن تصوره في أي لغة أخرى). وهذه بالضبط النقطة التي ظللت أستعد للوصول إليها طوال هذه الدراسة.

فالحد اللفظي الواسع في القرآن ليس مجرد حد بلاغي وليس مجرد ظاهرة لغوية من مظاهر اللغة المتداولة في القرن

السابع الميلادي. إنه وحدة كاملة بذاتها تمتلك كل مقومات الأصالة والإعجاز، وحدة رمزية صاعقة العمق من شأنها أن تتعامل مع موضوعات المعارف المتغيرة دون أن يصيبها التغير، وتتعامل مع ما يعرفه أحد العصور دون أن تقصر عما سيعرفه العصر القادم، وتتعامل مع عقل أسطوري دون أن تفقد أصالتها العلمية، وتتعامل مع الشعر والحق عبر إطار لا يمكن مجاراته أو تقليده بأي حال.

ولعلني لا أستطيع أن أتتبع كل هذا الثراء بالأمثلة، ولعلني لا أستطيع أن أظهر لحظات الترابط المذهلة بين الرمز وبين الواقع في كل الحالات، ولكنني أزمع أن أبذل جهدي لحشد أكبر عدد ممكن من الأمثلة عبر نقاش أكبر عدد ممكن من المسائل، وأزمع أن آمل في النهاية الحصول على دليل أكثر ثباتاً على أن الحد اللفظي الواسع هو إحدى علامات المعجزة في القرآن، وأن الرمز هو الطريق الأكثر وضوحاً أمام اللغة العربية من تقسيمات البلاغة الأخرى.

وفيما يخصّ سورة الكهف، فأنا ألفت النظر هنا إلى أنني كنت قد فرغت من نقاش جزأين كاملين منها، الجزء الأول يضمّ قصة أصحاب الكهف، والجزء الثاني يضم قصة داريوس الأكبر. والتفسير الرمزي لقصة أصحاب الكهف التي تبدو بمثابة سرد مفاجئ لتاريخ المسيحية بأسرها يطابق بداية السورة ونهايتها أيضاً. (فالكهف) تبدأ على هذا النحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ

يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾[1]، وهذه إشارة واضحة إلى نجاح النص القرآني - عن طريق الحد اللفظي الواسع - في التعامل مع موضوعات المعرفة المتغيرة دون أن يصيبه التناقض أو العوج. والآية تأخذ مكانها في تناسق واضح عندما يتذكر المرء أن السورة تتعامل مع قصة أصحاب الكهف وتاريخ داريوس الأكبر.

ثم تصل هذه الإشارة الحاسمة: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾[2]، فالإنذار يبدو هنا تمهيداً حقيقياً للرمز القادم في قصة أصحاب الكهف، فتقول باقي الآية: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾[3]، وإشارة القرآن إلى جهل المسيحيين بتاريخ المسيح اقتراح يزيد من ثبات التفسير الرمزي لقصة أصحاب الكهف، فالواقع أن الجدال هنا لا بدّ أن يتناول السرد التاريخي لحياة المسيح في محاولة لإبراز نقطة التناقض المتوقعة عبر إصدار الكنائس المسيحية لقرار التثليث دون معرفة يقينية بالنبي نفسه.

وقد ثبت هذا الآن، وثبت أن الكنائس التي زعمت أن المسيح قال إنه ابن الله لم تكن تعرف في الواقع شيئاً

(1) سورة الكهف، الآية: 1.

(2) سورة الكهف، الآية: 4.

(3) سورة الكهف، الآية: 5.

حاسماً عن المسيح بما في ذلك تاريخ ميلاده، وأن قرار التثليث صدر بعد 325 سنة من الميلاد استناداً إلى أقوال بعض المعاصرين ذوي السمعة المريبة وأن ثورة الموحدين الذين رفضوا ألوهية المسيح وأشار إليهم القرآن في الكهف، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾[1] إشارة إلى أن النزاع بدأ بعد موت النبي عيسى[2]، وأن أقوال النبي ذاته لم تكن تحوي اعترافاً بألوهيته، وأن ذلك الاعتراف قد أضيف بعد ذلك باعتبار أن المسيح (كلمة اللّه)، لذا فإن نهاية سورة الكهف تتضمن هذا الرد: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[3].

والردّ موجه لما ورد في الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا (وكانت الكلمة الرب)، فالكلمة في القرآن تعني المخلوق، والمخلوقات لا نهاية لها، وتعني أيضاً أن

---

(1) سورة الكهف، الآية: 15.

(2) يخالف ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ الآيتان (157) و(158)، من سورة النساء. و..﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ الآية (159). من سورة النساء.

(3) سورة الكهف، الآية: 109.

القرآن يعتبر عيسى ابن مريم مجرد فرد بين كلماته اللامتهية.

هذه الحقائق تتجلى بوضوح قاطع عبر الآيات التي تتعامل مع تاريخ المسيح في قصة مريم.

الوحدة اللفظية التي يتبناها النص القرآني عبر قصة ميلاد المسيح وقصة ميلاد يوحنا المعمدان[1]، اقتراح واضح بأن القرآن يتعمد أن يعامل الحادثين بمستوى روائي واحد، وهو عمل لا يمكن أن يتم بمجرد الصدفة. فالمعروف أن الإنجيل الذي يزعم أن المسيح ابن الله - لا يتبنى هذا الزعم فيما يخصّ يوحنا المعمدان، بل يروي قصة ميلاده - كما يرويها القرآن - خالية من كل إشارات المعجزة: (وظهر الملاك لزكريا، وقال له: ستلد لك امرأتك اليزابيت ولداً وتدعوه يوحنا). وفي مقابل ذلك يقول القرآن: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾[2].

أما بالنسبة لميلاد المسيح، فإن الإنجيل يتورط في إشارات لا يمكن تفسيرها إلّا بأن عيسى طفل غير بشري وهو عمل لا دليل عليه سوى أقوال الإنجيل وحده، في مقابل مجموعة من الوقائع التي تشير بثبات إلى أن عيسى المسيح كان مجرد طفل عادي ولد بطريقة عادية من أبوين معروفين مثل أي طفل آخر في العالم، والقرآن الذي يتعمد أن يروي قصة ميلاده بنفس الحد الذي يروي به قصة ميلاد

(1) يوحنا المعمدان: أحد أنبياء بني إسرائيل، يجلّه المسيحيون.

(2) سورة مريم، الآية: 7.

يوحنا المعمدان، يشير بوضوح إلى أنه يتجنب التورط في خرافات الإنجيل الموغلة في التناقض، وأنه لا يعتبر عيسى المسيح ظاهرة إلهية من أي نوع. فما دام الاتفاق إجماعياً على أن يوحنا المعمدان هو طفل زكريا واليزابيت، وما دام القرآن يروي قصة ميلاد عيسى، فإن وحدة الرمز هنا تقترح بثبات أن القرآن يعتبر عيسى أيضاً مجرد طفل آخر، وإلا فإن الوحدة اللفظية داخل النص السماوي تظل مجرد صدفة. والصدفة عمل مستحيل في الكتب السماوية، ولكن الظاهرة الواضحة أن القرآن لا يشير إلى والد عيسى قط بل يظل يدعوه على الدوام (عيسى ابن مريم) مما دعا معظم المفسرين المسلمين إلى أن يتبنوا تفسيراً مؤداه أن المسيح ولد ـ كما ولد آدم ـ بدون أب.

والواقع أن ذلك التفسير يطابق النص القرآني بطريقة تليق بالتجريد الإسلامي الموغل في الأصالة. فليس ثمة شك في قدرة الخالق على إعادة معجزة الخلق أكثر من مرة، ولكن عدم ذكر الأب لا يمكن اعتماده دليلاً في نقاش أبعاد الرمز، فالواقع أن القرآن لم يذكر والد موسى أيضاً عندما روى قصة ميلاده، ولم يذكر والدة يوحنا المعمدان وليس ثمة من يقترح أن ذلك ليس عملاً عادياً من الإيجاز في السرد.

والنقطة الهامة أن القرآن يتحدث عن المسيح بعد أن بدأ أداء رسالته في نهاية العقد الثاني من عمره، ومن المرجح أن والد عيسى ـ وتدعوه المصادر التاريخية

يوسف النجار[1] ـ كان قد مات منذ زمن طويل، ولم يكن ثمة ما يدعو لذكره في نص قرآني موجز.

والنقطة الثانية أن مريم أم المسيح ظلت على الدوام أكثر شهرة من والده، ونسبة الولد إلى أمه عمل تعرفه كل اللغات خصوصاً اللغة العربية. والواقع أن الإنجيل نفسه ـ وبالذات الإصحاح السادس والعشرون من إنجيل لوقا ـ يعلن مؤكداً أن مريم استلمت البشرى بميلاد عيسى بعد أن تمّت خطبتها إلى يوسف النجار، والقرآن يشير إلى هذه الحقيقة في سورة آل عمران: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٤﴾[2].

وكلمة (يكفل) لا تعني (يكفل مريم طفلة) بل تعني (يتخذها زوجة) إذ إن الآية السابقة: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي﴾ تشير بوضوح إلى أن مريم لم تكن طفلة، أما (يلقون أقلامهم) فهي إشارة إلى ما يرويه الإنجيل من أن خدام المعبد قرّروا أن يجروا القرعة بينهم للزواج بمريم، ففاز يوسف النجار.

---

(1) إشكالية كبيرة وقع فيها النيهوم، ويوسف النجار يُشار إليه في بعض التراجم والموسوعات بأنه نجار من أسرة داود الملك. من أهل الناصرة ببيت لحم في فلسطين، آمن بالمسيح ولم يشك في دعوته.

(2) سورة آل عمران، الآيتان: 43 ـ 44.

وهنا حدثت الرؤية: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1]، ولأن مريم ـ كما يقول الإنجيل ـ أيضاً لم تكن قد سمعت بنبأ القرعة في المعبد، وخطبتها إلى يوسف النجار، فقد بادرت تحاول إثبات رؤيتها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[2]، وإجابة القرآن المتوقعة أن السؤال نفسه ليس في موضعه فالخالق لا يحتاج إلى مقاييس العالم لإحداث إرادته. وهذه نقطة النقاش فالقرآن لا يجيب مريم على سؤالها الساذج المليء بالدهشة بل يقرر قاعدة هامة من قواعد التجريد: ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3]، وهذه في الواقع ـ إجابة يتوقعها المرء من كتاب سماوي، أما الذي لا يستطيع أن يتوقعه أحد فهو أن يبادر القرآن فيجيب مريم على سؤالها كيف تحصل على ولد بأنها ستتزوج يوسف النجار.

ولا بدّ أن يلاحظ المرء هنا أن إجابة القرآن تتردد بالنص في قصة ميلاد يوحنا المعمدان، فهي مبدأ تجريدي شامل وليست مجرد نقاش لحالات الدهشة التي اعترت مريم وزكريا، والمبادىء الكبيرة لا تقبل التغير.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 45.
(2) سورة آل عمران، الآية: 47.
(3) سورة آل عمران، الآية: 47.

موجز النقاش:

إن القرآن يروي قصة مريم في تتابع تاريخي واضح داخل النص نفسه، فيبدأ بقصة ميلادها، ودخولها المعبد وكفالة زكريا لها، ثم زواجها وتبشيرها بعيسى وهذا التتابع التاريخي لا يمكن تفسيره إلّا بأن القرآن يتعامل مع حادثة عادية خالية من صفات المعجزة، وتبدأ الحوادث على هذا النحو:

1 ـ النذر: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾[1].

2 ـ الميلاد: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾[2].

3 ـ تسميتها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[3].

4 ـ دخولها المعبد في كفالة زكريا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[4].

5 ـ بلوغها مبلغ النساء: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ

(1) سورة آل عمران، الآية: 35.
(2) سورة آل عمران، الآية: 36.
(3) سورة آل عمران، الآية: 36.
(4) سورة آل عمران، الآية: 37.

ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

6 - زواجـهـا (؟!): ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾[2].

7 - البشرى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾[3].

فأين اقتراحات المعجزة في هذا السرد المباشر، طفلة تولد في إحدى العائلات اليهودية القائمة بالخدمة في المعبد، وتتربى في كفالة أحد الأحبار حتى تبلغ سن الزواج فيتزوجها أحد أقاربها وتنجب منه طفلاً اسمه عيسى المسيح.

إن القرآن لا يقول غير ذلك وليس من المحتمل أن يروي القرآن تفاصيل القصة على هذا النحو لو أنه كان يعتبر ميلاد عيسى ظاهرة غير بشرية من أي نوع.

هذا الاقتراح الذي يجرد المسيح من كل صفات المعجزة لا يطابق تماماً تفسيرات معظم العلماء المسلمين، فالواقع أن أكثر التفسيرات قبولاً بين العلماء أن المسيح جاء بمعجزات خارقة منها:

•

(1) سورة آل عمران، الآية: 42.
(2) سورة آل عمران، الآية: 44.
(3) سورة آل عمران، الآية: 45.

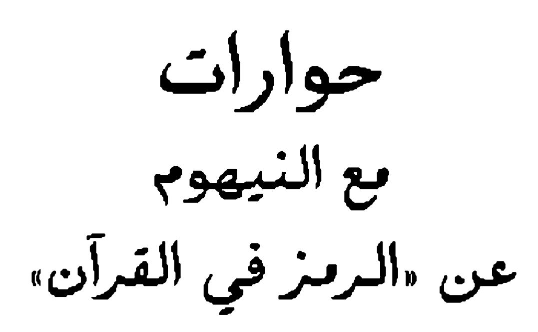
1 ـ أنه تكلم في المهد.

2 ـ أنه كان يحيي الموتى ويبرىء المرضى.

3 ـ أنه كان يتنبأ بالحوادث قبل وقوعها.

4 ـ أنه ما يزال يعيش في السماء.

وأنا أعرف أن هذا التفسير مستخلص من النص القرآني بطريقة ما، وأعرف أن الحدود اللفظية الواسعة في ذلك النص تستطيع أن تسنده، ولكني لا أعتقد أنه تفسير كامل من جميع جوانبه، فالذي ثبت الآن أن الإنجيل لا يملك دليلاً واحداً على أن عيسى المسيح قد صنع أياً من تلك المعجزات، والذي يمكن إثباته أيضاً أن القرآن بدوره يرفض مزاعم الإنجيل.



حوارات

مع النيهوم

عن «الرمز في القرآن»

(دعوني أقول كلمتي ثم ناقشوني)

حوار، سليمان كشلاف(*)

لقائي معه كان دائماً على صفحات جريدة (الحقيقة).
البداية رسائل يبعث بها إلى (رشاد الهوني)[1] يُمضى

(*) سليمان سالم كشلاف: كاتب وناقد ليبي. ولد في طرابلس عام 1947، والتحق بالكلية العسكرية في بنغازي، وعمل ضابطاً في الجيش منذ تخرجه عام 1970 إلى عام 1975. نشر مقالاته في صحف ومجلات ليبية متعددة. وأصدر مجموعة من المؤلفات في الأدب والنقد منها: (كتابات ليبية) و(دراسات في القصة الليبية القصيرة) و(الشمس وحد السكين).. وغيرها. توفي يوم 23/ 7/ 2001. وهذا الحوار الذي نشره بمجلة الإذاعة والتلفزيون، يوليو/تموز 1968، يُعتبر أول حوار صحفي يُجرى مع الصادق النيهوم في مجلة ليبية.

(1) رشاد بشير الهوني: (1993 ـ 1937). كاتب وصحفي ليبي معروف. أدار مع شقيقه محمد الهوني صحيفة الحقيقة منذ تأسيسها في بنغازي عام 1964 وإلى توقفها عن الصدور في يناير/كانون الثاني 1972، أسس صحيفة العرب في لندن في يونيو/حزيران 1977. (انظر: **زيت القناديل**، رشاد الهوني، سيرة ونصوص). لسالم الكبتي، منشورات مكتبة الفضيل، بنغازي، 2007.

عليها باسمه الأول.. صادق، تطوّرت علاقتي به ـ عن طريق القراءة ـ بمتابعة أغلب ما ينشره من مقالات وأبحاث كانت تثير ضجة، وليصبح صاحبها (صادق النيهوم) نفسه قضية أثير حولها النقاش.. غربته.. ارتباطه بوطنه.. أسلوبه.. القضايا التي يثيرها لتحدث ردود فعل عند الكثيرين. وكنت أتمنى لو أشاهد هذا الكاتب الذي أصبح يثير الحوار لدى المثقفين الليبيين، أتمنى أن أسمع صوته.. أن أتبادل معه الحديث.

وفي رحلة قصيرة لبنغازي علمت أنه موجود، اتصلت بدار الحقيقة والتقيت هناك بصادق النيهوم، إنسان بسيط، تماماً، كما كانوا يحكون لي عنه: بنطلون أمريكي، قميص أحمر غامق أزراره العليا مفتوحة، وجه أسمر شاب.. نحيف البنية قليلاً، أبصرته يتصفح جريدة مغربية.. يقرأ فقرة صغيرة من مقالة ثم يعلّق.. (باللّه عليك.. هذا منطق؟).. وتتكرمش الجريدة لتأخذ طريقها إلى الأرض بجانب أوراق عديدة.

وخلال عدة جلسات مع صادق كنت أتكشف منه كل يوم شيئاً جديداً، ونطوف معاً عالم الكلمة، أحاديث عديدة كانت تخرج من بين شفتيه في كلمات بسيطة، ومنطق يتسلل إلى الوجدان في هدوء.

* تفسير القرآن الذي يدرسه الطلبة كله خطأ، أساطير مقرّرة عليهم، القرآن جامع لكل شيء واللّه لا يكذب ولا يخطىء. تصوّر الإنسان الليبي لله أنه رجل يلبس طاقية

وملابس بدوية ويجلس على كرسي في السماء يحكم بالبشر.

* القرآن.. الوثيقة العلمية التاريخية الاجتماعية الشاملة لكل متطلبات الحياة، نحن لم نُحسن تفسير هذه الوثيقة، الرمز في هذه الحقيقة واضح، سبع سنوات مرّت من حياتي لكي أنجز (دراسة الرمز في القرآن).. تعبت في سبيل التأكد من كل شيء في هذه الدراسة، طفت قارات ليزداد يقيني من صحة المعلومات التاريخية، المسيح لم يُصلب، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1]، يفسر البعض هذه الآية على أنها شنق لمبادئ المسيح ودعوته، خطأ، المسيح لم يصلب، المفهوم المحدد للصلب، أن تدق يدا الإنسان وقدماه بمسامير على لوحة تمثل الصليب، تكسر قدماه ليدفن بعد ذلك على نفقة الدولة. المسيح علّق على الصليب ولم تكسر قدماه ولم يدفن على نفقة الدولة، سُلّم لأحد أتباعه.. هرب.. قبره موجود الآن في (كشمير).. مستعد لإثبات ذلك.. لإخراج عظام المسيح من قبره.

* آدم وحواء رمز للخليتين.. التذكير والتأنيث: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2] فيه الكفاية للفهم، بداية الحياة بالخلية الواحدة.. من الماء، (انكشفت لهما عورتيهما)[3] ودليلاً آخر، آدم وحواء.. الذكر والأنثى عامة

(1) سورة النساء، الآية: 157.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 30.

(3) لعله يقصد الآية ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [طه: 121].

لم يكونوا يرون عورتهم لأنها كانت مغطاة بالشعر، وعندما خرج الإنسان من الغابة كان من الضروري أن يتساقط شعره ليلائم طبيعة الحياة في الخلاء.. النشوء والارتقاء نظرية صحيحة لا يمكن الشك بها.

* الفاتيكان في القرون الوسطى تجارة بالدين.. البابا يبيع صكوك الغفران والناس البسطاء المساكين يصدّقون ذلك. لا أؤمن بإنسان يأخذ مرتباً من الدولة ليخدم الدين، خدمة الدين إيمان قبل كل شيء.

* عرض عليّ نشر (دراسة الرمز في القرآن) في كتاب، رفضت، ولا زلت أرفض، أريد أن أثبت موقفاً، إيمان الكاتب بما يفعله.. يجب أن يقرأ الشعب الليبي هذه الدراسة.. تهمّه، مستعد للمناقشة.. مستعد للاقتناع فيما إذا ثبت خطئي.. الإيقاف.. استعداد السلطة.. الردود غير المنطقية، أشياء تثير التقزز في نفسي، أتيحوا لي الفرصة لإبداء رأيي ثم ناقشوني.

* مستعد لنشر دراسة (الرمز في القرآن) في مجلة الإذاعة. فقط فكّروا فيما ستجرّه عليكم من متاعب.

أنا إنسان بسيط، ليس من المهم أن يعرفني القارئ أو يرى صورتي، المهم أن يتفهم ما أقوله.

* وينتهي الحديث ليبدأ من زاوية أخرى، وفي كل جلسة تجمعنا أحاول تجميع نقاط حديثنا، وأحاول أكثر الوصول إلى أعماق صادق.. أحياناً كنت أنجح.. وفي

أخرى أخفق وتتجمع نقاط عديدة تفرض نفسها على شكل أسئلة:

* غربتك أثارت نقاشاً بين المثقفين، هل ستبقى على ارتباطك بوطنك أم لا.. ما رأيك أنت؟

الوطن إيديولوجية. الوطن ليس قطعة الأرض وحدها، وإذا كانت ظروفي المعقدة قد قررت مصير ارتباطي بالأرض فأنا لا أعتقد أن ذلك يعني اقتلاعي من تراب ليبيا، فأنا جزء منكم ولا أستطيع أن أنسى ذلك حتماً إذا أردت أن أنساه.

* يقول بعض المثقفين إن صادقاً النيهوم طفرة في الأدب الليبي، هل هذه الحقيقة؟

ليبيا بلد صغير.. وظروفه الثقافية أكثر ضآلة مما نعتقد جميعاً. والمرء يحتاج إلى كثير من الشجاعة لكي يعترف لنفسه بأن هذه الإمكانيات ما تزال عاجزة عن توفير التربة الصالحة للنمو الطبيعي أو غير الطبيعي. فدعونا نعمل.. وننتظر المطر.

* أسلوبك فيه تهويمات شرقية كأساطير ألف ليلة، هل أنت متأثر بالأدب العربي القديم؟

ألف ليلة مأساة شرقية مكتملة الملامح لا مفرّ من أدائها في كل العصور. وأنا هنا لا أعني أعمال شهرزاد وحدها، فالواقع أن تلك الأعمال مجرد محاولة واحدة

لأداء المأساة في عصر واحد. وسوف تظل توالي تجددها حتى ينبت العنكبوت فوق وجه شرقنا القديم. إننا جميعاً نتبنى هذا الاتجاه، وأنا واحد منكم.

* أحياناً تكون الفكرة في كتاباتك صغيرة وبسيطة تلفّ حولها وتدور لتأخذ مساحة كبيرة.. لماذا؟

هل يحدث ذلك حقاً؟.. لا أدري، ولكن أعرف على وجه الضبط أنني ما زلت في حاجة إلى كثير من الوقت لكي أتعلم مهنتي.

* الالتزام عند الأديب.. ما هو؟

إنه الإخلاص والأمانة في مواجهة مسؤوليات الخلق الفني الهادف. إنه دفع الثمن نقداً بحبات العرق لكل كلمات تُقال للآخرين.

* كتبت عدة أبحاث عن دواوين لشعراء عرب. هل ليس في الأدب الليبي ثمة ما يقف على مستوى واحد من الأدب العربي، أم هذا من تأثير غربتك؟

كتبت دراسة عن البياتي[1]، ودراسة أخرى أكثر إيجازاً عن محمد الفيتوري[2]..

(1) عن ديوانه (الذي يأتي ولا يأتي)، وقد نشرها في الحقيقة عام 1967، ثم حققها وأصدرها سالم الكبتي، ضمن سلسلة مكتبة النهوم، عن دار تالة، طرابلس، 2002.

(2) كانت عن ديوان (عاشق من افريقيا) في الحقيقة 1966.

كنت أفتش عن مساند خاصة لنظرية (القناع) والأيدلوجية الزنجية في الشعر الملتزم، ولم يكن لديّ ثمة فرصة واحدة لأن أجد ذلك في إنتاجنا الليبي المعاصر دون أن أتورط في افتراضات غير محددة النتائج.

* هل وصل الأدب العربي المعاصر إلى مرحلة الأدب الإنساني؟

لدينا شعراء من طراز خاص قادرون على تحقيق هذا المستوى منهم صلاح جاهين وعبد الوهاب البياتي ونزار قباني، أما كتّاب القصة والمسرحية فما زالوا في حاجة إلى مزيد من الوقت. والمشكلة لا تخصّ الأدب العربي وحده، فالواقع أن معظم آداب العالم بدأت نضجها في ميدان الشعر.

* فيما عدا الشعر والأدب الشعبي لم يكن للقصة والرواية مشاركة في مجال التاريخ للفترات المختلفة التي مرّت بها ليبيا عبر عهود كثيرة من النهضة والاحتلال..

ما سبب ذلك؟

هذا حدث في معظم آداب العالم من هوميروس إلى امرىء القيس وشكسبير وبوشكين، وليس ثمة سبب ميتافيزيقي خاص لهذه الظاهرة، فمن الواضح أن أعمال القصة والرواية تظل على الدوام أكثر تعقيداً من الخلق الشعري الخالص.

* المقالة القصيرة هل تسرقك من البحث الطويل؟

أجل، وبصورة تدعو إلى الرثاء.

* ما الذي كنت تريد أن تقوله في دراستك (الرمز في القرآن)؟

كنت أتمنى أن تُتاح لي الفرصة لكي أقول إن القرآن لم يردّد شيئاً من مزاعم الكتّاب اليونانيين الذين قاموا بكتابة نُسخ الإنجيل، وأن نتائج الأبحاث الحديثة التي أثبتت ـ بصورة قاطعة ـ أن معظم حكايات الإنجيل تفتقر إلى سند تاريخي، نتائج يمكن تحقيقها مرة أخرى عن طريق دراسات فقه اللغة ودراسات الرمز في القرآن.

كنت أريد أن أقول إن القرآن لم يساير الإنجيل في أخطائه، وكنت أتمنى أن تتاح لي الفرصة، ولكن ذلك لم يتم.

* عمّا تبحث في قراءاتك؟

عن أي شيء يساوي وقتي.

* الأديب محاولاتٌ في الكتابة تتطور، أم معرفة بفنون الأدب وثقافة واسعة؟

الأديب موهبة وكثير جداً من العمل المخلص.. أعني كثيراً جداً من العرق.

* في مقالاتك كتبت عن ليبيا وعن الليبيين، مما

كتبته: (المرء لا يُهان حتى إذا كان ليبياً). (إذا كان ثمة شعب يستطيع أن يموت من الجهل بنفسه لا بد أننا هنا في ليبيا مقبرة قديمة). (أنزلق إلى الخارج عبر الشارع المزدحم بعربات النقل والكلاب الضالة والليبيين)، فهل هذا هو رأيك في الليبيين؟

أنا أيضاً واحد منكم.. وهذا السؤال يريدني أن يشعرني أنني لستُ كذلك.

صورة من قريب:
لماذا لا بدّ أن يظل المسيح بدون أب؟!

حوار، محمود الهتكي(*)

قال رسول النور.. والمعلم الأول محمد سلام الله عليه: (من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد..).. وهذا يعني أن الإسلام يشجّع البحث والدرس.. يعني دفع الإنسان إلى التطلع. يعني تنمية الفكر.. يعني تكريم الإنسان واحترام عقله.

ولقاؤنا هذا الأسبوع مع أحد الباحثين باجتهاد للكشف عن الحقائق المجهولة، بحثه الجاد عن الرمز في القرآن.. دراسة علمية جادة في حاجة إلى التقيم والمناقشة، فإن كان مصيباً فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. وهو من مواليد ليبيا سنة 1937، متزوج وله ولد.. عبد الكريم 3

(*) كاتب ومثقف ليبي. نشط في العمل الوطني والاجتماعي، نشر مقالاته في صحيفة (طرابلس الغرب) و(الرائد)، وقدّم بعض البرامج الإذاعية، وأجرى عديد الحوارات مع مثقفين ليبيين، صدرت له بعض المؤلفات في الفكر والسياسة.

سنوات ونصف.. معيد بجامعة هلسنكي لمادة فقه اللغة[1]. شارك في مؤتمر الأدباء والكتّاب الليبيين الأول[2]، وجاء الآن لينضم كعضو في الوفد الليبي لمؤتمر أدباء المغرب[3].. طيب وواقعي لدرجة المكاشفة، ومع الرجل عقلاً.. الشاب سناً، صادق النيهوم في صورته كما تبدو من قريب:

* الدراسة؟

ماجستير في فقه اللغة.

* ما هو العمل الذي قمت به وتشعر أنه قريب من نفسك؟

الرمز في القرآن.

* ماذا تعني بالرمز في القرآن؟

قيل في أحد الردود غير المقنعة إنني أقصد بالرمز هنا أن اللّه لم يقرر أن يواجه العالم بحقيقة القرآن نتيجة مخاوفه الإنسانية، ولكنك تستطيع أن ترى مدى سذاجة هذا الفهم، فالواقع أن الرمز ليس مجرد وسيلة للتعبير عن فكرة مخيفة ولا يمكن التعبير عنها مباشرة، بل إن للرمز مجموعة من المهمات الأخرى منها:

---

(1) الصواب أن النيهوم لم يكن معيداً وإنما مقيماً هناك، ولا يستقيم ذلك مع إجابته عن (سؤال الدراسة) الوارد في الحوار.

(2) عقد في طرابلس، سبتمبر/أيلول 1968.

(3) عقد في طرابلس أيضاً، مارس/آذار 1969.

1 ـ إيجاد الناحية الجمالية.. كما حدث في الرمز الشعري.

2 ـ مدّ اللغة الإنسانية البسيطة العاجزة بقدرة الرمز على التعبير.

3 ـ إيجاد الطريقة المثلى للتعبير عن فكرة أكثر تعقيداً مما تحتمل اللغة العادية.

.. وأنا عندما بدأت بدراسة الرمز في القرآن كنت أضع نصب عيني المهمة الثالثة لهذه الوحدة اللغوية، فاللّه لا يمكن أن يوصف بالعجز، ولكن اللغة العربية يمكن أن توصف بالعجز مثل أية لغة بشرية أخرى.. والقرآن الذي اختار هذه اللغة أداة للتعبير عن العالم العظيم، لا بدّ أن يحتاج إلى وحدة الرمز لتغطية العجز البشري في إيجاد أقرب الوسائل وأكثرها فعالية في أداء الحقائق عبر الألفاظ. هذا هو الرمز الذي أعرف أن القرآن يستخدمه لكي يظل كما يقول الفقهاء: صالحاً لكل زمان ومكان.

ـ الأمثلة:

* هل لديك بعض الأمثلة؟

أجل.. دعنا نتناول قصة المسيح عيسى عليه السلام.

* وماذا بالنسبة لعيسى المسيح؟

أشياء كثيرة.. منها:

1 ـ المفسرون يقرّرون أن المسيح ولد بدون أب.

2 ـ إنه كان يزاول صناعة المعجزات في الجليل وبيت المقدس.

3 ـ إنه لم يوضع على الصليب بل رُفع إلى السماء.

4 ـ إنه ما يزال حياً.. في السماء أيضاً.

والمفسرون المذكورون أعلاه يزعمون بلباقة أن ذلك كله مستمد من نصوص القرآن.. فدعنا نقرأ نصوص القرآن ونبحث بأنفسنا عما إذا كانت الآيات الكريمة تمدّ المفسرين بشيء مُجدٍ لإثبات مزاعمهم.

ـ الآيات:

* أين تبدأ الآيات؟

في سورة مريم، وسورة آل عمران.. وفي بضعة أماكن متفرقة أخرى.

* ألا يقول القرآن إن عيسى ﷺ ولد بدون أب.. وفي سورة آل عمران بالذات؟

في هذه السورة بالذات.. ترد قصة المسيح من أولها عندما يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾[1]، وهذه الآية مقدمة لميلاد مريم ـ في الآيات التالية: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 32 ـ 33.

أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[1]. وأنا أريد أن ألفت انتباهك هنا إلى أن زكريا هو الذي تكفّل بإعالة مريم، ثم تبدأ الآيات في ذكر ميلاد المسيح نفسه، ولكن القصة تبدأ بمخاطبة مريم على هذا النحو: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، وأرجو أن تلاحظ كلمة ﴿نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لكي تعرف أن الخطاب هنا موجه إلى امرأة بلغت سن الرشد، ثم تقول الآية التالية: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾. وأرجو أن تلاحظ هنا مرة أخرى أن الخطاب موجه إلى امرأة بلغت سن الرشد، ثم تقول الآيات بعد ذلك مباشرة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾[3]، وأرجو أن تلاحظ أن كلمة (يكفل) تعني في اللغة العربية يرعى ويعول.. فإذا عرفت أن مريم كانت قد بلغت سن الرشد، وأن الثابت تاريخياً أن رهبان المعبد قد أجروا القرعة فيما بينهم لكي يحددوا من منهم يتزوج مريم.. وإذا لاحظت أن زكريا الذي عهد إليه

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: 35 ـ 37.
(2) سورة آل عمران، الآية: 42.
(3) سورة آل عمران، الآية: 44.

بكفالة مريم كان ما يزال حياً، وأن كلمة (يكفل) التي وردت للمرة الثانية يمكن لغوياً أن تعني أيضاً يتزوج.. أحسست معي أن ميلاد المسيح الذي ورد في الآية التالية مباشرة لم يكن في الواقع معجزة غير عادية، ذلك لا يعني أن اللَّه عاجز عن خلق المسيح بدون أب.. ولكنه يعني بالضبط الآيات القرآنية الواردة بشأن المسيح في سورة آل عمران يمكن تفسيرها أيضاً تفسيراً عقلياً عادياً.

ـ **المعجزات:**

* وماذا عن معجزات عيسى عليه السلام؟

بعض المفسرين يجزم بحدوث هذه المعجزات.. وبعضهم الآخر يقول: إنها كانت ممكنة لأن اللَّه على كل شيء قدير، ولكنها في الواقع تحدث. أما بالنسبة لي.. فأنا أعتقد أن الآيات الواردة بشأن هذه المعجزات يمكن تفسيرها طبقاً لأبعاد الرمز.

والآية تقول: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[1].

والآية الأخيرة تعني أن عيسى المسيح كان يستطيع أن يتنبأ بما أكل الناس وما ادخروا في بيوتهم.. وتعني أيضاً

(1) سورة آل عمران، الآية: 49.

بدون افتراض للمعجزة أن عيسى المسيح قد جاء لكي يخبر الناس بما يجب أن يكتفوا به من الأكل ومن متاع الدنيا ومن الثروة.

وكلمات الآية تؤدي هذين المعنيين في لحظة واحدة، أما شفاء الأكمه والأبرص فأنا أعتقد أن الرمز هنا للإنسان الأعمى الذي لا يستطيع أن يرى آيات اللّٰه في العالم من حوله. أما الموتى فهم العاجزون كلية عن الارتباط بالعالم الروحي، هذا يعني أن كلمة الأعمى.. وكلمة الموتى تُستعملان في القرآن للرمز إلى أولئك الناس العاجزين عقلياً عن الارتباط بالعالم العلوي.. وعيسى المسيح جاء لشفاء هذا المرض الروحي وليس لشفاء أمراض الجسد.. لأن ذلك في الواقع ليس من مهمة الأنبياء.

أما قوله إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير.. فالطين رمز للمادة المرتبطة بالأرض أي للإنسان المرتبط بعالمه المادي، والطير رمز للسمو الروحي.. وعيسى المسيح الذي جاء لنقل الإنسان البسيط من عالم التراب والمادة إلى عالم اللّٰه الرحب.. كان في الواقع يؤدي مهمة أكثر تعقيداً من مجرد صناعة الدمى الطائرة.

هذا لا يعني أن اللّٰه عاجز عن تحقيق المعجزة.. ولكنه يعني أن اللّٰه يحترم العقل الإنساني ويعطيه فرصته لكي يكتشف طريقه بقدرته وحدها بعيداً عن عالم المعجزة الغامض.

هذا يعني أنه يحترم كبرياء الإنسان.. ويترك له شرف

اكتشاف الحقيقة بنفسه دون أن يعمد إلى شلّه بمظاهر المعجزة الخارقة. ومرة أخرى أنا مثلك أؤمن بالله. وأنا مثلك أعرف أنه على كل شيء قدير ولكني أريدك أن ترى أن عقولنا لم تخلق لمجرد العبث.

* وماذا عن رفع المسيح إلى السماء؟

الآيات تقول: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1]. والرفع هنا لا يعني بالضرورة الرفع إلى السماء على الإطلاق. إن العالم الأزرق الذي نراه فوق رؤوسنا مجرد فراغ يليه فراغ آخر مليء بالكواكب والنجوم، وكلمة (السماء) التي يفترض المفسرون أنها هذا العالم الأزرق مجرد لفظ في اللغة لا بد من تفسيره تفسيراً رمزياً.. أما كلمة (الرفع) فإن القرآن يستعملها في كثير من المواضع بمعنى القرب من عالم الله، وأنا أعتقد أن ذلك هو المقصود هنا.

فالقرآن لا يقول: إن عيسى المسيح حي.. بل يقول: إنه ميت وهذا واضح وصريح في كل الآيات الكريمة.

* ماذا تريد أن تقول عن عيسى المسيح بالضبط؟

أريد أن أقول: إنه نبي كريم، وإن فكرة المفسرين المسلمين عنه تتفق تماماً مع قيمة الفكر التجريدي المتزن،

(1) سورة آل عمران، الآية: 55.

فالله على كل شيء قدير.. وقدير أيضاً على خلق المسيح بدون أب ومدّه بالمعجزات الخارقة، ولكن الآيات الكريمة يمكن تفسيرها باعتبار أن المسيح قد ولد ولادة عادية مثل أي طفل بشري آخر.. وعاش حياة عادية، إلّا من توهج رسالته العظيمة، وإن ذلك كله داخل في نطاق الفهم البشري.

* هل تعني أن المسيح ولد من أبوين عاديين؟

أجل أعني ذلك بالضبط، وأعني أنه كان له إخوة وأخوات كما ورد في المصادر التاريخية.

* هل ترفض فكرة غالبية المفسرين عن عيسى التي تقول إنه ولد بدون أب؟

لا.. أنا لا أملك دليلاً ملموساً لإثبات منطقة الخطأ، ولكني أتمنى أن يقبل المفسرون فكرتنا أيضاً.

* لماذا يهمك أن تثبت أن المسيح كان كغيره من الأنبياء مجرد إنسان عادي؟

أنا يا سيدي أؤمن بالإنسان، وأنا أؤمن بالله وأعرف أن شيئاً في هذا العالم لا يمكن أن يكون قد تمّ عبثاً، فإذا قلت لك إن عيسى المسيح لم يقل قط طوال حياته إنه قد ولد ولادة غير عادية.. ولم يشر إلى ذلك أيضاً. فأنا أطمع أن أجعلك تحس معي في أن ولادته لم تكن بالنسبة له أو بالنسبة لأهدافه وأداء رسالته ذات قيمة محددة سواء كان قد

ولد من أبوين بشريين عاديين، أو كان قد ولد بمعجزة، وأنا أكره أن يفترض أحد ما بدون أب، وبطريقة خارقة للعادة لمجرد تحقيق معجزة لا أهداف وراءها. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن إعادة المسيح إلى العالم الإنساني البسيط تأكيد لمبادىء القرآن نفسه، وتوطيد لسمو العنصر الروحي في الإنسان الذي استطاع بجوهره الإنساني وحده أن ينجز كل ما أنجزه المسيح.

الإنسان مخلوق عظيم، عهد اللّه إليه بمهمة تحقيق الدفق الروحي القادر على نقل الجسد الطيني إلى عالم اللّه بطريق الإيمان، وليس مما يضير المسيح أن يظل إنساناً ولكنه يهم الإنسان أن يعرف أن عيسى المسيح الذي رفعته الثقافات البدائية إلى مصاف الآلهة.. وأنصاف الآلهة.. كان في الواقع مجرد إنسان.

* لماذا توقّفت عن نشر دراستك؟

أنا لم أتوقف، فقد نشرت هذه الدراسة في أربع لغات حتى الآن، ولكن النسخة العربية منها لقيت من سوء الحظ.. وسوء الفهم ما دعاني إلى إيقاف نشرها هنا في ليبيا.. فقد نهض ثمة من يتهمني بالكفر، وثمة من يشتمني لمجرد أداء مهمة الشتم، وأنا لست في الواقع سيئاً إلى هذا الحد.. ولست كافراً أيضاً، إنني قد أكون مخطئاً.. ولكنني بالتأكيد أؤمن باللّه كما يؤمن به الآخرون.. وقد كان بودي

أن أجد الهداية.. وأجد النقاش المتزن عندكم ولكن ذلك لم يحدث.. كل ما وجدته مجموعة من الشتائم الخرقاء، وأنا أملك حاجتي من هذه البضاعة الكريهة.. فلا داعي لمزيد من المتاعب.

- الاستجابة:

* هل استجاب لك قرّاؤك في اللغات الأخرى؟

أجل يا سيدي. لقد حدث ذلك في اللغات الأخرى، ولكنه لم يحدث في اللغة العربية.

* هل هناك سبب خاص لما حدث؟

أجل، إن الآخرين لم يقولوا إنني على صواب، ولكنهم أيضاً لم يسارعوا إلى شتمي فقد أعطوني فرصتي كاملة للنقاش وبقي أن تثبت الأيام مدى قيمة ما قلته لهم.

أما نسخة دراستي العربية فقد قوبلت بعنف لا مبرر له، وحرمت من حق النقاش المتزن، ولعل سبب ذلك أن اللغة العربية نفسها وأن الناس الذين يكتبون باللغة العربية أيضاً لم يكتشفوا بعد ماذا تعني كلمة النقاش المتزن نتيجة الظروف الثقافية السائدة في المنطقة.

- الخروج:

* كيف يمكن الخروج من هذه الظروف؟

افتحوا نوافذكم على العالم، وواجهوا أنفسكم،

ودعوا الأشياء تنال قيمتها الحقيقية بدون إقحام لعوامل الغضب أو الرضا.. وجادلوا بالتي هي أحسن، وآمنوا بالإنسان لكي تؤمنوا بأنفسكم، وتذكروا أن اللّه لم يخلق عقولنا عبثاً.

* لماذا قلت: نوافذكم.. وأنفسكم، ولم تقل نوافذنا وأنفسنا، هل تعني بهذا أنك لست منا؟

أنا أعني أنني لا أستطيع أن أقبل ظروفكم الثقافية، وسوف أعمل أي شيء في وسعي لكي لا أقبلها في يوم من الأيام ما دامت عاجزة عن احتضان قضايا الإنسان..وحب الإنسان.

* ألا يعني هذا انفصالك عنا ثقافياً ونفسياً؟

إنه يعني انفصالكم عني.

* من أنت؟

أنا إنسان نصف ميت لأنني بُعثت من موتي القديم بينكم وعجزت عن الشعور بالحياة مع الآخرين.

* لو لم تكن صادق النيهوم فمن تحب أن تكون؟

لا أدري.

* هل قمت بعمل ما وتشعر أنك نادم عن القيام به؟

أجل أشياء كثيرة جداً.

* هل لك أمنية معينة؟

أجل. أن يكون الله مع ليبيا.

* هل تريد أن تقول شيئاً؟

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

لقاء مع صادق النيهوم:
تصدّوا للدفاع عن عالم اللّه الرحب ..
في لمحة حافلة بالكوميديا!

حوار، أحمد الحريري(*)

الرجل أكبر من أن أتحدث عنه.. وأكبر من أن أقدّمه بالطريقة الروتينية:

فلان الفلاني..

من مواليد كذا..

نشأ في كذا..

تعلّم كذا..

(*) أحمد أبو القاسم الحريري: شاعر وصحفي ليبي. ولد في طرابلس عام 1943. نشر نتاجه في صحف ليبية مختلفة، وقدّم العديد من البرامج الإذاعية، وهذا الحوار مع النيهوم أجراه في مارس/آذار 1969، ونشره بعد عام في صحيفة اليوم، طرابلس، يناير/كانون الثاني 1970، كما ضمّنه جزءاً من مقابلة سليمان كشلاف مع النيهوم المنشورة في مجلة الإذاعة والتلفزيون، يوليو/تموز 1968.

يحمل كذا..

إنه مجرد إنسان بسيط يبحث عن نفسه عبر زحمة الحياة.. هو هنا بيننا، يعيش كل مآسينا.. وهو هناك غارق في أعماق الثقافة الإنسانية.. هو في بنغازي وفي سوق الحشيش[1].. حيث ولد وترعرع.. يعايش الإنسان في ظلام الفكر والحياة.. ويحاول جاهداً أن يعطيه الكثير من تجاربه الثقافية.. وهو هناك على مسافة سبعة آلاف من الكيلو مترات.. يجوب عوالم الحياة بكل أشكالها وأبعادها.. ويعانقها بكل صورها.. وبكل ألوانها..

الرجل أكبر من أن أتحدث عنه.. وأعرف مسبقاً أن هذه الجملة ستجرحه.. ستؤلمه.. ستجعله يأسف ولا يأسف على اللحظات التي ارتبطت فيها به.. بأفكاره.. بثقافته.. بإنسانيته.. بقيمه.. بكل ما يحمل من مبادىء.. وبكل ما يحمل من حقائق! وبكل ما يحمل من تواضع.. وبكل ما يحمل من طيبة.

أعرف أنه سيثور في وجهي، وأعرف أنه سيتسامح معي، لأنني أعرف بأنه إنسان يحترق من أجل الإنسان دون أن يرضى أو يفكر بوضع ثمن لذلك، ولا أقول إنني أعرف كل شيء.. ولكنني أعرف بعض الأشياء، بل أقلّها عن هذا

---

(1) اشتهر الموضع، حيث ولد ونشأ النيهوم بهذا الاسم، حيث كانت تباع الأعشاب ونبات (الصفصفة) ـ البرسيم ـ ومواد أخرى.

الإنسان الذي أنجبته ليبيا لكي يحمل شرف بنوتها، ولكي يمثلها بين أرقى المستويات الثقافية في بلاد وصلت حضارتها الثقافية إلى مستويات بعيدة.

وبعد.. فهذا صادق النيهوم كما عرفته.. أديباً مثقفاً وإنساناً رحب الصدر، وصديقاً أعطى أبعاد الصداقة أكثر مما تستحقه من مودة وإخلاص وإيمان، وهذا لقائي مع صادق كما جرى حرفياً.. أرجو أن أعطي صورة مبسطة لجوانب أعتبرها مضيئة من أفكاره وثقافته:

* أنت من..؟

سؤال يتكرر، أقول لكم للمرة الألف، أنا إنسان نصف ميت..!

* ماذا يعني ذلك؟

العشبة الميتة إذا وصلها ماء المطر تستطيع أحياناً أن تعيد الحياة إلى جذورها، والعشبة الميتة لا تحيا كلية بمجرد أن يصلها ماء المطر. إن الحياة تنمو بالتدريج في الجسد الميت، والموت أيضاً ينمو بالتدريج في الجسد الحي، وأنا كنت عشبة جافة ثم غسلتني الغربة بالمطر، وأحسست بالحياة تدبّ في عروقي عبر تجربة المشي والوحدة ومطاردة العالم حافي القدمين. إن التجربة قد منحتني رعشة الحياة مفاجأة ولكن كل شيء أملكه ما يزال ينتمي إلى عالم ميت الجذور، وأنا أقول لك إنك لا

تستطيع أن تدعوني إنساناً حياً تماماً ولا تستطيع أن تتهمني بالموت كلية.

* ما هو مفهومك الحقيقي للدين؟

إنه البحث عن اللّه واكتشافه والشعور حياله بالامتنان، والعبادات شعائر لإظهار ذلك بامتنان.

* ما هي المشاكل التي تواجه الأديب العربي في رأيك؟

إنها مشكلة واحدة تدعى الآن بمحنة الثقافة في المجتمع العربي، إنها مشكلة واحدة هائلة الحجم مثل تنين خرافي بمليون رأس، والأديب البائس لا يملك كثيراً من الفرص الحقيقية أمام هذا الإرهاب الفكري. إنه ما يزال في كل البلدان العربية مجرد قربان نصف مقدس على مذبح التنين ينهش لحمه المرتزقة وتُباع سمعته على الرصيف، ويعرضه المجتمع للفرجة خلال وقت فراغه مثل قردة الحاوي، والواقع أن ذلك يدعو إلى البكاء ولكنه أيضاً يدعوني إلى العناد. والأديب العربي لا بد أن يواجه هذا التحدي لكي يضمن بقاءه.. وهذا بالضبط ما حدث حتى الآن.

* أثار التحقيق الذي أجراه معك الزميل (محمود الهتكي) بصحيفة الرائد الغرّاء.. ضجة كبيرة على كل المستويات، واتهمك البعض بالكفر واتهمك البعض الآخر بالجهل.. فكيف تفسر ذلك؟

التحقيق الذي تشير إليه أسيء فهمه، وبدا في نهاية المطاف مجرد فرصة قبيحة تُتاح أمام صغار المرتزقة في بعض الصحف الليبية لكي ينهشوا مزيداً من جثتي، فقد نهضوا جميعاً مثل قطيع الأقزام الغاضبين لكي يتصدوا للدفاع عن عالم الله الرحب المترامي الأبعاد في لمحة حافلة بالكوميديا التي تثير السأم، لقد تصدّوا للرد دون أن يكون ثمة حاجة للرد أصلاً، وتصدّوا للحديث دون أن يكون لدى أحد أدنى منهم معرفة بربطة النقاش، وقد قرأت بعض ما كتبوا وكدت أموت من الضحك لولا أنني كففت عن القراءة في اللحظة المناسبة، فلم يكن ثمة أحد بينهم يعرف شيئاً عن المسيح.. ولم يكن ثمة أحد بينهم يمتلك القدرة على النقاش. لقد كانوا جميعاً، باستثناء الأخ إبراهيم الغويل، مجرد حزمة من جنود الانكشارية البلهاء الذين تعوّدوا على قبض رواتبهم من خزانة الآغا مقابل نوبة الحراسة أمام قصر الحريم، وبالنسبة لي أقول لك مخلصاً إنني لم أحس قط بمشكلة النقد في الصحف الليبية كما أحسست بها خلال عرض موضوع المسيح للنقاش.

* كيف يُعتبر المفكر ملتزماً، هل الالتزام ضروري بالنسبة له؟

الالتزام يعني أن يؤمن المرء بفكرة ويحملها بين يديه لكي يقدمها للآخرين باعتبارها مجرد اقتراح لأداء مهمة التقدم بطريقة أفضل.. وذلك يعني أن يلتزم المرء بحمل

العبء داخل مجتمعه خاصة وداخل العالم بأسره.. فإذا كانت فكرة الكاتب غير مكتملة، أو كانت مشوّهة أو مأجورة أو فاسقة أو ناقصة أو نيئة فإنها في العادة تلقى حتفها على الفور، أو تتسبب في أن تلقى الكتلة حتفها كما حدث داخل أحزاب الفاشية والنازية والشيوعية. إن الالتزام لا بدّ أن يعني الالتزام بقضايا الإنسان في الدرجة الأولى ثم الالتزام بقضايا المجتمع داخل ذلك الإطار، والكاتب الذي يعجز عن اكتشاف هذا الطريق لا يستطيع في نهاية المطاف أن يواصل المشي دون أن يدقّ عنقه في فخ ما.

* ما هي المراجع التي اعتمدت عليها في وضع دراستك (الرمز في القرآن)؟

القرآن نفسه، ثم تفسيرات العلماء المسلمين الذين عملوا في هذا الحقل منذ بداية علم التفسير، وليس ثمة مرجع آخر اعتمدت عليه، فالذين قالوا إنني أردد ما كتبه المستشرقون يرتكبون رذيلة الكذب المتعمد لأنني لم أفعل ذلك، ولأن أحداً من المستشرقين في أي زمان ومكان لم يقل شيئاً مما قلته والباحث الوحيد الذي وجدت لديه أكبر قدر من الهداية هو فضيلة الإمام العلاّمة محمد علي المولوي الذي قام بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية في الباكستان ـ وهذا الرجل مفكر عظيم لم يتم تقديمه إلى اللغة العربية بسبب ظروف التعصب الحاضرة.

* كيف تفسر ظاهرة التعصب الفكري في الإنسان؟

التعصب ظاهرة من ظواهر الثقافة المتخلفة، إنه نوع من الصراع الفكري الذي تعيشه الثقافة المتخلفة وتعتمد عليه للدفاع عن نفسها ضد أي تيار من الخارج، فالعقل غير المثقف لا يحتمل النقاش ولا يستطيع أن يغامر برحابة الصدر لأنه عاجز عن أن يثق في إمكانياته المحدودة، والحل المتوقع أن يغمض عينيه ويصدمك بعظام جبهته مثل كبش مدرب على النطاح، ففي قبائل الزنوج الوثنية يفقد المرء رأسه إذا رفض أن يقدم قرباناً لساحر القبيلة، وفي مجتمعاتنا المتخلفة يفقد المرء رأسه إذا رفض أن يقدّم فكره قرباناً لرغبات الكتلة، لأن فرص النقاش المتزن غير متاحة داخل هذه العتمة القبيحة، ولأن الفكر المتخلف لا بدّ أن يردّ دائماً بعنف لكي يواصل بقاءه. إن التعصب مرض ثقافي مثل بقية الأمراض، وهو أيضاً يستطيع أن يسبّب الوفاة، والإنسان الليبي الذي تصرّ أنت على نقاش مشكلته ما يزال يعيش الثقافة المتخلفة، وما يزال خاضعاً لكل مظاهرها الخطرة بما في ذلك ظاهرة التعصب. إنه يتعصب لقبيلته أو قريته أو شارعه، ويتعصب أيضاً لعاداته وتقاليده ويجد لتعصبه كثيراً من الأسماء المهيبة مثل (الإخلاص) و(الولاء)، والواقع أن الأمر كله مجرد حالة راهنة من حالات العقم الفكري التي لن تبرّر بقاءها داخل أي ثقافة ناضجة رحبة الصدر.

* قيل لك وأنت طفل إن اللّه في قلبك.. فكيف فسّرت ذلك بعد نضجك؟

لقد وجدته حقاً في قلبي، ووجدته خارجه. إن اللّه في كل مكان وخارج كل مكان أيضاً. والمرء يحسه بقلبه ويحسه بعينيه ويرى مظاهر العالم تتحرك بموجب قدرته كما يتحرك الماء أسفل التلة ويتحرك الدخان في اتجاه السماء، وتتحرك النجوم والمجرات والأكوان العامرة بمظاهر الطاعة والعبادة، لقد قالوا لي عندما كنت طفلاً إن اللّه يعمر قلبك، وبعد عشرين عاماً من الجري وراءه في مظاهر الكون اكتشفت أنه حقاً في قلبي.. لأنه أيضاً خارجه.

* ما هو الدور الذي اقتنعت بأنك تستطيع أن تلعبه بالنسبة لإنسان مجتمعك؟

أنا أريد أن أنقل له كل ما أجده في طريقي عبر هذا العالم الفخم وأريد أن أتيح له فرصة عادلة للاختيار. أنا أريد أن أفتح له النافذة واتركه يجرّب أن يعيش مشاكل الرؤية تحت الضوء مباشرة، وقد حاولت أن أحقق ذلك داخل كل كلمة وضعتها على الورق، وإذا كانت فرصتي ما تزال محدودة فأنا أعرف الآن على الأقل أنني مقتنع بقدرتي على أداء المهمة الكبيرة، وليس ثمة مبرر للبحث عن نتائج هذا العمل، فالفكر مثل النهر المتحرك لا تنمو الحقول عادة عند منابعه بل تنمو على جانبيه عندما يستقر في مجراه وتمتد الأرض أمامه وتعمر بالفلاحين.

وينتهي حديثي مع صادق النيهوم إلى هذا الحد، وأجد نفسي لكي أعطي أكبر قدر ممكن من الصورة الكبيرة لهذا الشاب المثقف.. محتاجاً للمزيد من المعلومات.

ردود ومناقشات

ضمير الكاتب وكرامة القارىء(*)

استنكر الناس من كاتب أن نشر كلاماً عن الأضحية التي يقدمها الموسرون لأصدقائهم وفقرائهم يوم النحر رمزاً للتضحية والفداء واقتداء بالخليل أبي الأنبياء، وتوسعة على المعدمين في يوم عيد، يوحّد المشاعر ويجمع القلوب على صفاء الود والتهادي بالبر وصلة الرحم والتغافل عن قسوة الأيام.

فقد جعل الكاتب أن ذبح النعاج يضرّ بالاقتصاد الوطني وأن من يُقدم على التضحية بها ما هو إلّا حيوان من ذوات الأربع ثم يتظرف بأنه يخشى أن تعمد تلك السباع فتأكله أو أنهم أي المضحين سيذبحون إسماعيل الذي افتداه ربه بذبح عظيم!!

ولم يكن من العجب أن غضبوا وأنكروا، بل كان من العجب ألّا يغضبوا على من جعلهم عجماوات، وهزأ بدينهم حيث جعل المؤمنين بالتضحية سباعاً مفترسات

(*) نشر باسم هيئة تحرير مجلة (الهدى الإسلامي) الصادرة عن الجامعة الإسلامية. البيضاء، ليبيا، العدد (2) من السنة (6) يوليو/تموز 1967، رداً عن مقالة (من أكل القديد؟) للنيهوم انظرها في الكتاب.

وطعن في قرآنهم فجعل إسماعيل عرضة للذبح على الرغم من أن اللّه قد افتداه، وسخر من آبائهم وأجدادهم فجعلهم قساة طغاة ضعاف التفكير فاقدي العقول وما ذنبهم إلّا أن أغنياءهم يقدمون لله هذه القرابين ويطعمون بها الفقراء والمساكين.

وما هذا الكاتب هداه اللّه إلّا واحد من هؤلاء الناشئين الذين يحاولون أخذ الشهرة من أقرب أبوابها وهو مخالفة الجمهور وارتكاب المحذور ولا يستطيعون أن يعالجوا الحياة بإصلاح فاسدها أو حلّ مشكلاتها ولا يملكون أن يسيروا في ضوء العقل أو يهتدوا بأعلام الحق وكأنهم شبّوا وترعرعوا في جو عموا فيه عن خلق يربط وعلم يغير وصموا عن منطق يعصم ودين يهدي. فالتبس عليهم الأمر حتى ظنوا أن العلة خير من الصحة، والخطل أولى من المنطق، والسلب أجدى من الإيمان، والهدم أنفع من البنيان.

وكثيراً ما قرأنا في بعض المجلات وشاهدنا على الشاشات قصص الخلاعة والمجون والتدسس إلى مصون العرض، والمناجاة بالإثم والعدوان والدعوة السافرة إلى مفاتن الشيطان، وتصوير تلك المباذل بريشة الفنان لتكون أمعن في الإغراء، ووصف المفاسد الأخلاقية بقلم يحمل من فنون البلاغة ما يحمل البعوض من الصاب مع العسل وينقل العدوى إلى الأصحاء من ذوي العلل.

وهكذا لا يخلو الملاحدة من فريقين: فريق متحلل لا يبغي من وراء ما يكتب إلّا لذة القارئ ولو على حساب الأخلاق وإلاّ إثارة السامع ولو قذف به في مكان سحيق ولا يزال يسير بقلمه المنحرف على بريق اللفظ يلذّ ولا يفيد ويسوغ ولا يغذي، ويشغل ولا ينبّه وينقل قصصاً عن الأدب الفرنجي لا تتفق وواقعنا وعقائدنا غير أن عرضها يجذب وتصويرها يلذ وموضوعها يلهي، إذ ليست بقادرة على معاناة الجد واحتمال التقصي، لأنها منبثقة من ثقافة ضحلة وحياة هازلة وتقليد أعمى.

وفريق يحمل بين أنامله قلمه كما يحمل العير على ظهره مطعمه فيقف به في سوق المساومة، وكلما ارتفع الثمن كان أقدر على التوجيه حيثما يريد المشترون ـ فإذا رأيت مثل هذا القلم الأجير فاعلم أنه يحمل فناً للأخذ والعطاء، وهوى لا عقلاً للخلق والإباء وغريزة ينفخ فيها الشيطان ـ وصناعة تدرّ الرزق لا طبيعة تقول الصدق.

واعلم كذلك أن مستأجريه من ذوي المذاهب الهدامة التي تنكر الأديان وتمجد وجود الخالق وتدين بأنه لا فارق بين حلال وحرام ولا بين فوضى ونظام ولا بين إنسان وحيوان وليست لديهم حياة إلّا تلك التي خلت من لوازمها الإنسانية من حياة وعفة واحتشام وتصوّن.

إن شرقنا العربي مبتلى بهذه القلة من الفريقين.. فريق يرى أن الحياة المجردة سخف وعبث وأن القيم المقررة

إفك وزور وأن محاولة فهم الحياة وتقيدها عناء باطل:

فانعم ولذ فللأمور اواخر
ابداً إذا كانت لهن أوائل
ما عشت من أرب الحياة فإنما
روق الشباب عليك ظل زائل

وفريق اتخذ من قلمه مطية ذلولاً ومن مداده مطعماً ومقيلاً. فإذا وقفت الأخلاق في طريقه حطّم حواجزها أو سدّ منافذها. همّه الأوحد إرضاء من سخّروه لترويج الأضاليل وزعزعة العقيدة والتشكيك في مبادئها الحكيمة ونظامها بالكامل.

إن الأمل الكبير في ولاة الأمور في بلادنا الإسلامية عامة والعربية خاصة أن يضربوا على أيدي الماجنين بأخلاقنا، المفسدين لشبابنا، المتخذين من بعض الصحف وشاشات التلفزيون والسينما منطلقاً لبهيمية الغريزة بتملّق النزوات وتحريض الشهوات وإماتة الضمائر الأخلاقية ـ ولا غرو فإن القانون والعرف يحميان العقائد ويحترمان المشاعر كما يتطلبان من الخارجين على الجماعة المؤمنة أن يستروا سوآتهم ونزواتهم إن خلوا من سلطان الضمير ومن خشية المصير. على أن أكبر ظننا أن بعض هذه الأقلام العابثة ستفيء إلى أمر الله وتقف في صف المدافعين عن العقيدة والمجتمع حيال هذه الدعوات الهدّامة التي أخذت تزحف على العقائد والتقاليد وأخذ دخانها يغشى البصائر والأعين

وتعمل كما تعمل الأعاصير على إهداء الوجوه والأعين والأنفاس صحفاً منشرة من غبار الأرض يضيّع بها الطريق ويظلم الجو. وصدق الله ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

(1) سورة الرعد، الآية: 17.

مع النيهوم في
(دراسة الرمز في القرآن)

محمد المختار المهدي(*)

لقد استطاعت المدة الطويلة التي مضت على عزلة التشريع الإسلامي عن التطبيق أن تفرّخ لنا شذاذاً ناعقين ترتفع عقيرتهم بأصوات آساتذتهم المستشرقين المتحاملين، والملحدين الهدّامين الذين تبرأوا من كل دين أولاً ثم ركّزوا عداوتهم وحقدهم على الدين الإسلامي على وجه الخصوص، واستمروا يحاولون صرف الناس عن عقيدتهم الإسلامية التي تعتمد على الصدق والواقعية والحقيقة.. والتي تقرر أن هذا الدين هو المهيمن على كل الأديان وهو الوحيد الذي حفظ كتابه من أن تناله يد التحريف والتغيير،

(*) أحد أعضاء بعثة الأزهر إلى ليبيا. عمل في الجامعة الإسلامية بالبيضاء، بإدارة الوعظ والإرشاد، وتولى الرّد على النيهوم باسم مكتبها الفني والذي نشر أولاً في صحيفة طرابلس الغرب ثم العلم - لاحقاً - في أكتوبر/تشرين الأول ونوفمبر/تشرين الثاني 1967، كما أصدرته الجامعة في كتيب صغير مرقون على الآلة الكاتبة احتوى على (11) ورقة..

وتستّروا وراء القصة الفنية الحديثة مدّعين أنها تعتمد على الرمز والخيال، وعمدوا إلى ذرّ الرماد في العيون بمدح القرآن بأنه مساير لمقاييس القصة الحديثة والحقيقة أنه ذمّ في صورة مدح.. فما كان للقرآن الخالد المتعالي الصادر من العليم الخبير أن يتبع منهجاً بشرياً قاصراً يتخذ معالمه من التجارب الإنسانية.. بل أكثر من هذا أنهم تبجحوا فقاسوا القرآن الخالد المحفوظ عبر الدهور والعصور على الإنجيل المحرّف المبدّل الذي وفد عليه قسط وافر من الأكاذيب المختلفة، والتناقض الواضح، وهم يهدفون من ذلك القياس إلى زعزعة الثقة من نفوس المسلمين في هذا القرآن.

ولقد انكشف أمر المستشرقين من زمن ليس بالقصير، وظهروا على حقيقتهم عملاء للاستعمار وعبيداً للهوى والغرض، ذلك أن الاستعمار حينما وقعت في قبضته بعض البلاد الإسلامية بالقهر والغلبة تبيّن له أن الشعب فيها لم يخضع له بروحه وقلبه بل ظلّ ينظر إليه على أنه عدو دخيل كافر.. وبالدراسة والتخطيط استطاع أن يفهم أن السر في هذه العزة والكرامة يعود أولاً وأخيراً إلى هذا الإسلام الذي يزرع في قلوب الناس أن العزة لله وحده وأنه قد منحها لرسوله وللمؤمنين ما داموا معتصمين بتوجيهاته وتعاليمه.. وهنا كان لا بدّ لهم من تغيير المنهج الذي يسيرون عليه والذي يقضي باستعمال القوة لتثبيت سيطرتهم على الشعوب المستعمرة المغلوبة، فاستبدلوا بالاستعمار العسكري

استعماراً فكرياً أشد ضراوة في الفتك بمعنويات الشعوب حتى يسلموا من ثوراتها ضدهم.. فكوّنوا جيشاً ضخماً من الدارسين وفتحوا لهم مدارس استشراقية خاصة، ووكّلوا إلى كل مجموعة منهم فرعاً من فروع الثقافة العربية حتى يستطيعوا بعد دراستها أن يخططوا لكيفية الوصول إلى إضعاف تأثير هذه الأفكار الإسلامية على نفوس المسلمين، ولقد تمّ لهم بعض ما أرادوا ورأينا جيشاً من المستشرقين يدرس الأدب العربي وكل همّه أن يثبت أن الأدب الجاهلي مطعون فيه وغير موثوق به، وإذاً فليس هناك معارضة من القرآن الكريم لأدب عربي قائم إذ لم يكن هناك تراث أدبي على زعمهم..

وبناءً على ذلك يبطل تحدي القرآن للعرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.. ورأينا كذلك هذا النوع من الدارسين للأدب يحاول أن يخضع قصص القرآن إلى الاكتشافات العلمية الحديثة.. فما أثبته الكشف كان صدقاً وما لم يثبته كان مشكوكاً فيه إلى أن يقرر فيه العلم الحديث ما يشاء.. وسمعنا من يقول إن للقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ولكن حديثه لا يثبت وجودهما التاريخي وظهرت جيوش عديدة من هؤلاء في كل الفنون العربية.. وكل هدفهم أن يدسوا فيها ما يشاؤون بعد أن يكتسبوا ثقة القارىء ببعض وجوه التنظيم في الغرض حتى تفقد هذه الثقافات روحها وفعاليتها وتأثيرها على المسلمين.. فمنهم

من يقرر أن في الإسلام فكرة التفوق الجنسي بمعنى أفضلية الرجل على المرأة على أساس عنصري ليثيروا بها النساء ليطالبن بالمساواة المطلقة غير الممكنة.. ومنهم من يروّج فكرة أن الجهاد وسيلة سلمية للإقناع حتى يسلموا من ثورات الشعوب، ومنهم من يتبنى فكرة أن الإسلام دين لا دولة ويجب أن تنفصل الدولة عن الدين على غرار المسيحية حتى يحصل الانقسام بين العقيدة والواقع فتحدث الثنائية والازدواج في ضمير المسلم وغير ذلك كثير... وكثير، ولقد استطاعوا استغلال حاجتنا إلى بعض التخصصات العلمية وبعثنا بعض شبابنا إلى بلادهم للتعلم في تلقين بعض منهم تلك الأفكار الغريبة لينشروا هذه الأفكار بدوافع وأسباب ومغريات لا داعي لذكرها على هذا الصعيد العام.. واستطاعت هذه الشرذمة أن تتبجّح وتكتب هذه الأفكار البعيدة عن الإسلام بأسلوب عربي يقرأه المسلمون ويفعل فيهم فعله في إضعاف القيم الإسلامية وتنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم والهيمنة. ولنا أن نسمي هؤلاء المسلمين المقلدين بالمستغربين.. لأنهم شرقيون لساناً غربيون أفكاراً.. ولقد ظهر هؤلاء المستغربون في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. ونشروا كل شيء قاله المستشرقون.. ولكنهم صدموا بالصخرة الصلبة التي تحطمت عليها آمالهم متمثلة في علماء الإسلام فباؤوا بالفشل الذريع في كثير من البلاد الإسلامية.. ولقد كنا نظن

ألا تقوم لهم قائمة بعد ذلك إذ قد استبانت أغراضهم وطرقهم الملتوية التي يستعملونها ضد الأحرار العلماء فيسمونهم رجعيين جامدين (دراويش) معقدين.. ولقد خاب ظننا فأطلوا برؤوسهم من جديد كما تطلّ الحية من مرقدها وساعدهم على ذلك سيطرتهم على مجالات التوجيه وكان من أثر ذلك أن صاروا كما قيل:

(خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت ان تنقري)

وظهر هنا المستغرب الجديد الصحفي (صادق النيهوم) الذي يعلن عن نفسه أنه جاهل بالإسلام وأنه ليس من أهل الكلام في الإسلام ومع ذلك فإنه دائماً وباستمرار لا يجد متنفساً لديه إلّا في الطعن على الإسلام من طريق مباشر وغير مباشر مستعملاً أسلوب السخرية والتهكم بدين اللّه وبتشريعاته وتعاليمه..

ولتسمعه يتحدث عن الإسلام في أكثر من موضع حتى لا يتهمنا أحد بأننا متحاملون عليه متهمون إياه بما هو منه بريء:

1 ـ في مقال ـ من أكل القديد ـ الذي نشره على جريدة «الحقيقة» بتاريخ 11/ 4/ 1967 يقول: (وأنتم ستبقون حتى تنقرض آخر نعجة في العالم ثم تذبحون إسماعيل) ويسمي الأضحية ـ لعبة باهظة التكاليف ـ وقد رددنا على هذا المقال في حينه.

2 ـ وأيضاً من البديهي المعروف في الفقه الإسلامي أن هناك صلاة مشروعة تسمى صلاة الاستسقاء تُصلّى عندما يمنع المطر في موعده لأن نزول المطر مرهون بمشيئة اللّه ولكن النيهوم يصف هذا العمل بأنه خرافة اكتشفها الشرق.. اسمعه يتحدث في جريدة (الحقيقة) أيضاً في عددها الصادر في 15/ 4/ 67م في دراسته النقدية (الذي يأتي ولا يأتي): (فالمطر ينحبس لأسباب أخرى مغايرة منها ذلك السبب الخرافي الذي اكتشفه الشرقيون في انحباس المطر نتيجة تفسخ الإيمان .!) أهكذا ولو قال القرآن الكريم ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾[1].

3 ـ في مقال (تجريب) الذي نُشر على جريدة (الحقيقة) أيضاً في عدد 24/ 4/ 67م يسخر من حكم الإسلام بحرمة الخلوة بالمرأة الأجنبية، تلك الخلوة التي يترتّب عليها إغواء الشيطان فيقول: (وتذكرت خلال الليل أنني أجلس مع امرأة في غرفة خالية وافتقدت صديقنا الشيطان)! ولندع للقارئ ليحكم على رجل يختلي بامرأة أجنبية في الليل ويفتخر بذلك ثم يتحدث في تفسير القرآن.. وفي نفس المقال يسخر ويتهكم بما يقرّره الإسلام من تكفير اللّه لذنوب الحجاج الذين يذبحون الهدي تقرباً إلى اللّه وتنفيذاً لشعيرة من أهم شعائر الإسلام ويغالط في استهزاء

(1) سورة نوح، الآيات: 10 ـ 12

فيزعم أن الإسلام أو أن علماء المسلمين يقولون إن من لم يملك نعجة لا يدخل الجنة وإن من يملكها يدخلها ولو كان سيء السيرة! وكأنه يتحدث عن صكوك الغفران التي قرأ عنها في تاريخ المسيحية لا في تاريخ الإسلام.. اسمعه يقول (نعجة العيد تحمل المرء فوق ظهرها وتقفز به عبر جهنم.. أما إذا كان المرء لا يملك نعجة فإن عليه أن يقفز بنفسه ويمشي فوق الصراط الذي يشبه حد السيف) وحينما تسأله صديقته أو عشيقته لماذا يفعل ذلك؟ يقول لها (لكي يصل إلى الجنة أعني أنت لا تستطيعين الوصول إلى هناك إذا كنت لا تملكين نعجة إنهم يقولون في الشرق إنك إذا ذهبتِ إلى مكة وضحّيتِ فسوف تصلين إلى الجنة راكبة نعجة، أعني وإن كنت امرأة سيئة السيرة أو متعهدة لتموين العمال)،.. فهل في الإسلام وهل بين علماء المسلمين من يقول بذلك؟ بل هل بين المسلمين إطلاقاً من يقول إن الرجل الفاسق أو إن المرأة الفاجرة تستطيع أن تضمن لنفسها الجنة لمجرد وصولها إلى مكة وذبحها النعجة ما لم تكن منها توبة نصوح وما لم يتقبل اللّه منها هذه التوبة؟ وإذا لم يكن بين المسلمين من يقول بهذا، فما هو القصد من هذا الأسلوب الساخر.

4 ـ وأخيراً وليس آخراً بدأ النيهوم سلسلة جديدة وطويلة بدأها بنفس الروح، روح السخرية والتهكم بالعلماء والطعن في مدلولات الألفاظ العربية وفي مفهوماتها اللغوية، تلك السلسلة المسماة (دراسة الرمز في القرآن)

وأنه يبدأها بكلمات تهدم كل ما ورد فيها.. إنه يقرر أكثر من مرة أنه (ليس فقيّاً) على حدّ تعبيره وإنه (لا يعمل في تفسير القرآن) وهو بذلك يحكم على نفسه بأنه متطفل على هذا الباب في رذالة وبجاحة في عصر يسمى (عصر التخصص العلمي) ـ والأطرف من هذا أنه يذكر أن مرجعه الأهم نسخة إنجليزية من تفسير القرآن لمولاي محمد علي.. هكذا!! نسخة إنجليزية ولمن؟ لمولاي محمد علي الذي ينتمي إلى فرقة القاديانية المنحرفة التي يحتضنها الإنجليز منذ نشأتها.. لهذا ما كنا نريد مناقشة ما ورد فيها من آراء تافهة إذ كنا نترفع عن الرد على الهراء.. ولكن سناقش اليوم لا شيء إلّا لحق القراء الأعزاء علينا في توضيح من يريد بهم الزلل ومن يسوقهم إلى الهاوية فإن كان لنا اليوم حديث فهو للقراء لا غير.. لأن النيهوم لا كلام معه.. فقضيته واضحة وضوح الشمس وأمر المسلم بين وضعين إما مؤمن باللّه وكتبه فيفرض عليه هذا الإيمان أن يسلم بكل ما جاء في كتاب اللّه دون تحريف أو تشويه لأن هذا القرآن بالذات محفوظ من لدن الخالق جلّ وعلا بعناية خاصة.. وإما كافر به فليعلن ذلك حتى لا ينخدع به السذج البسطاء وحتى لا يقع في أحابيله الشيطانية من هو بريء مؤمن وإليكم قضية الرمز في القرآن: ماذا يقصد بكلمة رمز؟..

الرمز يعني لغوياً: الإشارة والإيماء.. واصطلاحياً هو التعبير عن الحقيقة بما توحي به فله ظاهر وباطن.. معنى جلي ومعنى خفي.. والعمل الرمزي تنمية لفكرة مقنعة من

وراء حكاية يقبلها الجمهور.. والرامز عادة لا يضطره إلى هذا النوع إلّا الخوف من التصريح بأن يكون الهدف المقصود جرحاً لمشاعر من في أيديهم السلطة.. أو نقداً لاذعاً لأوضاع لا تروق في نظر الأديب، ولذلك لا تكاد ترى هذا النوع الرمزي إلّا في عصور اضطهاد وكبت للحريات.. ومن المعروف البديهي أن من أخلاق العربي الشجاعة في الحق والصراحة في القول.. لا يخشى لومة لائم ولا يخاف من أية قوة لأنه لم يتعود حياة التحكم والسيطرة، بل كانت الصحراء في اتساعها وحريتها وعدم خضوعها لحاكم معين أو لقانون معروف اللهم إلّا التقاليد والعادات السائدة لدى القبائل العربية.. من هنا لم يلجأ العربي إلى الرمز في لغته في عصورها الأولى ولكنه عرف شيئاً آخر يسمى التورية بأن يأتي باللفظ الذي يتحمل معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد.. ويقصد البعيد دون القريب لقرينة حالية أو مقالية.. ولقد عُرِف هذا النوع من الأدب تفنناً وذكاءً لا خوفاً وجبناً غير أن هناك عملاً أدبياً بارزاً ظهر فيه الرمز بوضوح.. ذلك هو ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) في العصر العباسي.. ذلك الكتاب الذي يعتمد على محادثات الطيور في إبراز ما يريد من أفكار ولم يظهر هذا النوع إلّا لتوضيح واجب الحكّام تجاه الرعية وواجب الرعية تجاه الحكّام مما لا يستطيع الأدب الصريح أن يقوم به على هذا الوجه. ولقد انتشر هذا الرمز بصورة أوسع في النهضة

الأوروبية الحديثة حينما شعّ نور العلم على أوروبا ووقفت في طريقه السلطة والكنيسة فلجأ الكتّاب والأدباء إلى إفراغ ما لديهم من آراء في أسلوب رمزي لا تستطيع السلطة أن تؤاخذهم به إذ يعتمدون فيه على تراسل المشاعر وعلى الإيحاءات النفسية الغامضة.

بهذا المعنى للرمز لا يستطيع أحد أن يقول إن القرآن الكريم قد اعتمد على الرمز في قصصه ذلك أنه صادر من القاهر القوي الذي يخافه الجميع ولا يخاف من أحد (بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجار عليه) وما دام القائل لا يخاف من أية قوة فلا حاجة به إلى التخفي والمواربة.. بل إنه قد صرّح وتحدّى دولة الفرس في عنفوانها مقرراً أنها ستُهزم في بضع سنين وقد يقول قائل إنه لم يلجأ إلى الرمز خوفاً من أحد ولكن ملاحظة لمعلومات عصره وهذا ما يقوله النيهوم في عدد 5/ 8/ 67م: (أنا أنوي أن أقترح أن هذه القصة كما وردت في القرآن الكريم كانت تتجاوز معلومات العالم التاريخية في عصر النبي). ولكننا نتساءل إذا كان ذلك مقصداً للقرآن فلماذا تحدث عن السموات والأرضين السبع وكيف كانت قبل تكوينها بل لماذا تحدّث عن جنة عرضها السماوات والأرض ولماذا ورد فيه كثير من الآيات تشير إلى حقائق ضخمة كان مدى علم الإنسان عنها محدوداً للغاية إلى أن كشفت عنها الأحداث المستقبلة؟ وهل كان الفكر الإنساني قد وصل إلى هذه

القوانين المدنية والجنائية والسياسية التي تحدّث عنها القرآن الكريم وما زال العالم حتى اليوم يكتشف منها الكنوز والذخائر؟.. وهل هناك قصة في القرآن لا تتجاوز معلومات العالم التاريخية في عصر النبي من حيث الدقة في الرواية والصدق في الحديث والعبرة في الأحداث؟. إن القرآن في كثير من قصصه يمتن على الرسول بهذه المعلومات ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[2]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[3] هكذا يجعل القرآن الكريم القصة بهذه الدقة والضبط دليلاً على صدق الوحي إلى سيدنا محمد ﷺ.. وإذاً فتلك قضية منقوضة من الأساس.. وبذلك نستطيع أن نقول إن القرآن ليس فيه رمز بهذا المعنى الحديث ولكن هناك في القرآن وفي قصص القرآن بالذات لمحات وأغراض وأهداف تُفهم من سياق القصة ويدركها العلماء الراسخون من أسرار الألفاظ العربية.. وكلما تعمّق العلماء في معرفة أسرار هذه اللغة تبينت لهم معانٍ جديدة وسيظل العلماء يمتحّون من آيات القرآن الكريم معانٍ جديدة ولكن هذه الأسرار تدرك في

---

(1) سورة يوسف، الآية: 3.
(2) سورة القصص، الآية: 44.
(3) سورة القصص، الآية: 46.

حدود المعاني المعروفة للألفاظ العربية.. أما التحميل والتحريف في كتاب الله فهذا هدف المبطلين الهدّامين ويتجلى هذا التحريف في أفكار النيهوم اليوم.

.. ولا غرابة فإن الرجل يعلن عن نفسه أنه ليس لديه منهج معين.. ونشهد أنه صادق في هذا فإن كلامه فعلاً لا يسير على أي منهج علمي.. إنه تخبطات وضلالات متفرقة لا يجمعها إلّا شيء واحد هو الطعن في القرآن من خلال الرمز.. وهو صادق كذلك فيما صرّح به في عدد 8/ 7/ 67 من أنه يفسر القرآن طبقاً لوحدات رمزية معينة وراء حدود اللفظ، وتكفينا شهادته تلك في أنه يخترع معانٍ جديدة وراء حدود اللفظ وأنه متقيد بوحدات رمزية معينة يحمل عليها القرآن حملاً ويقسره عليها قسراً.. بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حين يقرّر في عدد 22/ 7 أن ليس ثمة تحديد خاص لمفهوم الكلمات المستعملة فالألفاظ العربية فقدت عنده مدلولاتها اللغوية وليتبين هذا الذي نقول نبدأ معه من حيث بدأ.. لقد بدأ بقصة أصحاب الكهف.. وهذه القصة بالذات كانت هي المثل الذي بدأ به المستشرقون قديماً طعنهم في واقعية القصة القرآنية محاولين أن يثبتوا أنها خيال.. ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[1] ولكنه تصرّف بعض الشيء فبدل أن يسميها

---

(1) سورة البقرة، الآية: 118.

خيالاً مثلهم سماها رمزاً.. غير أنه ذهب إلى أبعد مما ذهبوا.. فإنهم قالوا إن بعض القصص فقط هو الذي يمكن أن يكون من القصص الخيالية ولكنه هنا يقول في حلقة 8/ 7/ 67م (ولعل قصص القرآن كلها مسخّرة لأهداف الرمز ولعل لدينا تفسيراً معاصراً لهذه الرموز) وفي حلقة 22/ 7 (وهذا لا بد أن يدعو في النهاية إلى اعتبار القصة كلها عملاً رمزياً متعمداً) وفي حلقة 5/ 8 (وما دام القرآن قد قدّم لنا هذا المنفذ في سورة الكهف فليس ثمة ما يحول دون القول بأن ذلك قد حدث أيضاً في بعض السور الأخرى).. هكذا الرجل يريد أن يحكم على قصص القرآن كلها بأنها رمز!! وبذلك يكون قد فاق أساتذته ومن سبقوه!! لقد كان أول من تحدّث عن هذه الفرية المستشرق الإنجليزي المتحامل على الإسلام (مرجليوت)[1] 1925 (ولقد ردّ عليه المستشرق الآخر (آربر) في خاتمة كتابه (المعلقات السبع) بقوله (إن السفسطة والغش في بعض الأدلة التي ساقها مرجليوت أمر بيِّن جداً) ولكن للأسف الشديد لم ترج في

(1) مستشرق إنجليزي ولد عام 1858 وتوفي عام 1940. كان أستاذاً للغة العربية في جامعة أكسفورد، وعضواً بالمجمع العلمي في دمشق. حقّق كثيراً من كتب التراث العربي والإسلامي، ومن مؤلفاته: (محمد وظهور الإسلام) و(نشأة الإسلام).

الشرق المسكين إلّا أفكار مرجليوت دون (آربر) لأنها أفكار منحرفة تؤدي بمن ينشرها إلى الشهرة.. أياً كانت الشهرة ولو في طريق الشر والفساد!! ولنعد إلى النيهوم وهو يتساءل عن أصحاب الكهف: هل ناموا حقاً ثلاثة قرون؟ ثم يقول أنا سأفترض أن القصة بأسرها حادثة رمزية.. ويستدل بأن تاريخ اضطهاد المسيحية يتفق تماماً مع هذه المدة التي حدّدها القرآن لفترة نوم هؤلاء الفتية.. ولا أدري كيف يُساق الدليل المثبت برهاناً على النفي، إن فترة اضطهاد المسيحية التي ثبت أنها تساوي ثلاثة قرون شمسية وثلاثة قرون وتسع سنوات قمرية ترشّح وتقوّي حدوث القصة بعد ملاحظة الاعتراف أولاً بقدرة اللّه في الإحياء والإماتة.. فما المانع أن تكون القصة قد وقعت كما يرويها القرآن على أنها حقيقة واقعة ويتحدى بروايتها معارف البشرية جمعاء حين يقرر في بدئها ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾[1] ومع هذا تدل أيضاً على فترة اضطهاد المسيحية.. تلك الفترة التي جعلت هؤلاء الفتية يهربون من البطش والتنكيل إلى الكهوف والجبال.. فأراد اللّه أن يجعلهم آية للناس يعرفون بها مدى قدرة اللّه على البعث وإحياء الموتى من القبور، هل هذا المانع هو الهدف المرسوم من تلمس أي ثغرة ولو لم تكن ثغرة في

(1) سورة الكهف، الآية: 13.

واقع الأمر للطعن في الإسلام؟ أظنه ذلك والله أعلم إذ لا يوجد مسلم مطلقاً يقرأ قبل بدء القصة أن الله سيقص نبأهم بالحق ثم يأتي بعد ذلك ليقول إن هذه القصة ليست حقاً واقعاً ولكنها حادثة رمزية.. إلّا إذا أطفيء نور الإيمان من قلبه فصار متناقضاً مع نفسه باعتباره مدعياً للإسلام والتصديق بالقرآن.

ومما يوضح هذا التناقض أن في هذه الدراسة التي ينشرها النيهوم بعد تردد منه لمدة عامين مليئة بشتى أنواع التضارب المفضوحة الواضحة.. إنه يقول في 22/ 7 (ليس ثمة إشارة إلى عدد أصحاب الكهف أو عدد السنين التي قضوها هناك) في حين أنه يروي الآية التي ترفض النقاش في عدد هؤلاء الفتية، وترد علم ذلك إلى الله وحده لهدف خاص ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[1] وفي نفس الوقت الذي يحلّل المدة التي قضوها مقرراً أنها ثلاثة قرون شمسية وتزيد تسعاً بالحساب القمري كما قرّر القرآن.

ليس هذا أول تناقض ولا آخره فلديه الكثير من هذا

---

(1) سورة الكهف، الآية: 22.

التضارب: إنه يتهم القرآن بأنه يعتمد على الأساطير.. تماماً كما كان كفار مكة يتهمونه بذلك فيقول إن فكرة نومهم تستند في الدرجة الأولى إلى أسطورة مسيحية والأغرب من ذلك أنه يسند فكرة النوم إلى المفسرين لا إلى القرآن ويدّعي أن القرآن لم يأت فيه لفظ النوم ويزعم أن هذه الكلمة وحدها هي التي كانت تؤيد ذلك في حين أنه يقرر أن من ضمن مراجعه (القاموس المحيط) ولفظ القاموس في تفسير معنى كلمة الرقود التي وردت في القرآن الكريم: الرقد: النوم كالرقاد والرقود: هذا نص كتب اللغة من أن الرقود هو النوم وأن النوم هو الرقود لفظتان مترادفتان لمعنى واحد، فهل على القرآن من ضير إذا اختار لفظة منهما لتؤدي المعنى؟ وفي الوقت الذي يقرّر فيه أن فكرة النوم تعتمد على أسطورة مسيحية في حلقة 22/ 7 نراه يقول في حلقة أخرى 5/ 8 إن قصة أصحاب الكهف قد أشار إليها أكثر من مرجع تاريخي آخر وفي نفس الحلقة إن قصة أصحاب الكهف التي وردت في الأساطير المسيحية تُعاد في النص القرآني مجردة تماماً في كل المواضع من فكرة المعجزة!!

إن المفكرين المتحدثين من أعداء الإسلام لم يجرؤوا أن يقولوا في اتهامهم للقرآن بأنه أساطير الأولين لعجزهم عن إظهار خلل فيه ولجأوا إلى ادعاء بشرية القرآن وأنه من وحي نفس محمد ولكن النيهوم المسلم يقول ذلك بكل

جرأة وبجاحة وتجن على الحقيقة والتاريخ.. ويعيد ويكرر في حلقة 29/ 7 أن المعجزة تعتمد على أسطورة مسيحية، ولقد كان منهج النيهوم في هذه الدراسة هو نفس المنهج الذي اتبعه أساتذته المستشرقون من قبل في نفي واقعية القصة القرآنية فلقد قالوا إن عدم تحديد القرآن للأماكن والأزمنة والأشخاص في روايته للقصص القرآني دليل على أنها قصص خيالية وأنها لمغالطة شنيعة مفضوحة ذلك أن هذه الشروط التي استحدثها الغرب في نسج القصة ليست شروطاً في كل قصة حتى في اصطلاحهم. إنها شرط حقاً في نوع واحد هو القصص التاريخي.. أما الأقصوصة الفنية بمعناها الحديث فلا تتعرض لأزمنة ولا لأمكنة ولا لأشخاص.. بل تعتمد كل الاعتماد على المواقف التي تؤدي بها إلى الهدف المقصود من سرد القصة دون أدنى اعتبار لشيء آخر.. ولكن النيهوم يتخذ من تركيز القرآن على الموقف الإيماني الذي تجلى في تصرف هؤلاء الفتية وعلى إظهار مدى قدرة اللّه التي أنامتهم هذه المدة الطويلة ثم بعثتهم، يتخذ من هذا تكأة له ليقول عن هذه القصة إنها حادثة رمزية جرياً على نهج أساتذته المستشرقين فما أشبه الليلة بالبارحة!!

وخلاصة ما في قصة أصحاب الكهف عندنا معاشر المسلمين أنها قصة حقيقية واقعية يفهم منها أنه كانت هناك فترة اضطهاد للمسيحية «وقد تفهم منها مدتها» ولكن ذلك

لا يحول دون واقعيتها وحدوثها بعد أن قرّر القرآن نفسه في بدئها ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾(1)، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾(2).

إلى هنا والقضية تحتمل النقاش وتبين الزيف وكشف التحريف، أما وقد فكر النيهوم في أن الجو قد خلا له فقد أعلن عن نفسه وصرح في الحلقة الثامنة في 2/ 9/ 1967م، التي فوجئنا بها بعد فترة لم يتح لنا فيها الاطلاع على ما بينها وبين نهاية قصة الكهف... صرح بكل شيء دون رمز ولا إيماء.... فقد أراد الرجل أن يصل إلى هدفه بسرعة بخاصة أنه قد رأى نفسه ينطلق إليه دون عقبات ودون ناقد ولا رقيب.. ذلك أنه قد بدا في هذه الحلقة تكذيب صريح وواضح لما ورد في القرآن الكريم، تكذيب لا يحتمل التأويل ولا يخفى على أحد مهما كان.. وترديد لتهم اليهود التي اتهموا بها السيدة البتول الطاهرة مريم العذراء ابنة عمران.. وليس لديه من شبهة يعتمد عليها سوى عرض قصة مريم في سورة مريم بعد قصة زكريا وابنه يحيى.. وبمنطق غريب وعجيب يربط بينهما بأنه ما دام ليحيى أبٌ فلعيسى أبٌ كذلك!! هكذا بهذا القياس الغريب الذي يسفّه به عقول الناس ثم «إن عيسى مجرد طفل عادي ولد بطريقة عادية من أبوين معروفين مثل أي طفل آخر في العالم» هذا رأيه بكل

(1) سورة الكهف، الآية: 13.

(2) سورة يونس، الآية: 32.

صراحة ولو قال القرآن الكريم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[1] تلك الآية التي ينسبها النيهوم إلى المفسرين..!! إذ هو لا يستطيع التميز بين ما هو قرآن وما هو تفسير. وإنه لموقف مرتبك حقاً ذلك الذي أوقف نفسه فيه وأحاطها بمجموعة من الأسوار الرمزية. تُملي عليه كيفما تشاء، ويحرّف القرآن حسبما تقتضيه الوحدة الرمزية.. استُمع إليه وهو يقول! «... والقرآن الذي يروي قصة عيسى وقصة يحيى بحدّ لفظي واحد يتجنب التورط في خرافات الإنجيل الموغلة في التناقض فلا يعتبر المسيح ظاهرة إلهية من أي نوع.. فما دام الاتفاق إجماعياً على أن يوحنا المعمدان هو طفل زكريا واليزابيث.. وما دام القرآن يروي قصة ميلاده كما يروي قصة ميلاد عيسى فإن وحدة الرمز تقترح بثبات أن القرآن يعتبر عيسى أيضاً مجرد طفل آخر وإلّا فإن الوحدة اللفظية داخل النص السماوي تظل مجرد صدفة والصدفة عمل مستحيل في الكتب السماوية». ولا ندري بماذا يجيب لو سألناه هذه الأسئلة:

لو كانت متزوجة بيوسف النجار كما يدّعي فلماذا قامت تلك الضجة الكبرى حين مولده؟ هل هناك غرابة في زوجين ينجبان طفلاً؟ ثم لماذا رفعه البعض إلى درجة الإله

(1) سورة آل عمران، الآية: 59.

ووضعه البعض الآخر فاتهم أمه بالإفك والبهتان.. لو كان هناك زواج؟.. ولماذا أصاب مريم حينما أحست بالحمل في بطنها همّ وغمّ وحزن جعلها تهاجر إلى مكان قصي وحينما فاجأها المخاض فضلت الموت ومفارقة الحياة على أن تواجه قومها.. مع أن أي امرأة متزوجة في العالم تنتظر هذا الحدث السعيد في شوق وتلهف ورغبة ويحيطها أهلها بالرعاية والإعزاز؟ ولماذا نوديت ساعة الولادة، ألّا تحزن وألّا تترك للهم سبيلاً إلى نفسها فهي تحت رعاية ربها ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾[1]. على أي شيء كانت حزينة؟ ولماذا هيأ الله لها تلك المعجزات، ولماذا أمرت بعدم الكلام مع البشر حتى يتكفل الطفل الصغير بإفحام المتقولين؟ ثم لماذا ثار قومها عليها لحظة إتيانها بعيسى متعجبين قائلين: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[2]؟.. فلو كان أمر زواجها معروفاً حين ذلك فلماذا كان هذا التعجب والتأنيب؟ ثم ما معنى اهتمام القرآن الكريم بتفاصيل مولد عيسى عليه السلام؟..

(1) سورة مريم، الآيات: 24 ـ 26.
(2) سورة مريم، الآية: 28.

وما معنى أن يرسل اللّه لها ملكاً في صورة بشر سوي فتقول له ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[1] فيقول لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[2] فتتعجب من هذه المفاجأة وتقول ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا﴾[3] فيطمئنها بأن هذا أمر اللّه واللّه لا يحتاج إلى الأسباب العادية لتنفيذ إرادته ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾[4]؟.

هل هذه المقولات والمحادثات التي يحكيها القرآن الكريم بهذا الوضوح تحتمل الرمزية؟ وإذا احتملت فهل هناك وجه ترمز إليه سوى أن عيسى قد ولد من غير أب حتى لا يظن أحد أن هذه النواميس التي تحكم الكون حتمية الوقوع فإنها خاضعة لإرادة اللّه؟ وإذا كان النيهوم يستبعد ذلك فعليه أن يستبعد كذلك كل معجزات الأنبياء.. عليه أن يطعن في عدم إحراق النار لإبراهيم الخليل.. وعليه أن يطعن في ناقة صالح وفي عصا موسى.. كما طعن في كل معجزات عيسى، كما سنروي حديثه عن ذلك بعد قليل!! ثم ماذا يريد القرآن من هذه الآية إذا كانت

(1) سورة مريم، الآية: 18.
(2) سورة مريم، الآية: 19.
(3) سورة مريم، الآية: 20.
(4) سورة مريم، الآية: 21.

مريم زوجة ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[1] هل يحتمل هذا الكلام تأويلاً وتحريفاً.. فنفخنا فيه من روحنا.. لا من زوجها؟. وما معنى أن تبشرها الملائكة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين.. ولماذا سُمّي كلمة الله لو كان طفلاً عادياً؟ ومن هذا الذي استدلّ على ولادة عيسى بدون أب من مجرد عدم ذكر أبيه حتى تدعي أنه لا يصلح دليلاً في نقاش أبعاد الرمز؟!! ثم ما هذا القياس الذي تذكره من أن القرآن لم يذكر والد موسى ولا والدة يحيى؟ أليس هذا دليلاً لنا لا لك؟ ألا نستطيع أن نقول: إن القرآن لم يذكر أحداً مطلقاً منسوباً إلى أمه سوى المسيح، وإن القرآن لم يذكر اسم امرأة مطلقاً سوى مريم، وإنه لم يذكر والد موسى لأنه لا يتعلق بذكره غرض في سياق القصة والعبرة منها؟ وكيف أن تحكم على أن المناسبة بين قصة عيسى وقصة يحيى لا تتأتى إلّا بتحريفك هذا، هل فتحت كتاباً من كتب التفسير العربية غير النسخة الإنجليزية التي هي مرجعك الأهم لتعرف أن المفسرين قد قالوا: إن القرآن بدأ صورة مريم برموز غربية إشعاراً بغرابة ما ستتحدث عنه الصورة.. وإنه تدرّج في

(1) سورة التحريم، الآية: 12.

الغرابة فذكر قصة ميلاد يحيى من أب هرم وأم عاقر أولاً ثم ثنّى بما هو أغرب من ذلك وهو ميلاد عيسى من غير أب.. فما رأيك في هذا التناسق بجوار الهراء الذي تدّعيه؟

وكيف ساغ لك أن تزعم أن القرآن لم يتحدث عن المسيح إلّا بعد أداء رسالته في نهاية العقد الثاني من عمره بعد أن مات أبوه يوسف النجار؟ إذاً ما موضع حديث القرآن عن مجيء الملك ونفخه في فرجها وإجاءها المخاض.. وهمها ساعة الميلاد.. ومناداتها بالطمأنينة ساعتئذٍ وأمرها بهزّ النخلة لتأكل.. ومواجهتها قَومها بالصوم عن الكلام وحديث الطفل في المهد.. وغير ذلك.. هل كان حديث القرآن عن هذا كله حين بدأت رسالته أم قبل وعقب مولده؟

ومن أين أتاك هذا العلم الذي يدّعي أن كل اللغات وخصوصاً العربية تنسب الولد إلى أمه وأن القرآن يدعو عيسى لأمه جرياً على هذه العادة؟ أنا لا أناقشك في اللغات الأخرى التي تـتيح لنفسها أن تنسب الولد إلى أمه لكثرة ما يوجد لديها من لقطاء.. ولكن من قال إن اللغة العربية تنسب الولد الشريف إلى أمه؟ أليس لديك مثال تنقض به القاعدة المعروفة عن العرب أنهم يستحيون من ذكر أسماء النساء في المجالس العامة، وأنه لم يأت في تراثهم أحد منسوباً إلى أمه إلّا لغرض كالهجاء مثلاً.. ألم تسمع هذا الاسم «زياد ابن أبيه» لتعرف أنه حتى حين شكّوا في أبيه لم ينسبوه إلى أمه وإنما قالوا ابن أبيه.. وكيف يدعو

القرآن المرء إلى أمه بلا سبب وهو يقول ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1]؟ وكيف ساغ لك ان تستدل على زواج مريم بما ورد في الإنجيل الذي تقول عنه إنه مليء بالخرافات والتناقض؟.

ومن أين أتيت بهذا اللفظ الجديد لمعنى الزواج فقلت إن القرآن يشير إلى زواجها بقوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾[2] أي يتزوج مريم في مفهومك الثاقب مع أن القرآن قبل هذه الآية بقليل يقول ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾[3] أي وهي طفلة كما فهمت أنت بنفسك ومع أن كتب اللغة تقول: كفلت الصغير كفالة: علته وقمت به. والكافل هو الذي يعول إنساناً وينفق عليه..؟ وكيف يكون هناك سرد متتابع مع أن القرآن في صدر هذه الآية يشير إلى دقة ما يرويه من أنباء الغيب دليلاً على صدق سيدنا محمد. إذ لم يكن حاضراً ساعة إلقاء الأقلام لمعرفة من يكفل مريم الصغيرة ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾[4]. وبمثل هذه الإشارات يثبت القرآن واقعية القصة وثبوتها!! إن الإنسان ليخجل من نفسه وهو يشرح لأمثال النيهوم حقائق القرآن العلمية.. لأن القرآن

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 5.

(2) سورة آل عمران، الآية: 44.

(3) سورة آل عمران، الآية: 37.

(4) سورة آل عمران، الآية: 44.

والعلم لهما حرمة ولهما أهل.. ولكن إما وقد قررنا أننا نتحدث مع القرّاء الكرام فلنتكلم فهم أولى بهذا النور.. ذلك أن النيهوم لا يصدق بالقرآن ولا بما ورد فيه صريحاً وواضحاً.. فها هو يختم حديثه عن عيسى عليه السلام بأنه لم يتكلم في المهد ولم يكن يبرئ الأكمه والأبرص ولم يكن يحيي الموتى بإذن الله ولم يكن يتنبأ بالحوادث قبل وقوعها. لم تحدث أية معجزة من سيدنا عيسى في رأيه هو مهما كرر القرآن ذلك في غير آية منه، إن القرآن يقول ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[1]. هكذا بهذا التفصيل وبحكاية نفس الكلمات التي قالها عيسى وهو في المهد يتحدى بها قومها الثائرين عليها المتهمين إياها!! ويعيد هذا في امتنانه على سيدنا عيسى بقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ﴾[2] ولما بعثه الله إلى بني إسرائيل أعلن: أني

(1) سورة مريم، الآيات: 29 ـ 32.

(2) سورة المائدة، الآية: 110.

رسول الله إليكم بدليل ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] ورغم كل هذا الذي يقرّره القرآن في تأكيد وتكرار فليس له في نظر النيهوم ميزان حيث يقول: «هذا الاقتراح الذي يجرد المسيح من كل صفات المعجزة لا يطابق تماماً تفسيرات معظم العلماء المسلمين فالواقع أن أكثر التفسيرات قبولاً بين العلماء أن المسيح جاء بمعجزات خارقة منها أنه تكلم في المهد وأنه كان يحيي الموتى ويبرئ المرضى وأنه كان يتنبأ بالحوادث قبل وقوعها وأنا أعرف أن هذا التفسير مستخلص من النص القرآني بطريقة ما، وأعرف أن الحدود اللفظية الواسعة في ذلك النص تستطيع أن تسنده ولكني لا أعتقد أنه تفسير كامل من جميع جوانبه والذي ثبت أن الإنجيل لا يملك دليلاً واحداً أن عيسى المسيح قد صنع أياً من تلك المعجزات».

هكذا بهذه المغالطة وبهذا التبجح وبذلك القياس!!

وصدق رسول الله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت». إنه يدّعي أن التفسيرات هي التي تقول ذلك لا القرآن بنصه وفصه وألفاظه ويستدل على دعواه بأن الإنجيل لا يملك

(1) سورة آل عمران، الآية: 49.

دليلاً على ذلك.. وما دام الإنجيل لم يتحدث به فهو كذب فالإنجيل هو المعتمد عنده ولو قال عنه فيما سبق إنه مشحون بالخرافات.. والنتيجة الحتمية أنه ما دام في الإنجيل خرافات وما دام هو المقياس لتفسير القرآن بمعنى أن ما ليس في الإنجيل فهو كذب من القرآن فليس هناك قرآن صادق معتمد كما ليس هناك إنجيل وليس هناك أديان بالكلية وهذا ما يرمي إليه اليهوم في واقع الأمر وإلّا فيبقى السؤال قائماً، ما هو الهدف من نشر تلك الأباطيل؟ هل هناك شيء يريد أن يصرّح به ولا يجد الجرأة فاتجه إلى الإسلام ليفرغ شحنات ثورته ظاناً أنه ميدان خالٍ لا يستطيع أحد فيه أن يقف أمامه ويردعه؟ أم هو حب الشهرة والظهور؟ أم ماذا يريد؟ لقد صدق في قوله إنه لم يقصد إلى هدف واحد!! نعم فقد يكون لديه عدة أهداف نترك المجال للقرّاء الأفاضل ليدركوها وليحكموا على ما قاله وما يقصده من وراء هذا القول.. ولهم الحرية في أن يضعوه هم في مكانه الذي يليق به مع المنحرفين الضالين المضلين الذين ينخرون في عظام الأمة وقد كانت تود منهم أن يسهموا في رفعة شأنها ولكن:

(وابناء تخذتهمو سهاما
فكانوها ولكن في فؤادي)

اتقوا اللّه فينا يا ناس

محمد حمدان المصراتي(*)

كل لسان في وسعه أن ينطق.. وكل إنسان في مقدوره أن يتحدث عن نفسه بشتى الادعاءات، في استطاعة الإنسان أن يكون النجم اللامع في سماء الصحافة، ويقول أنا أكبر كاتب وأكبر أديب وأعظم فيلسوف. إن الادعاء من الإنسان الذي سيطرت عليه الأنانية وحب الذات والسعي بكل وسيلة لاكتساب الشهرة لا يستحي أن يقول كل شيء ولو كذبه جميع البشر لأنه خلع ثوب الحياء، فلا واللّه ما في الدين خير، ولا الدنيا إذا ذهب الحياء.

إن الذين لا يميزون في الوصول إلى أهدافهم بين الطرق الشريفة وغير الشريفة أو بمنطق أدق: إن الغايات عندهم تبرر الوسائل، لا يُستغرب منهم أي قول أو رأي ولو كان ذلك مخالفاً لما عليه سكان الأرض جميعاً، المهم

(*) شاعر ليبي، ولد في مصراته عام 1936، وتلقّى تعليمه الديني بها، وعمل خطيباً في مساجدها، نشر مقالاته وشعره في العديد من الصحف والمجلات الليبية. توفي 13/ 12/ 2002.

عندهم أن يصبحوا على كل لسان ولو كان السبّ والشتم والتكفير، فهم ليستهينون بكل ذلك في سبيل ظهورهم على المسرح، يقولون كل شيء ويكتبون كل شيء.. ليقال من ذا قالها.. ومن ذا كتبها، ولأسهمهم ـ إن خطأ أو كفراً ـ ما يقولون ويكتبون.. ولو كان يناهض ويهدم العقائد ويقوّض أركان الدين فهم بقية طوابير ملحدة، ونفر من بقية فرق مفسرة.. يخرجون على المسلمين بين فينة وأخرى بفلسفات جديدة واهية تغاير ما عليه جمهور المسلمين غير مبالين بحرج شعورهم وهدم معتقداتهم وإهانة مقدساتهم.

إن الموضة الجديدة التي أصبحت نهجاً لبعض الصحف الليبية، أو لبعض كتّابها، هي مهاجمة العقائد والمبادئ الإسلامية، أو محاولة إدخال بعض التعديلات عليها، مدعين حرية البحث والتنقيب، وليتهم يملكون الاستعداد الكافي للبحث والتنقيب، إذاً لهللنا وكبّرنا للمجتهدين الجدد، ولكنهم كما قال الشاعر:

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

إن هناك مسائل تظهر لبعض ضعفاء العقيدة والثقافة، أن فيها رأياً أو قولاً، ولم يدروا أن فلاسفة الإسلام وعلمائه قد فرغوا من مناقشتها، وتلمس كل دقائقها بما أوتوا من قوة البصر ونفاذ البصيرة ولم يعد فيها طرف يقبل المناقشة أو التخمين.

ولئن جاء البعض اليوم يشككون في صحة مريم العذراء، أو يناقشون قضية القضاء والقدر، أو يشيعون بأن علماء الدين حائرون في قضايا عجزوا عن الإجابة عليها بالعقل والمنطق.. إنما عجز هؤلاء إثبات وجودهم في الوسط العلمي بأفكار نيرة، وآراء بنّاءة ومقترحات مفيدة، وإلّا لما نهجوا نهجاً يمس شعور جماهير المسلمين، ويبلبل أفكار أنصاف المتعلمين، ولكني متأكد أنهم سيكونون:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها
فلم يضرها واوهى قرنه الوعل

ولا أعتقد أن صحيفة تريد الاحتفاظ بمكانة شعبية مرموقة تسعى لإثارة جماهيرها المسلمة بنشر سخافات تجرح الشعور وتبلبل الأفكار، والأولى بهذه الصحيفة أن تنتقي نخبة من الكتّاب المؤمنين بدينهم المخلصين لأمتهم المسلمة خاصة وأننا الآن في مرحلة خطيرة لسنا في صدد مناقشات لا طائل من ورائها.

إن المرحلة التي نمرّ بها جميعاً في مستوى مسؤولياتنا التاريخية لا نشغل بالنا وأقلامنا بتفاهات لا تسمح ظروفنا الآن بالتحدث عنها. وفقنا اللّه جميعاً إلى السبيل الأقوم، واللّه من وراء القصد.

مع القصة القرآنية

محمد المختار محمد المهدي[*]

ثم أطلّت الحية من مرقدها.. وظهر مستغربون جدد يسيرون على نفس النهج الذي سار عليه أساتذتهم المستشرقون المتحاملون على الإسلام، ومما بيّناه فيما سبق، وارتفعت عقيرتهم بنغمة جديدة هي في روحها وما ترمي إليه نفس الفكرة التي بدأها (مرجليوت) سنة 1925.. وتبناها تلامذة له في الشرق أرادوا الشهرة بأي ثمن ولو كان على حساب دينهم وعقيدتهم فاستعلن للناس من يسمي القصة القرآنية عملاً رمزياً يعتمد على أساطير كانت سائدة لدى جمهرة العرب حين نزول القرآن!!

هكذا بهذه الوقاحة التي تردد ما قاله كفار مكة حسبما يشرحه القرآن نفسه في غير آية: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1]. والغريب أن

(*) انظر التعريف به في ص 139 من الكتاب. وقد نشر هذه المقالة بمجلة الهدى الإسلامي، العدد (3) السنة (6)، نوفمبر/تشرين الثاني 1967.

نفس الشبهات المسوقة لتعضيد هذه الفرية هي نفسها التي ساقها من قبل من قال بوجود القصة الخيالية في القرآن.. (والتي فنّدناها في الحلقة السابقة)، ولكن الغرابة تخف بينما نعلم أن الهدف لكليهما واحد: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(1). ذلك أن الرمز يعني لغوياً: الإشارة والإيماء.. وفي اصطلاح النقاد والأدباء يعني التعبير عن الحقيقة عن طريق الإيحاء بها حيث يكون له ظاهر وباطن.. معنى جلي ومعنى خفي، ويقصد منه التحدث عن فكرة مقنعة من وراء حكاية يقبلها الجمهور ويعتمد فيه على تراسل المشاعر وعلى الإيحاءات النفسية الغامضة، والرامز عادة لا يضطره إلى هذا النوع إلّا الخوف من التصريح بأن يكون الهدف المقصود جرحاً لمشاعر من في أيديهم السلطة أو نقداً لاذعاً لأوضاع لا تروق له في نظر الأديب ويرى التصريح به خطراً عليه، ولذلك لا تكاد ترى هذا النوع الرمزي إلّا في عصور اضطهاد وكبت للحريات إذ يستطيع الأدباء أن يفرغوا ما لديهم من آراء في هذا الأسلوب الخفي الغامض.. كما حدث في عصر النهضة الأوروبية الحديثة حينما شعّ نور العلم على أوروبا ووقفت في طريقه السلطة والكنيسة!

وهذه المبررات والدوافع لظهور هذا الفن الجديد في الأدب الحديث لم تكن بحال من الأحوال قائمة حين نزول

(1) سورة الفرقان، الآية: 5.

القرآن.. بل إن حقيقة المسألة أن هناك خلافاً جوهرياً في النظرة إلى هذا القرآن.. فهؤلاء المستشرقون والمستغربون ينظرون إليه على أنه عمل بشري يخضع لمقاييس البشر ويعتمد على الأساطير السائدة ويستغلها في التعبير عما يريد.. تماماً كما يتصرفون هم، إذ إنه لو كان لديهم يقين بأن هذا القرآن من عند اللّٰه لما تطرق إلى ذهنهم أنه استعمل الرمز إذ لا قوة أكبر من قوة اللّٰه تدعوه لأن يتستر تحت الرمز في التعبير عما يريد.

لقد تحدى دولة الفرس في عنفوانها مقرّراً أنها ستهزم في بضع سنين أمام الروم ـ والقرآن الذي يصرّح بهذا بدون رمز أو تخفٍ أو مواربة لا يستطيع أحد أن يقول إنه استعمل الرمز بهذا المعنى الحديث إذ ما كان هناك موقف أدعى للرمز والتخفي من هذا الموقف، ثم ما معنى أن القرآن يستغل الأساطير السائدة سوى أن به خداعاً وكذباً وتمويهاً على البشر، وهذه نقطة التلاقي بين من يقول بالرمز ومن يقول بالخيال، وقد يقول قائل إنه لم يستعمل الرمز خوفاً من أحد ولكن مراعاة لمعارف عصره ومعلومات العالم التاريخية حينذاك.

ولكننا نتساءل: إذا كان ذلك مقصداً للقرآن فلماذا تحدث عن السموات السبع والأرض السبع وكيف كانت قبل تكوينها؟ بل لماذا تحدث عن جنة عرضها السموات والأرض؟ لماذا ورد فيه كثير من الآيات تشير إلى حقائق

ضخمة كان مدى علم الإنسان عنها محدوداً للغاية إلى أن كشفت عنها الأحداث المستقبلة؟ وهل هناك قصة في القرآن لا تتجاوز معلومات العالم التاريخية في عصر النبي من حيث الدقة في الرواية والصدق في الحديث والعبرة من الأحداث؟ ..﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[1].

من هذا كله نستطيع أن نجزم بأن القرآن الكريم لم يعتمد في قصصه على الرمز بمعناه الحديث مطلقاً، ولكن هناك في القرآن وفي قصص القرآن بالذات، لمحات وأغراض وأهداف تُفهم من سياق القصة ويدركها العلماء الراسخون من أسرار الألفاظ العربية، ومن المقارنات بين المواقف المتشابهة والمختلفة.. وكلما تعمق العلماء في معرفة أسرار هذه اللغة تبيّن لهم معانٍ جديدة، وسيظل العلماء يمتحون من آيات القرآن الكريم معانٍ جديدة.. وأهدافاً بعيدة، ولكن هذه المعاني والأهداف إنما تُدرك في حدود الدلالات المعروفة للألفاظ العربية دون تمحل ولا تحريف.. بهذا يمكن أن يقال إن هناك رمزاً في القرآن ولكن بمعناه اللغوي الإشاري فقط. فقد نأخذ من القصة الواحدة عدة أغراض إذ كل حرف في القصة يؤدي وظيفة خاصة سواء من ناحية الفن أو من ناحية الغرض.

---

(1) سورة البقرة، الآية: 116.

وهنا أجدني مضطراً أن أعرض بعض هذه الأغراض التي يمكن استنتاجها والوقوف عليها من القصص القرآني جملة.. فمثلاً نرى فيه تصوير الطبيعة الإنسانية على ما هي عليه.. بغرائزها في تساميها وتسفّلها، هادفاً بذلك إلى تهذيبها وإقامة توازن واتساق بين ما لدى الإنسان من رغبات حيوانية وما لديه من سبحات روحية:

1 ـ هذه غريزة (حب البقاء) تصورها القصة القرآنية أصدق تصوير بحيث تجعلها سبباً في نسيان آدم لأمر ربه، فإن إبليس لم يستطع إغواءه إلّا بالتلويح له بتحقيق هدفين: الخلود والسيطرة الدائمة: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾﴾[1]، بسبب هذين ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[2]، وكانت النتيجة لهذا الحرص عليها الفضيحة أولاً: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[3]، وطردهما من هذا النعيم في الجنة ثانياً: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[4].

هذه النتيجة نفسها تتجلّى في بني إسرائيل الذين حرصوا على الحياة أيّاً كانت هذه الحياة، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ

(1) سورة هود، الآية: 49.
(2) سورة طه، الآية: 120.
(3) سورة طه، الآية: 121.
(4) سورة الأعراف، الآية: 22.

﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[1]، وفضّلوا الجبن والخور على الجهاد والبذل والاقدام مع نبيهم موسى عليه السلام فكانت العاقبة أن ضرب اللّه عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من اللّه وحرموا من دخول الأرض المقدسة وفُرضت عليهم حياة التيه: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2] ـ هذه نتيجة الحرص على الحياة، أما من يستهين بها أمام عقيدته فتصوره القصة القرآنية في موقف سحرة فرعون ساعة أن دلف الإيمان إلى قلوبهم يهددهم الطاغية الجبار: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[3] فيقولون له بكل إيمان: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾[4]. فماذا كانت العاقبة؟

إنها النصر المبين، وإغراق الكافرين وانفلاق البحر العظيم ومرورهم منه سالمين: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾[5].

وهؤلاء صحابة رسول اللّه في غزوة (الأحزاب) يقفون

---

(1) سورة طه، الآية: 123.
(2) سورة البقرة، الآية: 96.
(3) سورة المائدة، الآية: 26.
(4) سورة طه، الآية: 71.
(5) سورة طه، الآية: 72.

حاملين أرواحهم في أكفهم فمنهم من بذلها ومنهم من ينتظر الأوان: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾[1].. فماذا كانت نتيجة هذه الروح الباسلة؟ إنها السلامة والنجاة والنصر: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾[2].

وهؤلاء أيضاً جرحى (أحد)[3] يقفون في (حمراء الأسد)[4] ويمرّ عليهم بعض الناس يخوفونهم بأن قريشاً قد جمعت جموعها للقائكم فما يزدادون إلّا رسوخاً وثباتاً: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[5]، وتكون النتيجة السلامة والنجاة كذلك: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[6]. وكأن القصة القرآنية تريد أن تعمّق في نفس المؤمن تلك الحكمة الصادقة: (احرص على الموت توهب لك الحياة).

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 66.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 23.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 25.
(4) جبل بالقرب من المدينة تُنسب إليه المعركة التي نشبت بين المسلمين الأوائل والمشركين من قريش في العام الثالث للهجرة.
(5) موضع تاريخي بالقرب من المدينة اشتهر في التاريخ الإسلامي بأن الرسول ﷺ خرج إليه في اليوم التالي لمعركة أحد حتى لا تظن قريش أن المعركة أضعفت من عزيمة المسلمين.
(6) سورة آل عمران، الآية: 173.

2 ـ أما غريزة الجنس فتصورها قصة (يوسف) وامرأة العزيز في تسفلها مع طبقة الأسياد المترفين، وتساميها في نفوس الأنبياء المصطفين الأخيار ومن ينسج على منوالهم. هذا يوسف الخادم تعشقه سيدته، فليكن خادماً.. لكنه جميل، وإذاً فالجمال هو الفيصل في هذا الميل، وتهيئ امرأة العزيز كل شيء.. حتى نفسها ـ حتى ملابسها الشفافة ـ وجسمها المعطر.. والمكان الهادئ الوثير، والحجرة الملائمة المسترة، ثم تدعو خادمها في نبرة تنزّ حناناً وهياماً ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[1]. إن كل هذه الاستعدادات من أجلك.. من أجلك أنت! إنك لست خادماً الآن.. لك القصر بما فيه.. لك كل شيء تراه. والمطلوب منك فقط أن ترضي هذا الطيش، وتتصارع الفضيلة والرذيلة كعادتها دائماً. ويقف يوسف ذو الذيل الطاهر في محنة قاسية. إنه شاب حقاً، إن غريزته تثور، إن شبابه يحترق، ولكنه مؤمن، لكنه يرى الله.. لكنه في مستوى عالٍ رفيع بعيداً عن الرجس وعن الشبهات، وهنا ينطلق هذا الصوت المؤمن الغضوب ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[2].

وهكذا انتصرت الفضيلة في أحرج دقيقة، وتأتي النتيجة المقررة لهذا الجانب: الخزي والعار لامرأة العزيز وهي تعترف: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ

(1) سورة آل عمران، الآية: 174.

(2) سورة يوسف، الآية: 23.

﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، والشرف والطهر ليوسف العفيف وهو يشمخ بأنفه قائلاً في اعتزاز: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. صدق الله العظيم.

(1) سورة يوسف، الآية: 23.
(2) سورة يوسف، الآية: 51.

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم..)

محمود الناكوع[*]

نشرت صحيفة الرائد في عددها الصادر يوم الجمعة 14/ 3/ 1969 تحقيقاً صحفياً أعدّه الزميل محمود الهتكي مع (صادق النيهوم) وكان موضوع التحقيق حول ما أسماه النيهوم (الرمز في القرآن) ثم دار الحديث حول معجزة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

وقبل أن أناقش كلام صادق النيهوم أريد أن ألفت انتباه محمود الهتكي إلى بعض الأخطاء التي وقع فيها عندما وصف (النيهوم) أنه مجتهد.

---

(1) سورة يوسف، الآيتان: 55 ـ 56.

(*) محمود محمد الناكوع: كاتب وصحفي ليبي، ولد في الزنتان عام 1939، وتخرّج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، الجامعة الليبية عام 1963. عمل في الإذاعة الليبية، ونشر مقالاته في الصحف المحلية والعربية. وكان أول من قام بالرد على النيهوم في حواره مع الهتكي، ونشره في صحيفة العلم، طرابلس في مارس/آذار 1969. من مؤلفاته: (مواقف فكرية) و(أقباس على طريق الشباب).. (مقالات من لندن) و(رحلتي مع الناس والأفكار).. وغيرها.

أولاً أنه لا اجتهاد في النص.. ومعجزة عيسى واضحة في نص القرآن، وأن ميلاده كان معجزة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[1].

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[3] فما هو رأي (صادق النيهوم) في هذه الآيات..؟ أليست واضحة؟

هذه هي النصوص واضحة جلية يدرك معانيها كل إنسان له بعض حظ في فهم اللغة العربية، ثم أريد أن أسأل الأخ محمود، ما هي مؤهلات الاجتهاد لدى (صادق النيهوم) حتى تقدمه للقراء كمجتهد.. وسؤال آخر: متى أصبح حضور مؤتمر الأدباء والكتاب الليبيين مؤهلاً حتى تقدّم به الناس؟

ثم جاء في أسئلة الزميل الهتكي قوله: (هل ترفض فكرة غالبية المفسرين عن عيسى التي تقول إنه ولد بدون أب؟) والسؤال يعني أن بعض المفسرين ولو قلّة يخالفون الأغلبية.

(1) سورة آل عمران، الآية: 59.
(2) سورة آل عمران، الآية: 47.
(3) سورة مريم، الآيات: 20 ـ 21.

فهل يستطيع الأخ محمود أن يدّلنا على أي مفسر ولو واحد أنكر معجزة عيسى؟ والذي أعلمه أن جميع المفسرين للقرآن الكريم من المسلمين يؤمنون بأن ميلاد عيسى ابن مريم كان معجزة وسيظل معجزة.

إلى هنا تقف ملاحظاتي الخاصة لمحمود الذي استطاع ببعض أسئلته أن يضع (صادق النيهوم) في تناقض عجيب أظهره بأنه مفلس لغة وفكراً. ولنبدأ الآن في مناقشة آراء (صادق النيهوم).

وتكون بدايتنا من نهاية ما جاء في المقابلة الصحفية، هو يقول: (أنا إنسان نصف ميت.. لأنني بعثت من موتي القديم بينكم، وعجزت عن الشعور بالحياة مع الآخرين)، تأمل معي ماذا يعني هذا الكلام إنه إنسان نصف ميت.. هو لم يقل أنا إنسان نصفه ميت.. بل قال نصف ميت، والميت من لا حياة ولا نفس فيه، فكيف يجوز له أن يتحدث عن القرآن والمعجزات، أليس هذا عين الفساد في التعبير، وإنسان هذا أسلوبه كيف يستطيع أن يفهم أساليب التعبير في القرآن؟ وكيف بعث من موته القديم بيننا؟

اعذرني يا (صادق) أنا لا أفهم هذا الكلام وربما لأنك تدرس فقه اللغة في هلسنكي.. وربما أن تفقهك في اللغة هو الذي أفقدك القدرة على التعبير السهل الواضح.

إن أي رأي يتضح تناقضه يصبح لا قيمة له، ويدل دلالة بينة عن جهل صاحبه بحقائق العلوم والأفكار، ولقد

تناقض صادق النيهوم تناقضاً عجيباً عندما أراد أن يقدِّم لنا (نظريته الجديدة، الرمز في القرآن)، وأراد أن يؤكد لأتباع الإسلام أن عيسىﷺ ولد من أبوين عاديين ـ خلافاً لما جاء في القرآن ـ وذلك التناقض يتضح في إجابته على ثلاثة أسئلة متوالية وهي:

1 ـ ماذا تريد أن تقول عن عيسى المسيح بالضبط؟

2 ـ هل تعني أن المسيح ولد من أبوين عاديين؟

3 ـ هل ترفض فكرة غالبية المفسرين عن عيسى التي تقول إنه وُلد بدون أب؟

وكانت الإجابة بالترتيب كالآتي مع الاختصار:

1 ـ (أريد أن أقول إنه نبي كريم، وإن فكرة المفسرين عنه تتفق تماماً مع قيمة الفكر التجريدي المتزن).

2 ـ (أجل أعني ذلك بالضبط، وأعني أنه كان له إخوة وأخوات كما ورد في المصادر التاريخية).

3 ـ (أنا لا أملك دليلاً ملموساً لإثبات منطقة الخطأ).

لقد قال مرة إن المسيح ولد من أبوين عاديين، وناقض نفسه في المرة الأخرى وقال لا أملك الدليل.. ثم هو يشير إلى مصادر تاريخية ثم لا يذكر هذه المصادر وهل هي إسلامية أم مسيحية أم يهودية أم من القبور بعثت معه؟

أيها السادة القراء، أنا لا أستطيع أن أتحمل

الاستمرار في مناقشة ذلك الخلط العجيب الذي جاء في كلام (الصادق النيهوم) لأنه كلام لا يقوم على أسس علمية وحتى المستشرقين الذين حاولوا خلال عشرات القرون أن يطعنوا في القرآن لم يأتوا بمثل هذا الخلط العجيب، وتلك الأفكار السقيمة.

وها أنا أطرح بعض الأسئلة لكي أوضح العبث الذي جاء في كلام النيهوم. هو يقول: (إن كلمة «يكفل» يمكن لغوياً أن تعني يتزوج).. في أي قاموس وجد النيهوم أن كلمة يكفل تعني يتزوج، وإذا كان متأكداً فلماذا يقول يمكن، ولماذا لا يجعلها مطلقة؟ أم إنه التخمين والظن؟

وبعد، فإن هذا الرد القصير لا يُقصد به الدفاع عن القرآن أو الدفاع عن الإسلام، كما لا يُقصد به تكفير (صادق النيهوم).. فالقرآن قد تكفل الله بحفظه، وقد مضى على نزول القرآن أكثر من 1400 عام، ورغم كل ما فعله المبشرون، والمستشرقون، واليهود لم يستطع إنسان واحد أن يكتشف كيفية إفساد كتاب الله المعجز.. وصادق النيهوم هذا قد ولد بأرض ليبيا وقد تعلم بمدارسها الابتدائية والثانوية والجامعة الليبية، ورغم أن البعض وصفه بالكفر.. والبعض الآخر وصفه بالإلحاد، وآخرون وصفوه بالمعقد. رغم كل ذلك فأنا لا أسمح لنفسي بأن أكرر هذه النعوت، لأنني أحب ألّا أنسى قول الله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ

وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء.

وأنا أدعو صادق أن يعيد قراءة القرآن عدة مرات، وليبدأ من:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[2].

(1) سورة النحل، الآية: 125.

(2) سورة البقرة، الآيات: 1 ـ 10.

كتب اللغة على تعدّد مصادرها
ترفض تفسير الكفالة بالزواج

أحمد راغب الحصائري[*].

قال كاتب التحقيق في المقدمة[1]: (من اجتهد وأصاب فله أجران.. ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد)، وهذا القول ينصب على الاجتهاد في المسائل الظنية وبخاصة في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية لا في مبادئ العقيدة وحقائق التنزيل وصريح القرآن، فإن مخالفة ذلك عند جمهور المسلمين يُعدّ خروجاً.

ويقول السيد صادق النيهوم إنه أراد بالرمز في القرآن

(*) مثقف وأديب ليبي، ولد في مدينة طرابلس في السنوات الأولى من القرن العشرين وتعلم بها، واهتمّ بمتابعة القضايا الثقافية والفكرية، واشتغل في الإذاعة والمطبوعات، ونشر مقالاته في العديد من الصحف والمجلات الليبية. اختير وزيراً في حكومات ليبية متعاقبة، وتولى إدارة معرض طرابلس الدولي عدة سنوات.

(1) يقصد محمود الهتكي في حواره الصحفي مع صادق النيهوم. صحيفة الرائد مارس/آذار 1969، وقد نشر ردّه في الصحيفة ذاتها.

المفهوم الذي حدده برقم (3) من شرحه لأنواع الرمز وهو إيجاد الطريقة المثلى للتعبير عن فكرة أكثر تعقيداً مما تحتمله اللغة العادية.

ونحن معه في هذا الرأي فيما إذا كان المعنى المراد التعبير عنه معنى يتجاوز طاقة الفهم الإنسانية ويتصل بالعالم العلوي أو ما وراء الطبيعة تمشياً مع آخر الحديث الشريف في نعيم الجنة: (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

وهذه المعاني قد تقصر لغة الإنسان في هذا العالم عن التعبير عن مفهومها الصحيح، أما خلق الإنسان وذكر ولادته من أب وأم فأمره عادي جداً لا تضيق عنه أبسط لغات العالم وأضعفها بله اللغة العربية.

ولذا فإننا جرياً على طريقة السيد النيهوم لا نقرّه على أن اللغة العربية تضيق على التعبير عن كيفية ميلاد المسيح حتى يحتاج الله سبحانه وتعالى ـ على حد تعبيره إلى اللجوء إلى الرمز عنها كما قال النيهوم: (إن العالم يحتاج إلى وحدة الرمز لتغطية العجز البشري في إيجاد أقرب الوسائل لأداء الحقائق عبر الألفاظ).

أما تعبيره بأن المسيح ﷺ كان يزاول صناعة المعجزات فهو تعبير لا يليق بمقام النبوة ويمجّه ذوق الرجل المؤمن. ثم يتدرج صاحب الحديث في استدراج السيد النيهوم إلى انتزاع رأيه في الآيات الخاصة بميلاد المسيح، ومن هنا نرى الأستاذ

النيهوم ينهج طريقة ـ الذي يقول (ولا تقربوا الصلاة) ـ لأن بقية الآيات التي استدلّ بها مرّ عليها مر الكرام حيث يقول اللّه تعالى في سورة مريم: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]. فما رأي الأستاذ النيهوم؟

ويقول اللّه تعالى عندما جاءت بالسيد المسيح من المكان القصي الذي انتبذته إلى قومها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2]، فما معنى هذا عند الأستاذ النيهوم إذا كان السيد المسيح ولد من أب ولادة عادية كبقية البشر مما يتنافى كلياً مع مفهوم هذه الآيات الواضحة الصريحة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً﴾[3] مخاطباً السيدة مريم لتطمينها.

أما ما ذكره الأستاذ النيهوم أن السيدة مريم بلغت سن الرشد يشير إلى نضجها وأن سيدنا زكريا ﷺ كفلها وفسر هذه الكفالة بالزواج.. فهو ما تأباه كتب اللّه على تعدد مصادرها بقطع النظر عن تهافته الذي ناقض به نفسه حيث قال في مقال سابق[4] إن زوج السيدة مريم ـ على رأيه ـ يوسف النجار.

(1) سورة مريم، الآية: 20.
(2) سورة مريم، الآية: 28.
(3) سورة مريم، الآية: 21.
(4) يقصد سلسلة مقالات النيهوم في دراسة (الرمز في القرآن)، الحقيقة، بنغازي 1967.

ثم يتدرج السيد النيهوم في حديثه إلى الإفصاح عن رأيه في معجزات سيدنا عيسى، ونراه هنا يحوم في متاهة من المفاهيم الغريبة التي لا تصمد للجدال أو المناقشة، ومن أمثلة ذلك قوله إن شفاء الأكمه والأبرص رمز للإنسان الأعمى في الجهالة، فإن سلّمنا جدلاً أن هذا المفهوم ينطبق على الشق الأول ـ الأكمه ـ فما رأيه في الشق الثاني ـ الأبرص ـ .

هذا ونضرب صفحاً عن ادعاءاته وآرائه في السماوات، وأن عقولنا لم تخلق عبثاً، وإيمانه بالإنسان لأنه لا يتصل بموضوع السيد المسيح وله مجالات أخرى قد تخرج صحيفة الرائد عن رسالتها.

وأخيراً، نسأل الله أن يلهمنا الصواب ويرزقنا حسن فهم كتابه العزيز، ويبصرنا سبل الرشاد، ويرجع إلى حظيرتنا الثقافية أخاً مسلماً عزيزاً علينا حتى يكون أداة بناء ووسيلة إصلاح تُسهم في نشر الوعي والفكر الإسلامي والذود عن القيم الروحية والثقافية بدل نبش المفاهيم الخاطئة ونشرها. إنه سميع مجيب.

(1)
بداية مناقشة

إبراهيم بشير الغويل[*]

الحق أقول لكم، إنه كان من الضروري لصورة من قريب[1] أن تكون صادقة ـ وخاصة مع «الصادق»، فأنا لا أعتب عليك ـ يا أخ محمود[2] ـ أن تنقل ما يعنّ لمن ترسم له ـ صورة من قريب ـ من أفكار، تكملة للصورة، بل إبرازاً

(*) مثقف ومحام ليبي، ولد في طرابلس عام 1935، وتعلّم بها حتى المرحلة الثانوية، ثم واصل دراسته في مصر، وتخرج في كلية الحقوق. وافتتح مكتباً للمحاماة في طرابلس ونشط في العمل الفكري والاجتماعي، واختير سفيراً في وزارة الخارجية عام 1968، ونشر مقالاته في العديد من الصحف الليبية، وشارك في كثير من المؤتمرات والندوات. له من المؤلفات: معالجة الإسلام لمشكلات الاقتصاد، الأصل الإباحة والتحريم استثناء، الطريق الثالث، ضلالات فئ حول كبرى اليقينيات.. وغيرها، وقد نشر ردوده على مدى حلقات في صحيفة الرائد خلال مارس ـ ابريل/آذار ـ نيسان 1969.

(1) عنوان الباب الأسبوعي الذي كان يعدّه ويحرره محمود الهتكي في صحيفة الرائد بطرابلس.

(2) يقصد محمود الهتكي.

لأوضح معالمها.. ألا وهو العقل الذي كرّم الله به الإنسان وميّزه به كما يتمايز ويتميز به.

وبهذه المناسبة فيهمني أن نتفق من البداية أنه ليس فيما أكتب ملاحظاً، أي إنكار للحق الطبيعي للحي في أن يفكر ويقول: «وإنه لحق عرفنا الإسلام يقرره ويحميه»، فلو لم يبق في هذا البلد أو غيره أحد يقول إنه حق لقلت وحدي ـ وبتعبير شيخ الأمناء[1] ـ وأنا أقذف في النار، إنه حق حق، لأبرأ أمام ضميري، ولا أشارك في وصم الإسلام اليوم هذه الوصمة.

كما أنني أود أن أقرّر ـ وأن نتفق إن أمكن ـ أن رجلاً يقول: ـ بالتأكيد أؤمن بالله كما يؤمن به الآخرون ـ ويقول: لست كافراً أيضاً ـ وهو بلا شك يؤمن برسول الله ودينه الإسلام وكتابه القرآن، وأنه إنما يفهم في القرآن السماوي فهماً ما.. بل يفهم في متشابهه فهماً ما. إن رجلاً كهذا.. بصدقه هذا، (إنني قد أكون مخطئاً).. (وقد كان بودي أن أجد

---

(1) لقب أطلق على الشيخ أمين الخولي (1985 ـ 1966)، المولود بأشمون في المنوفية بمصر، وهو أديب، وباحث لغوي ومفسر، ومن أعضاء المجمع اللغوي في مصر. ويعتبره النقاد أحد رواد المدرسة الحديثة في التفسير ورائد التجديد في الدراسات القرآنية. تعلم بالأزهر، واشتغل في السفارة المصرية في روما وبرلين، وتزوج من تلميذته عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، من مؤلفاته: البلاغة العربية، المجددون في الإسلام، مشكلات حياتنا اللغوية، الأزهر في القرن العشرين.

الهداية، وأجد النقاش المتزن) لا بدّ له من نقاش متزن وأقصى ما يسمح به معه أن يقال له أخطأت أو أسرفت.. أو.. أو..، أما أن يقال له ـ قبل أي تحرٍ، أو تثبت ـ كفرت فلا.

بعد هذا أود أن أناقش بعض وجهات النظر الغريبة التي جاءت في الصورة من قريب مع الأخ الصادق النيهوم، وإذا سمح لي الأخ الصادق أن نبدأ النقاش بالمنهج الذي اتبع ثم نثني بالمثل الذي ضرب وننتهي إلى تحقيق دلالات الألفاظ ومعانيها لننتهي لما نرجو أن يكون الحق وأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.

* المنهج:

إنني من الذين يلذّ لهم المنهج الأدبي في فهم القرآن وتفسيره، وإنني شخصياً أكاد أعتبر أن منهج الأصوليين في البحث والمقدمات اللغوية ودلالات الألفاظ تمهيداً لفهم النصوص واستخراج الأحكام إنما هو صورة من صور المنهج الأدبي الذي يعتمد فقه اللغة في فهم النصوص بعد تجميعها وترتيبها تمهيداً لاستخلاص الحقائق وتوضيح ما تشتمل عليه النصوص من أفكار.

وكان من الممكن أن ينظر إلى الرمز باعتباره جانباً من هذا المنهج، فهو يلتقي معه في الاهتمام بالناحية الجمالية كما يلتقي معه لاهتمامه بمدّ اللغة بقدرات جديدة وهو ـ أي الرمز ـ بالأخير طريقة تعبير من الطرق التي تيحها أداة التعبير الأصلية وهي اللغة.

أما أن يضخّم الاهتمام بالرمز لدرجة أن يلوّن نظرتنا ويجعلنا كأصحاب الأفكار الثابتة أو مرضى الإرادة المصابين بالعناد (!) والذين هم على استعداد ألّا ينسوا وهم يموتون غرقى أن يرفعوا إصبعين من أصابعهم رمزاً لإصرارهم وعنادهم على أن البطيخ إنما يقطع بالمقص لا بالسكين. إن هذا هو الخطأ بعينه، وهذا هو ما يجرّ إلى أن نتأوّل ما ليس في حاجة إلى التأويل، وأن نعتبر التعبير اللغوي العادي متشابهاً في حاجة إلى تفسير، وأن نعد الفكرة الواضحة فكراً لا تحتمل اللغة العادية التعبير عنها.

* وضرب مثلاً:

والمثل الذي ضربه الأخ الصادق النيهوم بعد ذلك، والذي ظنّ أنه وجده في حياة المسيح عيسى ابن مريم يقدّم الدليل على أن الذي يدرس القرآن لا ينبغي له أن يلوّنه أو يفرض آراءه ومعتقداته عليه، إذ إن الذي يفعل هذا لا يمكنه أن يفهم القرآن فهماً سديداً قائماً على أسس سليمة من الدرس والفهم أو تحديد المعنى التحديد المستمد من الألفاظ القرآنية بل إنني أكاد أقول المطلوب من وراء الألفاظ القرآنية من معنى وغيره. وقبل أن نسترسل في النقاش أود أن ألاحظ أن الوحدة القصصية في القرآن الكريم لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الرسل والأنبياءﷺ، وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من اجتماعية

وخلقية، وعليه يحق لي أن ألاحظ مع الدكتور خلف الله[1] - بحق - أن القرآن لم يقصد إلى التاريخ من حيث هو تاريخ إلّا في النادر الذي لا حكم له. وأنه على العكس من ذلك عمد إلى إبهام مقومات التاريخ من زمان ومكان.

ومن هنا تبينت أن القوم قد عكسوا القضية[2] حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ وهي غير مقصودة، وأهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني، ولو أنهم شغلوا أنفسهم بتلك المقاصد الحقة لأراحوا أنفسهم من عناء كبير، ولأبرزوا الجوانب الدينية والاجتماعية من القصص القرآني إبرازاً ملموساً يهزّ المشاعر والعواطف ويؤثر في العقول والقلوب. وعند ذلك كانوا يمكّنون للدين وقضاياه ويسيرون وهدى القرآن الكريم.

---

(1) د. محمد خلف الله، الذي تقدم لنيل درجة الدكتوراه عام 1947، عن أطروحته (الفن القصصي في القرآن الكريم) في جامعة فؤاد (القاهرة لاحقاً) وأثار الموضوع ضجة حينها. وقد نشرت الرسالة ضمن إصدارات دار الانتشار العربي، بيروت 2001. عمل عميداً لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ورئيساً لقسم اللغة العربية بها. حضر إلى بنغازي صيف 1956، للإشراف على امتحانات السنة الأولى بكلية الآداب وألقى محاضرة عامة خلال الزيارة عن (حقوق الإنسان في الإسلام).

(2) يقصد مناقشات الموضوع التي بدأت حول دراسة النيهوم وحواراته.

*** القصة القرآنية:**

والقصة القرآنية وإن لم تسعفنا بها دراسات الأقدمين إسعافاً كاملاً، إلّا أنه لنا أن نجد في مسائل التوسع واللزوم والتمثيل بعض العون، فإن المسألة الأولى يمكن الاعتماد عليها في شرح وتفسير عنصر الحوار الفني، والثانية يمكن الاعتماد عليها في الحديث عن الأحداث القصصية وبيان مدى صلتها بالحق والواقع أو بالعرف والخيال، والثالثة يمكن الاعتماد عليها في بيان أن الممثل به لا يلزم أن يكون من الحقائق، فقد يكتفي بالمشهورات المتداولة وبالفرضيات المتخيلة.

كما أن كتب التفسير تقدّم لنا عوناً لا بأس به في حديثها عن قصد القرآن الكريم من قصصه وأهدافه التي يرمي إليها. فإذا ما دفعنا هذه الدراسات نحو أبعادها المتاحة في الدراسات الأدبية والفنية المعاصرة، فإننا سنتحدث عن القصد الأدبي أو الفني من قصص القرآن الكريم، وهل قصد القرآن الكريم في قصصه إلى ما يقصد إليه الأدباء والفنانون من التأثير الوجداني واستثارة العاطفة والخيال إضافة إلى تقديم القيم العقلية وإقامة الدليل والبرهان، فإذا رأينا أن القرآن الكريم إنما هو دعوة إلى سبيل الله، والدعوة تكون بالحكمة ـ أي القيم العقلية ـ والموعظة الحسنة ـ أي التأثير الوجداني واستثارة العاطفة ـ والجدال بالتي هي أحسن وإقامة الدليل والبرهان.

إذا كان الرأي كذلك، وهو كذلك، فإنه من حقنا أن

نتحدث عن أساس فني بلاغي ينظم به القرآن قصصه، فأنت ترى أن القرآن يختار من المواد الأدبية القصصية ما يحقق الغرض ويوفي بالقصد، وأنه يعرض عما عداه من أحداث وأشخاص وتفصيلات ومن هنا لا نستطيع أن نقول بأن هذه القصة ـ أو تلك ـ تقصد إلى تعليم الوقائع والتعريف بالتاريخ، وإن كنا نستطيع أن نقول إنها قصة أدبية نزلت لقصد عاطفي هو التخويف والإنذار (مثلاً).

ولقد فطن إلى هذا الصنيع القصصي من القرآن وعلّله تعليلاً أدبياً أو بلاغياً أو فنياً أمثال ابن الأثير[1] في المثل السائر وصاحب المنار[2] وغيره كثير ذكرهم صاحب (الفن القصصي في القرآن الكريم)[3] تفصيلاً.

وخلاصة ما سبق:

1 ـ إننا لا بأس أن نعمل منهج الدراسة الأدبية في

(1) ضياء الدين ابن الأثير (1163 ـ 1239)، ولد بالموصل وتوفي ببغداد، له مؤلفات في البلاغة والأدب، أشهرها (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر).

(2) الشيخ محمد رشيد رضا (1865 ـ 1935)، عالم معروف من رجال الإصلاح الإسلامي، ولد بالقرب من طرابلس في لبنان، تأثر بأفكار الشيخين: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. أصدر جريدة المنار عام 1898، من آثاره المشهورة: تفسير القرآن الكريم (المنار) وهو ما يُشار إليه بصاحب المنار، نداء للجنس اللطيف، شبهات النصارى وحجج الإسلام.. وغيرها.

(3) د. محمد خلف الله، كما سلف.

القرآن على أننا ـ لا أقل ـ من أن نعامل النص القرآني كما نعامل غيره من النصوص، فنحن ينبغي لنا أن نقف على المواد التي يُراد درسها وأن نجمعها وندرس ما حولها دراسة تبين تاريخ حياتها وتوضح الظواهر العقلية والعاطفية والفنية المحيطة بها، ثم إن علينا أن ندرس هذه المواد تحقيقاً وضبطاً، لننتهي إلى دلالات الألفاظ وفهم النصوص، وهنا لا بد من تفرقة بين نوعين من الفهم، الأول: الحرفي ـ وهو الذي يقوم على دراسة معنى الألفاظ والتراكيب والجمل كما يقوم على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية. وكل تلك أمور تتوقف إلى حدٍ كبير على ثقافة الدارس.. تلك الثقافة التي شرطها بالنسبة لموضوعنا هذا، المفسرون في المفسر، والتي حدّد ميادينها الأصوليون في مقدمات كتبهم. الثاني: الفهم الأدبي ـ وهو ذلك الفهم الذي يقوم على تحديد ما في النص من قيم عقلية وعاطفية وفنية، فنقف على ما في النص من صور وآراء. ونبحث عما خلق هذه الصور وهذه الآراء من أخرى لم يشعر صاحب النص بالحاجة إلى التعبير عنها، أما لأنه كان يفهمها في نفسه، وأما لأن المعاصرين له كانوا يفهمونها عنه.

2 ـ إن كان هذا هو المنهج الذي كنا نرجو أن يعالج به الأخ الصادق موضوعه، فإننا أيضاً كنا نرجو، وقد ضرب مثلاً بقصة من قصص القرآن، أن يلتفت إلى

الوحدة القصصية في القرآن الكريم وكونها لا تدور بحال من الأحوال حول شخصيات الرسل والأنبياء عليهم السلام، وإنما تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على الموضوعات الدينية والأغراض القصصية من اجتماعية وخلقية... إلخ.

ولقد كنا نرجو أن يحاول التعرف إلى الموضوعات والأغراض ـ دع عنك الآراء والأفكار المنشورة كالصورة المبعثرة في العرض القصصي ـ التي تنتهي إليه القصة الواحدة أو تنتهي إليها مجموعة من القصص وردت في سورة واحدة وكان لها مقصد واحد، له أثره في طريقة البناء والتركيب، وفي أسلوب العرض وطريقة توزيع العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وحوار.

وأخيراً، فما كان لباحث أدبي فنان أن تفوته الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها القصة في المجتمع وتخدم بها الحياة والأحياء، هذه الوظيفة التي تؤديها الفنون جميعها ومنها الأدب وتنتهي عند عملية الإيحاء والإفاضة.

* سؤالان:

1 ـ فهل اتبع الأخ الصادق النيهوم المنهج الأدبي كما ينبغي له؟

2 ـ وماذا عن قصة عيسى كما وردت في قصص القرآن الكريم؟

(2)
ثقافة حدّد ميادينها الأصوليون

.. وبعد، فقد آن لنا أن نواصل السير في منهاج رحب غير محدود إلّا أنه سير بمنهج تجميع مواد الدراسة وما حولها. أشار الأخ النيهوم إلى مواد الدراسة في كلمات مقتضبة فقال: إجابة عن ـ أين تبدأ الآيات؟ ـ (في سورة مريم، وسورة آل عمران، وفي بضعة أماكن متفرقة أخرى..؟).

أما على وجه أقرب إلى التفصيل فإليكها:

1 ـ إن اسم عيسى قد ذكر في القرآن الكريم ـ 25 ـ مرة في سورة البقرة ـ آية 87، 136، 253، وفي آل عمران ـ آيات 45، 52، 55، 59، 84، وفي النساء ـ آيات 157، 136، 171، والمائدة ـ آيات 46، 78، 110، 112، 114، 116، والأنعام ـ آية 85 ، ومريم ـ آية 34، والأحزاب ـ آية 7، والشورى ـ آية 13، والزخرف ـ آية 63، والحديد ـ آية 27، والصف ـ آية 6 ـ 14.

2 ـ أما المسيح فقد ذُكرت في القرآن ـ 11 مرة، منها ما ورد في الآية 45 من سورة آل عمران، وفي الآيتين 157، 171 من سورة النساء، يضاف إليهما الآية 172 من سورة النساء أيضاً، كما ورد ذكرها في المائدة ـ آيات 17 (مرتان) 72 (مرتان)، 75، وفي التوبة ـ آيتي 30 ـ 31.

3 ـ أما مريم فقد ذكرت في القرآن ـ 34 مرة، منها ما ورد في آيتي 87، 253 من سورة البقرة السالف الإشارة إليهما في ذكر عيسى ﷺ، كما ورد ذكرها في سورة آل عمران ـ آيات: 36، 37، 42، 43، 44، 45 (السالف الإشارة إليها وقد تكرر ذكرها)، وفي النساء في آية 156، وآيتي 157، 171 السالف الإشارة إليهما، وقد تكرر ذكر مريم في الأخيرة، وفي المائدة ـ آيات: 17 (مرتان)، 46، 72، 75، 78، 110، و112، 114، 116، وفي التوبة ـ آية 31، ومريم ـ آيات: 16، 27، 34، والمؤمنون ـ آية 5، والأحزاب ـ آية 7، والزخرف ـ آية 57، والحديد ـ آية 27، والصف ـ آية 6 ـ 14، والتحريم ـ آية 12.

4 ـ كما ذكرت مريم ابنة عمران في سورة التحريم آية 12.

5 ـ وقد ذكر عمران ـ 3 ـ مرات في القرآن الكريم، مرتان في آل عمران ـ آية 33، 35، والثالثة في سورة التحريم ـ آية 12.

6 ـ أما زكريا فقد ذكر ـ 7 ـ مرات في القرآن الكريم، منها ثلاث مرات في آل عمران، مرتان في آية 37، ومرة في آية 38، كما ذكر في الأنعام ـ آية 85، ومريم ـ آية 2 ـ 7، والأنبياء ـ آية 89.

7 ـ كذلك ورد ذكر يحيى ـ 5 ـ مرات في القرآن

الكريم، وذلك في آل عمران ـ آية 39، والأنعام ـ آية 85، ومريم ـ آية 7 ـ 12، والأنبياء ـ آية 90، وطه ـ آية 20.

أما حول الدراسة فإنه يتصل بتعرف كلمة (يكفل) باعتبارها كلمة عربية قرآنية، كما يعني التعرف إلى الظواهر العقلية والعاطفية والفنية المحيطة بموضوع دراستنا، وكل هذا، مع التعرف لدلالات الألفاظ، ينتهي بنا إلى فهم النصوص على مستويين: المستوى الحرفي الذي يتصل بالمفسرين والأصوليين، والمستوى الأدبي الذي هو ألصق بموضوع الرمز والقصص القرآني.. دلالات الألفاظ، ورغم سهولة أن نكتشف غرابة ما ذهب إليه الأخ النيهوم في نظره لمفردات ذكرها ـ (يكفل) مثلاً، إلّا أننا لن نخفي أن المتأدب الذي يريد متابعة تدرج دلالات الألفاظ وأثرها في هذا المتدرج لن تسعفه معاجمنا، فمن أين لنا بمعجم يتتبع الظواهر النفسية والاجتماعية وغيرها من العوامل الحضارية وأثرها على ألفاظ العربية خلال تلك الحركة الجياشة المتوثبة التي بدأت بنهضة دينية وسياسية وثقافية تداولت مع الأيام إلى عصور الازدهار والانحطاط ومحاولات النهوض...إلخ، وامتدت حتى شملت أمماً مختلفة الألوان والدماء والماضي والحاضر.

وإلى أن نملك قاموساً اشتقاقياً، فتدرج فيه دلالات الألفاظ، وتتمايز فيه المعاني اللغوية على ترتيبها من

المعاني الاصطلاحية على ظهورها.. فلا معدّى للمفسر من النظر في المادة اللغوية للفظ الذي يريد تفسيره لينحي فيها المعاني اللغوية عن غيرها ثم ينظر في تدرج المعاني اللغوية للمادة نظرة ترتبها على الظن الغالب، فتقدم الأسبق الأقدم منها على السابق، حتى يطمئن ـ ما استطاع ـ إلى شيء من ذلك ينتهي منه إلى ترجيح معنى لغوي للكلمة، كان هو المعروف حين سمعتها العرب في آي الكتاب، وإذا ما فرغنا من البحث في معنى اللفظة اللغوي انتقلنا إلى معناها الاستعمالي في القرآن نتبع ورودها فيه كله لنخرج برأي عن استعمالها.

(يكفل) مثلاً.

ـ يكفل من كفل، وكافل بمعنى كاف وهو يكفيه ويكفله بمعنى يعوله وينفق عليه، وتقول: هو كفيل بنفسه وبماله وكفل عنه لغريمه بالمال وتكفل به. وتقول، رأيت فلاناً كفلاً لفلان بمعنى رأيت فلاناً رديفاً لفلان، واكتفل به ارتدفه، واكتفلت بالشيء جعلته ورائي.

وتقول، جعلني كافله بمعنى القائم به.

وتقول، له كفل من الجزاء: ضعف.

وتقول، أكفلني ماله: ضمه إليّ.

وبهذا وردت في الآية ـ 40 ـ من سورة طه: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾، وفي القصص

ـ الآيـــــة 13 ـ: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾، أي بمعنى يكفونه ويعولونه وينفقون عليه.

ووردت بمعنى القائم على الأمر والرقيب والحامي الذي يُرتكن إليه في قوله تعالى في سورة النحل، آية ـ 19 ـ: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

ووردت بمعنى الضعف في قوله تعالى في سورة الحديد، آية ـ 28 ـ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

ووردت بمعنى ضمّ المال إلى مال في سورة ص، آية ـ 23 ـ: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾.

فأنت ترى ـ إذاً ـ أن الأخ الصادق النيهوم قد يكون لم يجمع مواد دراسته جيداً كما لم يتبين ما حولها ولم يعر دلالات الألفاظ حقّها من الاهتمام، خاصة وأنت تقرأ له القول بأن كلمة (يكفل) التي وردت للمرة الثانية يمكن لغوياً أن تعني أيضاً يتزوج؟

وماذا بعد:

والخطوة التي تلي هذا هي النظرة في المركبات مستعينين بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة وما إليها، ولكن لا على أن الصفة النحوية عمل مقصود لذاته، ولا يكون التفسير كما كان الحال قديماً، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، والنظر في اتفاق معاني القراءات

المختلفة للآيات الواحدة، والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله، وهذا ما اصطلحنا على تسميته بالفهم الحرفي وقلنا إن المفسرين قد اشترطوا شروطه وحدّد الأصوليون حدوده.

أما عن النظرة البلاغية في هذه المركّبات فليست هي تلك النظرة الوصفية التي تعنى بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه وترجيح أن ما في الآية من كذا وكذا، أو إدراج الآية في قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر، كلاّ، بل إن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تتمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني، وتتبين معارف هذا الجمال، وتستجلي قسماته، في ذوق بارع، قد استشف خصائص التراكيب العربية، منضماً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية بمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته فناً فناً، وهذا ما اصطلحنا عليه بالفهم الأدبي، وقلنا إن دراسة الرمز أدخل فيه، كما أوضحنا أنه يقتضي معرفة الأساس الفني البلاغي الذي ينظم قصص القرآن.

* سؤالان:

فماذا قال المفسرون؟

وما هو التفسير الحرفي والأدبي الذي نراه لقصة عيسى عليه السلام في القرآن؟

(3)

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[1]

* إلى القرآن الكريم:

ولئن كنا نرى أن يتغير المنهج في تفسير القرآن سوراً على ترتيب ما، إلى تفسيره موضوعات نجمع متفرقها من أماكنه، لنقرن الشبيه إلى الشبيه، ونفسّر المثل بالمثل، وكان هذا رداً للتفسير إلى الدراسة الأدبية وأخذاً فيه بمناهجها، إلّا أن الأول ذهبوا في تفاسيرهم إلى تناول القرآن سوراً على ترتيب ما، وليس لنا ونحن نعرض تفاسيرهم إلّا أن ننزل عند رأيهم، وإن ألزمتنا طريقتهم هذه لوصلها بالدراسة الأدبية أن نعتبرها من قبيل وجوب نظرنا إلى أدب الأديب جملة ـ ولله المثل الأعلى ـ وعلى أن له وحدة متماسكة، ليتمم بعضها بعضاً، ويتهيأ لنا بتكامله فهم بعضه ببعض، فليس يصحّ أن نسوق قطعاً من شعر شاعر، أو نثر ناثر لأن فيها شاهد فكرة عنه، أو حجة رأي فيه، وقد يكون في غيرها من سائر شعر الشاعر، أو نثر الناثر، ما ينقض هذا أو يحدده، أو يؤثر عليه بوجه ما.. بل إنه لا يصح أن نجمع منه فناً معيناً، من شعر شاعر، ونثر ناثر، فنروح نؤرخه، قاطعين النظر عن سائر فنونه، متناسين أن مديحه قد يفهم

---

(1) سورة مريم، الآية: 34.

برثائه، إذ إن وضعه قد يزيد هذين الفنين، أو يزيد أحدهما، بياناً.

فلا بد من مراعاة هذه الوحدة مراعاة تصل الأول بالآخر وترد القريب إلى البعيد، ولئن أمكننا أن نحقق هذا الجزء من الدراسة الأدبية للقرآن إن تابعنا القرآن كله سورة سورة لنحقق ما يمكن أن يُسمّى بالمنهج الداخلي أو الفهم الدقيق المستشف، إلّا أننا لا نستطيع تحقيق وصل الأدب بالأديب بحيث نفهم الأدب بشخصية صاحبه، ومن هنا يكون فهمنا للنص القرآني، هو كل ما نبغيه ولا نتجاوزه إلى شيء من تاريخ الأديب وحياته، لأنه أفق لا نرنو إليه، ولا نصل حياتنا إلّا بآثاره ونتائجه، وإننا حين نفهم النص القرآني نتبين جوّه النفسي بما حوله، من ملابسات وأسباب نزول ووقائع وأحوال.

* ما لا يُدرك كله:

وقد قيل ما لا يدرك كله لا يترك جلّه، ولكننا هنا لا ندرك الكل ولا الجل فأرجو أن تكتفوا مني بالبعض والبعض كثير.

وقبل أن نقف مع الأخ النيهوم مع السورتين التي بدا من حديثه أنه درسهما، يخطر ببالي سؤال: هل حقّق الأخ النيهوم ما اصطلحنا عليه بشرط النظر في أدب الأديب جملة قبل أن يدلي برأيه؟.. وبالأدق، هل عاش الأخ النيهوم على الأقل في ظلال القرآن يتفيأها ولو لفترة؟

*** سورة مريم، والبدء بحروف هجائية:**

(«سورة مريم» من السور المكيّة التي تقرر توحيد اللّه وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به، وتقرر عقيدة البعث وهي إحدى تسع وعشرين سورة بُدئت بحروف هجائية. وقد لوحظ أن هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ولعلها لهذا بُدئت كلها ببدء غير مألوف.. وهو تلك الحروف الهجائية التي تنطق بأسمائها وبمسمياتها. وذلك ليكون البدء الغريب قرعاً للاسماع وإعداداً لتلقي غرائب لا تعرف السنن المألوفة).

*** زكريا وولده يحيى بين سورة آل عمران ومريم:**

وقد ذكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾[1].

وذكرت في سورة مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ

---

(1) سورة آل عمران، الآيات: 38 ـ 41.

زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾[1].

وهكذا نرى الحديث في سورة آل عمران عن البشارة بيحيى، وطلب زكريا أن يجعل الله له آية، وتكليفه بذكر ربه كثيراً وتسبيحه بالعشي والابكار، بينما نجد في سورة مريم خروج زكريا على قومه من المحراب وإيحائه إليهم أن يسبحوا بكرة وعشياً، كما نجد الخطاب موجهاً إلى يحيى، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[2].

---

(1) سورة مريم، الآيات: 2 ـ 15.

(2) سورة مريم، الآية: 12.

* **القصة التوام:**

وتذكر السورة (كهيعص) قصة مريم، وقد آخى القرآن بين القصتين في غير موضع، ومن الملفت للنظر أن سورة آل عمران تحدثت عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى، بينما تحدثت سورتنا هذه (أي سورة مريم أو كهيعص) عن حملها بعيسى وعن موقفها حينما تمثل لها روح اللّه بشراً سوياً، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]. ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها، واشتد حزنها، لا لشك في نفسها، وإنما لتقدير ظنون الناس فيها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[2].

ومن المهم أن نتابع الآي الكريمة التي توضّح حواراً شبيهاً بحوار زكريا وتحمل القول الإلهي: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[3]، كما تكشف أن اللّه يفعل ما يشاء وأنه إذا قضى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[4].

ومن المهم أيضاً أن نلاحظ أننا كما نجد زكريا يخرج من المحراب ونجد ابنه يحيى مخاطباً في سورة مريم فإننا

---

(1) سورة مريم، الآية: 20.
(2) سورة مريم، الآية: 23.
(3) سورة مريم، الآية: 21.
(4) سورة مريم، الآية: 21.

نجد أيضاً مريم: أتت به قومها تحمله. ونجد عيسى يكلم الناس في المهد صبياً.

ولا تغيب على فطنة القارئ الكريم المقارنة بين قوله تعالى عن يحيى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾[1]، وبين قوله تعالى على عيسى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾[2]!!

كما لا تغيب عن القارئ نسبة عيسى إلى أمه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[3]. وما أجمل، ما أجمل به عيسى وهو في المهد رسالة السماء إلى الأرض (قول الحق)!

وإنها لرسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها، لأنها كانت في الواقع تجربتين ودعوتين، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة، وهما يحيى وعيسى ابن مريم! وهي على كل حال، دعوة الغيرة الصارمة الأبية، ودعوة الغيرة السمحة الرضية. ولكن قول الحق صارماً أو سمحاً لا بدّ أن يصطدم بعماية الشهوات وعناد الغرور، وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال: إن يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فقالوا إنه إنسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة.

---

(1) سورة مريم، الآية: 14.
(2) سورة مريم، الآية: 32.
(3) سورة مريم، الآية: 34.

هي الأهواء التي أخذت بالناس في شأنه هو إلى جهات متباينة، (فمنهم من قال به على مريم بهتاناً عظيماً، ومنهم من قال به على اللّه شيئاً إداً).. هكذا في كلمات قليلة عرف به وبرسالته وبمواقف الناس منه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ سبحانك ربي إذا قضيت أمراً فإنما تقول له كن فيكون.

* إلى الأولى:

بينما وجدتني منجذباً إلى متابعة العرض وكدت أن أبدأ عرض التفسير الحرفي والأدبي الذي أراه لقصة ميلاد عيسى عليه السلام في القرآن شعرت وكأن رقيباً عليّ من نفسي يقول لي: ـ وعلى لغة إخواننا أهل الشام ـ (لطفاً ـ قف ـ وعد إلى المفسرين وماذا قالوا، فإن منهجك يقتضيك هذا، وقراءك ينتظرونه).

* فذلكة، السفارة اللبقة:

ورغم أن الهاتف الداخلي يستحثني المسارعة بالسير نحو الأولى لأتمّ على الأقل النقطة الثانية من نقط الموضوع والتي تكشف أن فهم المفسرين والأصوليين قد غابا عن النهوم، ولأختم بتوضيح الأساس الفني البلاغي الذي ينظم به القرآن قصصه.

ورغم حرصي على ألّا أثقل الخطى نحو الخاتمة وأثمار الدراسة، إلّا أنني لشعوري أن الحيز المتبقي من

هذه المقالة لا يمكن أن يسمح بأن أعرض إلى أقوال المفسرين، فقد رأيت أن أمهّد بهذه الفذلكة التي تكشف عن الفهم الذي كان يسود الفكر الإسلامي عن المسيح عيسى ابن مريمﷺ، كما ألفت النظر إلى أن التقريرات القرآنية كانت مقاربة إجمالاً لما جاء في الأناجيل، وهكذا يتسق أسلوب القصة القرآنية مع أسلوب القرآن العام في إيرادها ما هو معروف من الأحداث لتكون الحجة أقوى وألزم. وهذا في فصل سورة مريم الذي نحن في صدده أشد قوة، تهيب الآيات التعقيبية الأخيرة بالسامعين إلى وجوب تفهم ما هو معروف ومدوّن تفهماً صحيحاً وتأويله تأويلاً سليماً، وإلى أن ذلك هو الطريق المستقيم إلى الحق والحقيقة.

والفذلكة التاريخية تقول إن أحد علماء المسلمين المتفهمين ـ ولم أعد أذكر اسمه الآن ـ كان يقوم بعمل سفارة المسلمين لدى أحد أمراء المدن الإيطالية، وكانت السلطة الدينية في القرون الوسطى، وفي هذه المدن، لها السلطة الزمنية، وفي إحدى المناسبات التي كان فيها السفير المسلم يؤدي زيارة إلى بلاط الأمير قال له الأمير أو أحد حاشيته ـ ما مفاده ـ (كيف أخبار صويحبة محمد؟!) وكان يشير إلى أم المؤمنين رضي الله عنها ويلمّح إلى حادثة الإفك.

وهنا جاءت قولة الحق من نفس تملؤها الغيرة، ولكنها الغيرة السمحة الرضية التي تناسب السفارة اللبقة،

فقال السفير المسلم ـ ما معناه ـ (هما امرأتان اتهمهما أهلهما، وإحداهما أتت به قومها تحمله، وقد برّأها القرآن، فنحن نبرئهما)!.

وموضع الشاهد ألّا يخفى في الدلالة على أن هذا هو الفهم الإسلامي وهذه لروح التسليم التي تعقب الإيمان بالله وبالملائكة والكتب والرسل، كما أن موضع الشاهد ألّا يكشف ثقة المتحدث من تصور المخاطبين لولادة عيسى ابن مريم من غير أب. وإلى لقاء، نتحدث فيه عن أقوال المفسرين، ونخلص إلى أسلوب القصة القرآنية، وقد يقتضينا البحث تحقيق ما هو معروف من أحداث القصة، وقد يمتد بنا السبيل، ونحن نسير في منهاج مفتوح إلى مناقشات عن أصل الظاهرة الدينية وظاهرة البنوة والظاهرة القرآنية..إلخ.

وكل هذا، بقيد واحد لا غير، هو التزام المنهج وابتغاء الحق، والحق أقول لكم.

(4)

مناقشات حول الموضوع
ولكنها في صميمه

لقد كان تخطيطي لمقال اليوم أن يكون عن أقوال المفسرين، والرأي الذي نرتئيه عن قصة ميلاد عيسى ابن

مريم عليها السلام، مع التعرض لأسلوب القصة القرآنية، والأبحاث المقارنة...إلخ، وفي آخر المقال الماضي[1]، وقبل أن ألتقي مع الأخ النيهوم أتثبت منه وأحاوره ونتجادل بالتي هي أحسن (وقد يمتد أمامنا السبيل، ونحن نسير في منهاج مفتوح، إلى مناقشات عن أصل الظاهرة الدينية ظاهرة البنوة والظاهرة القرآنية). ولم أكن أدري أن مناقشات من حول الموضوع مع الصادق، ومن حول الصادق، ستجعل لزاماً عليّ أن أعرض لهذه القضايا قبل غيرها، لأنني اكتشفت أنها تكوّن الخلفية التي يستند إليها الأخ الصادق، وهي الإطار الذي يتحرك بداخله، وهي المنظار الذي نظر منه في دراسته عن (الرمز في القرآن)، وهي هي التي تجعل الذين تصدوا له بالتكفير أبعد ما يكونون، أو أقرب ما يكونون، عن الصواب.

*** فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة:**

قال حجة الإسلام أبو محمد الغزالي[2] في كتابه الذي أعطاه العنوان المذكور بعاليه: (واعلم أن حقيقة الكفر

---

(1) الحلقة الثالثة من ردوده على النيهوم.

(2) العالم الإسلامي المعروف (1058 ـ 1111م)، ولد في خراسان، وطاف ببلدان كثيرة ويُشار إليه بأنه بلغ اليقين بعد رحلة من الشك بالتصوف صوّرها في كتابه (المنقذ من الضلال). له مؤلفات عديدة في العقيدة والسلوك والأخلاق. وقد مثّل (ظاهرة فكرية إسلامية)، من أشهر كتاباته: إحياء علوم الدين، فضائح الباطنية.

والإيمان، والحق والضلال لا تنجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال)، ويقول: «وكيف تتجلى أسرار الملكوت لقوم اتخذوا إلههم هواهم، ومعبودهم سلاطينهم، وقبلتهم درهمهم ودنانيرهم، وشريعتهم رعونتهم. فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان، هل بإلهام إلهي؟ وهم لم يفرغوا القلوب من كدرات الدنيا، أم بكمال علمي، ولا بضاعة لهم في العلم إلّا مسائل النجاسات الحسية والمياه المخلوطة، هيهات هيهات أن ينالوا شيئاً من ذلك الطلب الذي لا يُنال بالهوينا، فلا تضيع فيهم بقية عمرك، واقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[1]».

ويعرض حجة الإسلام لمقدمة صغيرة عن مراتب الوجود كما يخوض في التعريف بحد التكذيب والتصديق والفرق بينهما، ويعرض لمقام عوام الخلق ومقام الباحثين ثم يقول: «ثم ينبغي أن تعلم من الناس من يبادر إلى تأويل ظواهر النص بمجرد ظنون، فهذا أيضاً لا نسارع إلى تكفيره في كل مقام، بل ينظر فيما قال فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد فلا نكفره، وذلك كأن يقول إن فلق البحر لموسى كان بواسطة الجزر، فإن هذا التأويل مع كونه لا يتفق مع قوله تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ

(1) سورة النجم، الآيتان: 29 ـ 30.

ٱلْعَظِيمِ﴾[1]، فإنه لا يسوغ أن يكفر صاحبه، بل نخطئه».

*** وصية وقانون:**

ثم قال: «واعلم أن شرح ما يكفر وما لا يكفر يستدعي تفصيلاً طويلاً، فاقنع الآن بوصية وقانون». أما الوصية فهي أن تكفّ لسانك عن أهل القبلة، ما داموا قائلين لا إله إلّا اللّه محمد رسول اللّه، غير مناقضين لهما. والمناقضة تحصل بتجويزهم الكذب على رسول اللّه ﷺ. أما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان، قسم يتعلق بأصول العقائد كما سبق، وقسم يتعلق بالفروع.

وأصول الإيمان ثلاثة: هي الإيمان باللّه، والإيمان برسوله، والإيمان باليوم الآخر، وما عدا ذلك فروع. واعلم أنه لا تكفير في الفروع إلّا في مسألة واحدة، وهي أن ينكر حكماً ثبت عن النبي ﷺ بالتواتر القاطع (والتواتر الصحيح غير المستفيض المتواتر) وأجمعت عليه الأمة بسائر طوائفها، كإنكار وجوب الصلوات الخمس، أو صوم رمضان.

*** خلفية النيهوم الفلسفية والإيمان باللّه واليوم الآخر:**

وعساه قد اتضح لك الآن، وبعد عرض رأي حجة الإسلام في (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) أنه كان

(1) سورة الشعراء، الآية: 13.

أولى بالبعض أن يكفّ لسانه عن أهل القبلة حتى يتثبت - بالأقل - من موقف النيهوم من أصول الإيمان الثلاثة، وما عدا ذلك فروع (واعلم أنه لا تكفير في الفروع...).

وأنا هنا عارض لك خلفية النيهوم في هذه القضايا في أكمل منطق وأبلغ صورة وأقوى حجة يقدرني عليها اللّه، وأرجو ألّا يتسرّع البعض من المسارعين إلى الإفتاء(!) فيتصيدون الفرصة قائلين إنه يقرّ رأيه، ومن يدري فقد يكون رأيه مما يعجبهم أو لا يعجبهم، وقد يكون مما لا يعجبني أيضاً، ولكنني سأعرضه بأكمل منطق أستطيع وأبلغ صورة أملك وأقوى حجة أقوى عليها!

* وليس هذا حماساً للرأي أو قراراً له أو اقتناعاً به أو ترويجاً له، بل تمهيداً لمناقشته ونقده وإقراره أو نقضه، تماماً كما ملك القرآن الكريم - وللّه المثل الأعلى - حين يعرض لآراء لا يقرها، فهو يعرضها في أحكم منطق وأبلغ أسلوب وأقوى حجة، وكيف لا، والقرآن كله معجز، ولكنها لا تلبث أن تتهافت ويبين بطلانها إذا ما كشف زيفها وعرّاها من بهرجها وأقام ضدها الحجة والبرهان.

*** الذين يطعنون وينهشون الجيف؟!:**

وهكذا، فأنت ترى أنني من الذين لا يرضون لأنفسهم أن يطعنوا وينهشوا الجيف، كما أنني لا أرتضي لنفسي أن أجهز على جثة هامدة، وهو ما يبدو أن البعض لا زال يفعله، فهم يعرضون رأي الخصم مشوهاً بل ميتاً ثم

يجهزون عليه! وبهذه المناسبة أود أن أقول لك يا أخ صادق - ولا أريد أن أقولها لمحمود الهتكي - لأني لا أدمجه في المعركة كما يحاول البعض الذين يبدو أن لهم (ثار بايت)[1] معه!

(إنك - إذاً - حي، فالكائن الحي هو الذي ينهش كاللحم، لأن الجيف لا تطعن ولا تنهش، وما دمت حياً فلا شيء في الأرض يمنعك من الركض على جواد الكفاح، وإن أروع الكفاح هو كفاح النفس، سبيل احتمالها الضربات في صبر وابتسام).

هكذا قال الحكيم! وهكذا أقول لك في محنتك التي تمرّ بها، فاصبر وابتسم.

* **هكذا تكلم النيهوم:**

الحق أقول لكم، إنني تحرزت أن أقف هذا الموقف الذي أعطي فيه صورة من قريب، وإنني أغبط الأخ محمود الهتكي الذي تتحمل أعصابه أن يقوم بهذه المهمة كل أسبوع ومعه أشخاص يختلفون من مرة إلى مرة عنه يخالفون في مرات عديدة، لما دار (وراء الكواليس) من مناقشات مطولة متابعة استغرقت الساعات، وقد تشغل من جريدتكم (الرائد)[2] الغرّاء حيّزاً كبيراً، وقد تدخلنا في تفاصيل هي خطوات الطريق

(1) عامية، تعني ثاراً قديماً أو مؤجلاً.

(2) حيث نشر حوار الهتكي مع النيهوم، وردود الغويل لاحقاً.

التي قد تتسع أو تضيق، وتسرع أو تتريث، على ألّا ننسى المنهج، وعند المفترق الحاسم لا بد من العودة إلى المنهج.

* تذكرة:

وأنا حريص الحرص كله أن يذكر القارئ الكريم أن عزمي قد انعقد على أن أحقق على الأقل أمنية لي تصرم الزمن وتفانت الأيام وألهاني عن القيام بها انشغالي فيما لا يغني عني شيئاً يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى أيقظني إليها النقاش مع الأخ الصادق النيهوم. وأمنيتي أن أكتب توطئة لمنهج لغوي أدبي نفسي مقارن يسهم في دراسات تفسير القرآن.

والقرآن معجزة العربية في بلاغة نظمه واتساق أوضاعه وأسراره. (ولا ننسى أن القرآن الكريم أنزل على نمط معجز قليله وكثيره معاً، والقرآن بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصوّرها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب وتحويل التراكيب إلى التراكيب قد أظهرها مظهراً لا يقتضي العجب منه وجلّاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصة).

والذين لا يعرفون أسلوب القرآن الخاص ـ والذي لا يكون إلّا بامتزاج القرآن باللحم والدم ـ فإنهم وإن عرفوا مفردات الألفاظ وصور الجمل فإنهم عنه مبعدون. وإنما انفردت آداب القرآن الكريم في ذلك الجيل الذي عرفت من خبره بالأسلوب الذي تناولها فيه، مما يشبه في صفة البيان

أن يكون وحياً يوحى إلى كل من يفهمه ويقف عنده متثبتاً بحال من الرأي، وفحص من النظر وبإدمان التأمل وأخذ النفس بالتروي في أضيق ما بين الحرف والحرف من مسافة المعنى لدقة النظم وإبداع التركيب، إلى ما يبهر الفكر ويملأ الصور عجباً، وهذا تفسير، أو عساه أن يكون تفسيراً، ما جاء في الأثر من أن: (من قرأه فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه)!، ورحم اللّه إمام المفسرين الطبري[1] حين قال: (إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذ بقراءته؟) ولكننا نريده تأويلاً محكم المنطق على طريقة البلاغة، بتعبير المرحوم صاحب إعجاز القرآن[2].

و(طريقة البلاغة يُراد بها تحقيق المعنى، واستبراء

(1) أبو جعفر محمد الطبري (839 ـ 923)، المؤرخ والمفسر والفقيه، ولد في طبرستان وتنقل طلباً للعلم في بغداد والبصرة والكوفة وأقام في سوريا ومصر. من مؤلفاته في التاريخ: (تاريخ الرسل والملوك) و(تاريخ الرجال)، وكتابه: (جامع البيان في تفسير القرآن) من أشهر التفاسير.

(2) قام بتأليفه مصطفى صادق الرافعي (1880 ـ 1937)، الأديب العربي المعروف، نظم الشعر وأصدره في دواوين، ومن مؤلفاته الشهيرة (إعجاز القرآن) و(تحت راية القرآن) رداً على كتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) عام 1926. كما دارت بينه وبين عباس العقاد معارك أدبية ونقدية عنيفة. ويلاحظ على مدى ردود الأستاذ الغويل تضمينه للاقتباسات التي يستند إليها بين أقواس، ولم يتم ذكرها في هوامش، ولعل سبب ذلك يعود إلى ضيق الحيز المتاح في الصحيفة لنشر المقالات.

غايته، وامتلاخ الشبهة منه، وأخذ الوجوه والمذاهب على النفس من أجزائه التي يتألف منها، بعد أن تستوفي على جهتها في الكلام استيفاء يقابل ما يمكن أن تشعر به النفس من هذه الأجزاء، حتى لا تُصرف عنه، ولا تجد لها مذهباً ولا وجهاً غير القصد إليه، فيكون من ذلك الإلزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ وكان حتماً مقضياً).

(والقرآن وإن كان لم يخرج عن أعلى طبقات اللغة، ولا برز عن وجوه العادة في تصريفها، غير أنه أتى بذلك من وراء النفس لا من وراء اللسان، فجعل من نظمه طريقة نفسية في الطريقة اللسانية، وأدار المعاني على سنن ووجوه تجعل الألفاظ كأنها مذهب هذه المعاني في النفس، فليس إلّا أن تقرأ الآية على العربي أو من هو في حكمه لغة وبلاغة، حتى تذهب في نفسه مذهبها: لا تنأ ولا تتخلف).

* العرب ألسنتهم تقود أرواحهم:

وكما يقول صاحب إعجاز القرآن أن العرب ألسنتهم تقود أرواحهم، وقد قادهم القرآن من ألسنتهم وبذلك نزل منهم منزلة الفطرة الغالبة التي تستبد بالتكوين العقلي من كل أمة. وهذه الحقيقة للأسف الشديد لم تنل الاهتمام اللائق بها، وذلك بدراستها من جوانبها اللغوية والأدبية والنفسية.

ولقد أكثر بعض القوم من علمائنا ـ سامحهم اللّه ـ الكلام في إعجاز القرآن، وجاؤوا بقبائل من الرأي لوّنوا فيها مذاهبهم ألواناً مختلفات وغير مختلفات، بيد أنهم

يمرون في ذلك عرضاً على غير طريق ولا منهج.

*** امانة حملها (شيخ الأمناء):**

وللحقيقة والتاريخ فإن هذه الأمانة والتوطئة لهذا المنهج اللغوي الأدبي النفسي أبى (شيخ الأمناء) أستاذنا المرحوم الشيخ الأمين الخولي إلّا وأن ينهض لحمل مسؤوليتها وأنشأ لذلك مدرسة، ولكنها على ما يدو اهتمت أكثر ما تهتم لدراسة نصوص أدبية أخرى، وباستثناء تلميذته الدكتورة بنت الشاطئ[1] وعدد قليل من الآخرين، وجميعهم غير مكثرين لا نجد المحاولة تتقدم إلى الأمام.. وجزى اللّه الشيخ الخولي كل خير.

*** امانة في عنقي لآخرين:**

وما دمنا قد ذكرنا شيخ الأمناء فلا يمكنني أن أنسى أساتذة وأشياخاً آخرين كان لهم الفضل في تنمية هذا المنهج في ذهني بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ورغم أنني لا أستطيع

(1) لقب شهرت به د. عائشة محمد عبد الرحمن (1913 ـ 1998)، الأستاذة الجامعية والمتخصصة في الدراسات الإسلامية والأدبية واللغوية. تخرّجت في قسم اللغة العربية بالقاهرة عام 1939، ونالت الماجستير عام 1941، وتزوجت من أستاذها الشيخ أمين الخولي، وتحصلت على الدكتوراه عام 1950. عملت في المغرب والسعودية. من مؤلفاتها: التفسير البياني للقرآن الكريم، القرآن وقضايا الإنسان، تراجم سيدات بيت النبوة، قيم جديدة للأدب العربي.

ذكرهم على سبيل الحصر فلا يفوتني أن أذكر أساتذة اللغة العربية والدين على أيامنا من أمثال الأستاذ الأمين الحافي[1] والشيخ محمود المللاني[2] والأستاذ الهادي عرفة[3]، ولن أنسى أستاذنا العلّامة الشيخ أبو زهرة[4] والدكتور

(1) محمد الأمين الحافي: (1916 ـ 2004)، شاعر وأديب ليبي. حفظ القرآن الكريم في بلدته (سوق الجمعة) قرب طرابلس، وواصل تعليمه الديني في القاهرة، وتخرج في كلية دار العلوم عام 1946. ثم عمل مدرساً في ثانوية طرابلس، وناظراً للمعارف في ولاية طرابلس الغرب، وعميداً لكلية العلوم في الجامعة الليبية. لم يصدر شعره في ديوان.

(2) الشيخ محمود عمر المللاني: ولد في طرابلس عام 1892، وبها حفظ القرآن الكريم وتلقى علومه الدينية على يد والده الذي كان من كبار العلماء. هاجر إلى مصر وعاد إلى طرابلس عام 1933، وقام بالتدريس في كلية أحمد باشا والمدرسة الإسلامية العليا، ثم في ثانوية طرابلس، كما عيّن ناظراً للعدل في ولاية طرابلس الغرب حتى عام 1960.

(3) الهادي الصغير بن عرفة: (1910 ـ 1973)، شاعر ومعلم، تلقى تعليماً دينياً في بلدته (قماطه)، ثم حصل على عالمية الغرباء من الأزهر عام 1936، ونال إجازة التدريس من كلية اللغة العربية في الأزهر عام 1944. وبعد عودته إلى بلده عمل مدرساً في المعهد الأسمري بزليطن، وفي ثانوية طرابلس.. وغيرها من المؤسسات التعليمية، نشر قصائده في الصحف الليبية.

(4) الشيخ محمد مصطفى أبو زهرة: (1898 ـ 1974)، عالم معروف، ولد في المحلة الكبرى بمصر، وتعلم في طنطا، ثم تخرّج في كلية دار العلوم بالقاهرة، وقام بالتدريس في كلية أصول الدين والحقوق بالأزهر وجامعة القاهرة إلى تقاعده =

محمد يوسف موسى[1] والشيخ البشير الإبراهيمي[2] والسيد محب الدين الخطيب[3] والدكتور عبد العزيز كامل[4] والمرحوم سيد قطب[5] والأستاذ العلّامة المحقق محمود

= عام 1958. من كتبه: تاريخ الجدل في الإسلام، تاريخ المذاهب الإسلامية، العقوبة في الفقه الإسلامي، محاضرات في النصرانية، مقارنة الأديان.

(1) د. محمد يوسف موسى: (1899 ـ 1963)، الفقيه والأستاذ بكلية أصول الدين في الأزهر. ومن أعضاء جبهة علمائه. له مؤلفات عديدة منها: (الأخلاق في الإسلام) و(نظام الحكم في الإسلام).

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: (1889 ـ 1971)، المفكر والمصلح والعلامة الجزائري، أسس عام 1931 مع الشيخ عبد الحميد باديس (جمعية العلماء الجزائريين) وترأسها فيما بعد، أصدر صحيفة (البصائر).

(3) محب الدين الخطيب: (1887 ـ 1969)، كاتب إسلامي، ولد في دمشق وبها تعلم، وكان والده أبو الفتح الخطيب أميناً لدار الكتب الظاهرية منذ تأسيسها في دمشق. أقام في القاهرة وأسس دار الفتح وأصدر عنها مجلتين: الزهراء (شهرية) والفتح (أسبوعية). من مؤلفاته: سرائر القرآن، توضيح الصحيح.

(4) عبد العزيز كامل: (1919 ـ 1991)، مفكر وكاتب مصري، ولد في الإسكندرية وحصل على الدكتوراه في الجغرافيا من جامعة القاهرة. اختير وزيراً للأوقاف ونائباً لرئيس الوزارة في مصر في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، كما جعله الكويت رئيساً لجامعتها، له عدة مؤلفات منها: (آية وقصة) و(الإسلام والتفرقة العنصرية) و(الإسلام والعروبة في عالم متغير) و(قصة كينيا).. وغيرها.

(5) سيد قطب إبراهيم: (1906 ـ 1966)، كاتب ومفكر إسلامي =

شاكر[1]، وغيرهم كثير جزاهم اللّه عنا كل خير وأفاد منهم شباب هذه الأمة العربية المسلمة.

*** عودة من الأمانة إلى الشهادة:**

لقد جرّنا الحديث هذه الوجهة التي قد تكون هروباً لا شعورياً، مما تمترس به الألسن في اللدود والخصومة، وما يأخذ على البعض من مذاهب ونحل، وليس وراء ذلك كله إلّا ما تحصره هذه المقاييس من صناعة التكفير، ثم فتنة متماحلة لا تقف عند غاية في اللجاج والعسر.

ولكن، كيف لي أن أكتم الشهادة؟!

وقد تكلم النيهوم أمامي فلا بدّ أن أشهد بما قال وإلى لقاء سأدلي لك فيه بشهادة عما تكلم فيه النيهوم، ثم نواصل السير حسب منهاجنا الذي قلت لك إنني قد عقدت العزم إن

= وأديب وشاعر. ولد في أسيوط بمصر. نشر شعره ومقالاته الأدبية في مجلة (الرسالة)، يُعتبر من أبرز كتّاب حركة الإخوان المسلمين ودعاتها بعد انتسابه إليها في سنوات أربعينيات القرن العشرين. من أبرز مؤلفاته: (في ظلال القرآن) و(معالم في الطريق) و(الإسلام ومشكلات الحضارة) و(العدالة الاجتماعية في الإسلام) و(هذا الدين).

(1) محمود محمد شاكر: (1909 ـ 1997)، عالم ومحقق مشهور، ولد في الإسكندرية، ودرس في القاهرة، ونشر أبحاثه ومقالاته في مجلة الرسالة، وعمل في السعودية مدرساً. له مؤلفات وتحقيقات عديدة في الأدب والتراث العربي القديم من أشهرها (المتنبي) و(أباطيل وأسمار).. وغيرها.

شاء اللّه.. آملاً أن أقطع شوطاً في منهج رجوت أن أخطو فيه خطوة إلى الأمام، فهل يستطيع مثلي أن يحقق هذا؟!

ورغم أنني أشعر أنني من أهل زمان أوتوا من العجز والتهاون أضعاف ما أوتي أسلافهم من الجد والقدرة!

إلّا أنني أرجو..

(5)

عود على بدء: هكذا تكلم النيهوم

لعله من المناسب قبل أن أعرض اليوم للمواضيع التي حددنا، والتي سيكون مبتداها (هكذا تكلم النيهوم) أن يعود القارئ الكريم معي مذكراته إلى ما ابتدأت به مناقشتي لآراء الأخ النيهوم، وقد قلت يومئذٍ: (وبهذه المناسبة فيهمني أن نتفق من البداية أنه ليس فيما أكتب ملاحظاً أي إنكار للحق الطبيعي للحي في أن يفكر ويقول، وأنه لحق عرفنا الإسلام يقرره ويحميه، فلو لم يبق في هذا البلد أو غيره أحد يقول إنه حق لقلت وحدي ـ وبتعبير شيخ الأمناء ـ وأنا أقذف في النار: «إنه حق حق»، لأبرأ أمام ضميري، ولا أشارك في وصم الإسلام هذه الوصمة).

وفي نفس المقال الأول وضعت خطة المناقشة في قولي: (وإذا سمح لي الأخ الصادق أن نبدأ النقاش بالمنهج الذي اتبع ثم نثني بالمثل الذي ضُرب وننتهي إلى تحقيق دلالات الألفاظ ومعانيها.. إلخ).

وفي «المنهج» أشرت إلى المنهج الأدبي في فهم

القرآن وتفسيره، وقلت: (من الممكن أن ينظر إلى الرمز باعتباره جانباً من المنهج). ولكنني كأنني استشعرت أن الأخ الصادق قد يكون لم يأخذ بدراسة الرمز في القرآن متدرجاً بالمستويات التي يقتضيها المنهج اللغوي الأدبي، إذ قلت أما أن يضخّم الاهتمام بالرمز (لمجرد الاهتمام بالرمز) لدرجة أن يلوّن نظرتنا ويجعلنا كأصحاب الأفكار الثابتة أو مرضى الإرادة المصابين بالعناد.

إن هذا هو الخطأ بعينه، وهذا هو ما يجرّ إلى أن نتأوّل ما ليس في حاجة إلى التأويل، وأن نعتبر اللفظ اللغوي العادي متشابهاً في حاجة إلى تفسير، وأن نعد الفكرة الواضحة فكراً لا تحتمل اللغة العادية عنها.

وقلت يومئذٍ: (.. إن الذي يدرس القرآن لا ينبغي له أن يلونه أو يفرض آراءه ومعتقداته عليه، إذ إن الذي يفعل هذا لا يمكنه أن يفهم القرآن فهماً سديداً قائماً على أسس سليمة من الدرس والفهم أو تحديد المعنى التحديد المستمد من الألفاظ القرآنية، بل إنني أكاد أقول من وراء الألفاظ القرآنية من معنى وغيره). أما ما تبقى من المقال الأول والمقال الثاني فهو تأصيل للمنهج اللغوي الأدبي النفسي الذي ينبغي أن نعامل به النص القرآني الشريف، وتبيان لما اعتقدته من أن الأخ النيهوم إنما قال بما قال به في قصة ميلاد عيسى فمرجعه أنه لم يجمع مواد الدراسة ولم يتبين ما حولها ودلالات ألفاظها.

وقد كان المقال الثالث بمثابة المقدمة لتعرف أقوال المفسرين والأصوليين الذين اعتقدنا أن الأخ النيهوم قد غاب عليه متابعتها، وبينما كان موعدنا في المقال الرابع الذي نشر بالأمس (25/ 3/ 1969) أن نعرض لأقوال المفسرين، والرأي الذي نرتئيه عن قصة ميلاد عيسى ابن مريم ﷺ، مع التعرض لأسلوب القصة القرآنية والأبحاث المقارنة... إلخ، أقول.. بينما كان هذا هو تخطيط مقال الأمس فإذا بي أجدني أمام مناقشات من حول الموضوع مع الصادق، ومن حول الصادق، تجعل لزاماً عليّ أن أعرض لخلفية الأخ النيهوم الفلسفية، لأنني اكتشفت أنها تكوّن الخلفية التي يستند إليها الأخ الصادق، وهي الإطار الذي يتحرك بداخله، وهي المنظار الذي نظر منه في دراسته عن (الرمز في القرآن).

* تمهيد لا بد منه:

وفي مقال الأمس قلت تمهيداً لمقال اليوم (هكذا تكلم النيهوم):

(الحق أقول لكم.. إنني تحرّزت أن أقف هذا الموقف الذي أعطي فيه صورة من قريب، وإنني أغبط الأخ محمود الهتكي الذي تتحمل أعصابه أن يقوم بهذه المهمة كل أسبوع ومع أشخاص يختلفون من مرة إلى مرة وعنه يخالفون في مرات عديدة، لما دار «وراء الكواليس» من

مناقشات متتابعة استغرقت الساعات، وقد تشغل من جريدتكم «الغرّاء» حيزاً كبيراً، وقد تدخلنا في تفاصيل هي خطوات الطريق التي قد تتسع أو تضيق، وتسرع أو تتريث، على ألّا ننسى المنهج وعند المفترق الحاسم لا بدّ من العودة إلى المنهج).

وبعد أن ذكّرت بالمنهج، والذي كل أمنيتي أن أقطع فيه شوطاً من خلال هذه المقالات، عاهدتكم أنني سأدلي بشهادة عما تكلم فيه النيهوم في جلساتنا الخاصة التي كنت فيها أتثبت منه وأحاوره وأجادله بالتي هي أحسن، وقد كنت تعهدت أن تكون شهادتي عن خلفية النيهوم في أكمل منطق وأبلغ صورة وأقوى حجة يقدرني عليها اللّه، «وأرجو ألّا يتسرع البعض من المسارعين إلى الإفتاء(!) فيتصيدون الفرصة قائلين إنه يقرّر رأيه مما يعجبهم أو لا يعجبهم، وقد يكون مما لا يعجبني أيضاً، ولكنني سأعرضه بأكمل منطق أستطيع وأبلغ صورة أملك وأقوى حجة أقوى عليها».

«وليس هذا حماساً للرأي أو إقراراً له اقتناعاً به أو ترويجاً له، بل تمهيداً لمناقشته ونقده وإقراره أو نقضه، تماماً كمسلك القرآن الكريم ـ ولله المثل الأعلى ـ حين يعرض لآراء لا يقرّها، فهو يعرضها في أحكم منطق وأبلغ أسلوب وأقوى حجة ـ كيف لا؟! والقرآن كله معجز ـ ولكنها لا تلبث أن تتهافت ويبين بطلانها إذا ما كشف زيفها وعرّاها من بهرجها وأقام ضدهما الحجة والبرهان». أرجو

أن يأذن لي الأخ الصادق النيهوم أن أحاول (نقل) ما سمعت منه في جلسات أرجو ألّا أكون قد أثقلت عليه فيها بالمجادلة، ومن قبل أرجو أن قد كنت فيها مستمعاً جيداً.

الأخ الصادق يبحث عن كبريائه ويخجل من امتهان نفسه وهو في سبيل ذلك شديد التعلق بالله، إذ إنه عندما يواجه الكون العملاق بروح الله يشعر أن هذا الكون العملاق بأسره يتحرك بداخله مثل نملة: (انظر هنا في صدري، افتح عينك وانظر هنا. إن الكون العملاق بأسره يتحرك داخلي مثل نملة) وعندئذٍ يصيح النيهوم: (فدعني أبحث عن كبريائي) وذلك بعد أن كان يقول: (فأنا أكاد أن أذوب من الخجل في قبضة هذا الكون العملاق المتناهي الفخامة والنظام)، فالنيهوم يهمه أن يرفع قامته ويكفّ عن الإحساس بالضآلة!. وهو في سبيل هذا على استعداد أن يشقّ طريقه إلى الله عبر نفسه ولو هجر الآخرين وقطعه بمفرده، رغم: (أن الطريق يبدو أكثر طولاً عندما يضطر المرء إلى أن يقطعه بمفرده)، وهو يريد أن يتعلم كيف يتعامل مع العالم بروح الله.

فالله ـ كما هو على رأي صاحب العقل المؤمن ـ هو الحقيقة الفكرية الكبرى التي يستنتجها العقل من الطبيعة ويرتاح بالوصول إليها من ألم الفراغ والشك والجحود والإنكار، وبدون الله يشعرك النيهوم أن نفسه تتألم للفراغ الهائل للكون والوحشة والظلمة وتضيع بين جبروت القوى

العمياء الصماء الخرساء في الطبيعة، وهو يحدثك عن السنوات السوداء التي قضاها ميتاً يبحث مع الأموات في وجه العالم المجدور!

والنيهوم بعد أن يطمئن إلى أنه استنتج أو اكتشف الحقيقة الفكرية الكبرى الأولى واحتضن هذا الكون في صدره يريد أن يتعامل معه بروح اللّه فتحول المادة في عقله وذوقه إلى روح شفيف وأداة دهشة وعجب وتفكير واكتشاف!

(وما سنن اللّه والقوانين الطبيعية إلّا الأعاجيب التي أودعها الخالق في البناء المادي للكون، ولا يفرغ العقل والقلب في أي لحظة من لحظات وعيها من شعاع يسقط على عدستهما من أي أفق من آفاق المادة فيثير الانتباه والعجب والعبادة! وإذا خطر لك أنك قد تستطيع أن تتجاهل هذه الحقيقة فلا تنسى أن تقلع عينيك معاً، لأن كل شيء يقع عليه نظرك في سقف العالم سوف يذكرك بها).

والأخ النيهوم يحدّثك بلغة صاحب العقل المؤمن: (عن أن الكون في اتساعه ورحابته الهائلة من الأوج إلى الحضيض، يسير بنظام واحد في الذرات الصغيرة والمجرات الكبيرة، بملیارات نجومه وأفلاكه، هو الجد الذي لا لهو فيه، والحق وموازين القسط).

والأخ النيهوم بنفس هذه الروح يرى أن الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية

المادة، وتتحكم في تطورها: (والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة «من الوثنيات البدائية، إلى الإسلام الموحد»، حول مركز واحد، يخطف سناه الأبصار، وهو حافل بالأسرار.. إلى الأبد).

وبالمناسبة، فإن الأخ النيهوم يعطي اهتماماً خاصاً لسورة الإخلاص باعتبارها قمة التوحيد وإشارة اكتمال الظاهرة الدينية ودلالة أن محمداً ﷺ خاتم النبين!

وهذه الطبيعة الثابتة والفطرة المسؤولة والسبيل المطروقة من قديم، ما كان للدين القيم أن يهدرها ولا يحسب حسابها فيما يوجهه إلى العقل من رسالات روعي فيها أنها هدى للفطرة التي فطر اللّه الناس عليها في جميع العصور، وأنها لا بدّ أن تأخذ بقيادهم إلى التعرف إلى (اللّه الكائن الأكبر الخالق)، بأيسر الوسائل وأهدى السبل.

والأخ النيهوم بعد ذلك يرى: (وقد جعل القرآن لبنات البناء المادي للكون ومشاهدها وأسرارها وقوانينها صوراً وعلامات على طريق التعرف إلى اللّه الخالق، وجعلها وسائل وأدوات لفهم ما عنده وعند الملأ الأعلى من عالم ما وراء المادة، فتندرج عقولنا على مستويات هذه الأبجديات وعلى إدراك النسب الكثيرة بين مفرداتها وكلماتها، حتى إذا فرغت منها وامتلأت بعلومها وحذقت الصنعة فيها ورأت مواقع يد الخالق بها وتوقيعه على

أشيائها، وتلمذت عليه في تعلم ما يشاء أن يحيطوا بعلمه وفي تسخير ما يشاء أن يسخّروه ويقدروا عليه من كونه.. حين ذلك كله، لعل عقولنا تكون قد صلحت لإدراك ما وراء البناء المادي للكون، ولإدراك علم عقلي عن السر الأكبر الذي يعمر وراءه»).

والنيهوم ـ أخيراً ـ يرى أن القرآن الكريم وقد جاء اكتمالاً للظاهرة الدينية ومنهاجاً مفتوحاً وهدياً على طريق التعرف إلى الله وفهم ما عنده وعند الملأ الأعلى من عالم ما وراء المادة ـ على النحو الذي ذكرناه.

إن هذا القرآن الكريم لا بدّ وأن يجد فيه المفكرون في كل عصر ما يواجهون به مستحدثات الآراء التي تحاول حرمان العقل من مصادر اليقين والطمأنينة وموارد الحياة الفكرية الرشيدة في رحاب الربانية والاعتزاز بالانتساب إليها، والاستعداد من مواهب الله الخالق والأنس به وبالحياة معه، ومعاملته بمنطق واحد هو المنطق الذي يقوم عليه بناء الوجود، والإيمان بالمصير إليه وامتداد الحياة معه فيما بعد البعث على مدى الآباد.

بهذا المنطق انتهى النيهوم إلى الرمز وإلى....

وهكذا، فأنت ترى أن النيهوم استناداً إلى هذه الخلفية قد انتهى لموضوع بحثه عن (الرمز في القرآن)، فخلفية تلك معطياتها لا بدّ منتهية إلى القول بالرمز.. سواء

لأنها أنكرت المعجزة استناداً إلى القول وهذه الطبيعة الثابتة والفطرة المسنونة والسبيل المطروقة من قديم ما كان للدين القيم أن يهدرها ولا يحسب حسابها فيما يوجهه إلى العقل من: (رسالات.. أو سواء ذهبت إلى ربط فهم القرآن بأن يجد فيه المفكرون في كل عصر ما يواجهون به مستحدثات الآراء..)، أو سواء ارتأت أن العقل على مدخل منطق جديد عصري لتفسير النبأ العظيم لهذا الكون العظيم!

وإلى لقاء..

نناقش فيه النيهوم، ونواصل فيه السير بمنطق العقل وموازين الحق والباطل التي هي هي في الضمير البشري، وهي هي التي تحكم الكون، وهي هي إرادة العقل الأكبر الذي يحكم الكون والحياة والإنسان ولا تحكمه!

(6)
النيهوم أخطأ.. وأخطأ.. وأخطأ

لا أريد هنا أن أتعرض لخلفية النيهوم الفلسفية، التي عرضتها في مقالي الأخير، بالنقد والتقدير، وإنما سأفترض جدلاً أن خلفيته الفلسفية سليمة، ولنفرض أن معطيات خلفيته الفلسفية قد انتهت إلى الغرض الذي يرفض المعجزة ويقول، بلغة الأخ النيهوم كما (نقلها) الأخ الهتكي: (الآيات الكريمة يمكن تفسيرها باعتبار أن المسيح قد ولد ولادة عادية مثل أي طفل بشري آخر.. وعاش حياة عادية).

فهل كان للأخ النيهوم علمياً أن يفرض فرضيته أو نظريته هذه على القرآن؟! أم أن المنهج العلمي نفسه كان يقتضيه اختبار فرضيته والتحقق من نظريته؟! وكيف كان يستطيع النيهوم أن يتحقق من صحة أو عدم صحة ما ذهب إليه؟!

*** المنهج اللغوي الأدبي للتفسير خير عون:**

وبما أنني أعتقد أننا جميعاً نتفق على أنه لا يجوز لإنسان ما، أن يفرض رأياً على أي نص أدبي، لذلك فإنني لا زلت أذكر ما لا أنساه أبداً، منذ اليوم الذي كتبت فيه أول مقال إلى آخر مقال، من القول: (إن الذي يدرس القرآن لا ينبغي له أن يلوّنه أو يفرض آراءه ومعتقداته، إذ إن الذي يفعل هذا لا يمكنه أن يفهم القرآن فهماً سديداً قائماً على أسس سليمة من الدرس والفهم أو تحديد المعنى التحديد المستمد من الألفاظ القرآنية، بل إنني أكاد أقول المطلوب من وراء الألفاظ القرآنية من معنى وغيره).

والأصح عندي، أنه كان أولى بالنيهوم، أن يرجع إلى الكتاب الكريم ويحاول التعرف إلى صحة أو عدم صحة ما ذهب إليه ـ أي ما ذهب إليه النيهوم ـ من عدم وجود معجزة وإمكانية أو عدم إمكانية تفسير الآيات الكريمة (باعتبار أن المسيح قد ولد ولادة عادية).

والمنهج اللغوي الأدبي للتفسير خير عون لاختبار

صحة الفرضيات أو عدم صحتها، ومنهجها هذا يقوم على التدرج في مستويات:

أولها: أن نقف على النصوص التي يُراد درسها وأن نجمعها.

ثانيها: أن ندرس ما حولها دراسة تبين تاريخ حياتها وتوضح الظواهر العقلية والعاطفية والفنية المحيطة بها.

ثالثها: أن ندرس هذه المواد تحقيقاً وضبطاً لننتهي إلى دلالات الألفاظ وفهم النصوص.

والفهم على نوعين: الفهم الحرفي، وهو الذي يقوم على دراسة معنى الألفاظ والتراكيب والجمل. والنظر في المركبات يقتضينا الاستعانة بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة وما إليهما ولكن لا على أن الصنعة النحوية عمل مقصود لذاته، ولا يكون التفسير كما كان الحال قديماً، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده، والنظر في اتقان معاني القراءات المختلفة للآية الواحدة، والتقاء الاستعمالات المتماثلة في القرآن كله.

كما يقوم الفهم الحرفي على توضيح العلاقات الغامضة والإشارات التاريخية. وكل أمور تتوقف إلى حدٍ كبير على ثقافة الدرس.. تلك الثقافة التي شرطها بالنسبة لموضوعنا هذا المفسرون في المفسر والتي حدّد ميادينها الأصوليون في مقدمات كتبهم. أما الفهم الأدبي، فهو

النظرة البلاغية في المركبات، ولكن على أساس النظرة الوصفية التي تعنى بتطبيق اصطلاح بلاغي بعينه وترجيح أن ما في الآية من كذا وكذا أو إدراج الآية الآية، قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر..، كلا بل إن النظرة البلاغية هي النظرة الأدبية الفنية التي تمثل الجمال القولي في الأسلوب القرآني، وتستبين معاني هذا الجمال، وتستجلي قسماته، في ذوق بارع، قد استشف خصائص التراكيب العربية. منضماً إلى ذلك التأملات العميقة في التراكيب والأساليب القرآنية بمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية، بل لمعرفة فنون القول القرآني وموضوعاته فناً فناً.

وقد قلنا إن هذا الفهم يقتضي العيش في ظلال القرآن ومعرفة الأساس الفني البلاغي الذي ينظم قصص ـ القرآن ـ وقد تكون دراسة الرمز مما يدخل في هذه الدراسة.

*** النيهوم خذل المنهج فخذله المنهج:**

والأخ الصادق النيهوم لم يكتف بخذلانه للمنهج العلمي الذي كان يقتضيه اختبار فروضه والتحقق من نظرياته بدلاً من فرضها، بل إنه حاول أن يخذل المنهج اللغوي الأدبي، فلم يجمع مواد دراسته ولم يحقق دلالات الألفاظ على نحو ما أوضحنا في مقالنا الثاني بتاريخ (19/ 3/ 1969)، كذلك فإنه لم يفد من أقوال المفسرين ولم يتقيد بأصول الأصوليين، على نحو ما بدأنا تبيانه بتاريخ (22/ 3/ 1969) في مقالنا الثالث تحت عنوان:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾[1]
وسنواصل ذلك في مقالنا هذا عند إيرادنا أقوال المفسرين في قصة ميلاد عيسى ابن مريمﷺ. وعلى العموم، فقد خذل النيهوم المنهج فخذله المنهج.

*** المنهج يخذل النيهوم ويثبت قول القرآن بالمعجزة:**

ولست هنا بمثبت منطقية وعقلانية المعجزة، فذلك موضعه مكان آخر من الحديث، وإنما يهمني هنا أن أوضّح أن الدراسة المتفهمة التي تتبع المنهج اللغوي الأدبي في تفسير القرآن واحدة في آياته المحكمة الصريحة ما هو نص في إثباته للمعجزة، (والقرآن المعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة وعصا انقلبت حية وطير خرج من طين، وعن كثير من الآيات بحديث لا يقبل تأويلاً ولا تخريجاً غير ما يحتمله لفظه).

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾[2].

قال المفسرون في قصة ميلاد عيسى ابن مريمﷺ، وأخطأ النيهوم أيضاً بعدم إلمامه بما قال به المفسرون في

(1) سورة مريم، الآية: 34.

(2) سورة الإسراء، الآية: 59.

ما ضرب لنا مثلاً، ونسيا أو تناسى أن اللّه قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، وأن للقرآن أسلوبه البلاغي الذي ينظم قصصه، فلا يليق بنا إلّا أن نعرف كيف يضرب اللّه لنا الأمثال، وقبل ذلك يجب أن نحاذر ضرب الأمثال خشية أن نضل فلا نستطيع سبيلاً، وخشية أن يكون ما نضرب من مثل إلّا جدلاً، ثم إنه لا يليق بنا أن تضرب للّه الأمثال، وأن اللّه يعلم ونحن لا نعلم ولا بدّ لنا أن نعلم حتى نعقل أمثاله ونتفكر ونعتبر بقصص القرآن.

وخلاصة القول في هذه التوطئة أنه كان ينبغي للأخ الصادق النيهوم أن يستمع ولا يصد لما ضرب (ابن مريم) مثلاً، كان ينبغي للأخ الصادق النيهوم أن يعرف أقوال المفسرين وأن يستمع للمثل ولا يصد عن نفسه وأن يعلم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

* **فماذا قال العالمون؟!:**

وقبل أن أعرض لخلاصة ما أورده العالمون في قصة ميلاد عيسى ابن مريم أود أن أرجو القارئ الكريم إن أمكنه أن يعود بذاكرته إلى ـ أو يعيد قراءة ـ مقالي الذي نشرته بجريدة الرائد الغراء في (22/ 3/ 1969) تحت عنوان

(1) سورة العنكبوت، الآية: 43.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[1] الذي اعتبره مقدمة لا بأس بها في هذا الموضوع. وأعتذر للقارئ الكريم إذا تجاوزت ووضعت عنواناً عاماً يفيد وكأنني اطلعت على كافة أقوال المفسرين، وأنا لم أطالع سوى:

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

2 ـ تنزيه القرآن عن المطاعن، إملاء قاضي القضاة عماد الدين أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد.

3 ـ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجاد الله محمود بن عمر الزمخشري.

4 ـ أحكام القرآن، لأبي بكر بن محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي.

5 ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

6 ـ تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

---

(1) سورة مريم، الآية: 34.

7 ـ تفسير الإمامين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، والشيخ جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

8 ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله البيضاوي.

9 ـ المصحف المفسر، للأستاذ محمد فريد وجدي.

10 ـ تفسير القرآن الكريم، للشيخ محمود شلتوت.

11 ـ في ظلال القرآن، للمرحوم سيد قطب.

12 ـ التفسير الحديث، للأستاذ محمد عزة دروزه.

* مزيد اعتذار:

ورغم أنني أشعر أنني من أهل زمان أوتوا من العجز والتهاون أضعاف ما أوتي أسلافهم من الجد والقدرة، إلّا وأنا أرى أن التجديد هو قتل القديم درساً وبحثاً، فإنني أعتذر لأنني لم أبذل الجهد وأتابع تفاسيرنا العديدة المختلفة الألوان، ولعل عذري أنني ألاحق كتابة موضوع على صحيفة سيارة، وأختلس له من وقت راحتي ونومي، إذ إن ما عدا ذلك من حق غيري.

هذا كما أعتذر لأشياخي وأساتذتي الذين اتخذت

منهم عدتي لفهم ما استغلق عليّ من أمر التفسير، وليس في استطاعتي أن أثقل عليك - أيها القارئ العزيز - بذكرهم، وهم كثيرون وميادينهم متعددة فمنهم من كان مرشدي لفهم خصائص العربية ومنهجها الأصيل، ومنهم من كان مفتاح كنوز الإعجاز وأسرار التأويل، ومنهم من دلّني إلى تاريخ القرآن وعلومه، ومنهم من فتح أمامي آفاق الدراسات المقارنة بين الآداب والأديان، ومنهم من أخذ بيدي إلى مناهج التجديد.. إلخ.

فجزاهم اللَّه عنا كل خير، وأفاد بهم شباب العرب والمسلمين، وعذري الأخير، أنني سأقف بك هنا لنواصل الحديث في لقاء قريب عما قاله أولو العلم من المفسرين. وصلى اللَّه على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين.

(7)
قال المفسرون في قضية ميلاد عيسى

أود - أيها القارئ الكريم - وقبل أن نواصل رحلتنا أن أذكّرك أننا توقفنا في مقالنا الأخير عند الإشارة أنه كان أولى بالأخ الصادق النيهوم أن يرجع لأقوال المفسرين، بعد أن أشرنا أنه أولى به، حتى لو سلمت له خلفيته، إلّا بفرض وجهة نظره في رفض المعجزة على القرآن. كما أشرنا إلى أنه كان أولى به أن يتخذ العدة لفهم القرآن على منهج أصلناه في مقالاتنا السابقة.

واليوم نعطي مزيد إيضاح لقولنا إنه كان أولى بالأخ الصادق أن يفيد من أقوال المفسرين، وسنختار من أقوال المفسرين تلك الأقوال التي كانت تجنب الأخ الصادق أن يكون من الذين (يمترون) في عيسى ابن مريم!

فإذا كان الأخ الصادق، وبعد تسليمه: (إن فكرة المفسرين المسلمين عنه تتفق مع قيمة الفكر التجريدي، المتزن، فالله على كل شيء قدير، وقدير أيضاً على خلق المسيح بدون أب.. ومدّه بالمعجزات الخارقة..)، إنما يهدف إلى أن: (الآيات الكريمة يمكن تفسيرها باعتبار أن المسيح قد ولد ولادة عادية أو «مفهومة» مثل أي طفل بشري آخر وعاش حياة عادية.. إلّا من توهج رسالته العظيمة، وأن ذلك داخل في نطاق الفهم البشري).

أقول إن كان هذا ما هدف له الأخ الصادق ـ ورغم أننا لا نأخذ بهذا التفسير وسنوضح في مقالات تالية أوجه معارضتنا وأوجه الخلل التي نراها تدفع إلى مثل هذا التصور ـ فإنه أيضاً كان في حاجة إلى أقوال المفسرين، فهو واجد فيها ما يساعده على جزء كبير من افتراضاته التي دفعه إليها إنكاره للمعجزات وتصوره أنها منافية للعقل والقانون الكوني، وذلك دون حاجة إلى ما تبناه من دراسة للرمز في القرآن.

ولنبدأ من حيث بدأ الأخ الصادق النيهوم، فنتناول

الحديث عن الكفالة وامتداد زمنها، ثم نتناول قصة ميلاد عيسى ومعجزاته، لننتهي إلى وفاته ورفعه.

ويقول الزمخشري في كشّافه وهو يفسر قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[1]، ويجوز أن يبدل - أي أن تكون (إذ قالت) بدلاً، من (إذ يختصمون) على أن الاختصام والبشارة وقعا في زمان واسع، كما تقول: لقيته سنة كذا.

ثم نجد في قصة الميلاد، ابتداء من النفخ وحملها مروراً بانتباذها مكاناً قصياً إذ جاءها المخاض، وانتهاء بالميلاد ومجيئها قومها تحمله، أقول نجد أقوالاً للمفسرين نختار منها للأخ الصادق ما يلي:

أورد القرطبي في تفسيره: (وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن اللّه تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأمهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولداً، وأن اللّه جعل الماءين جميعاً في مريم، بعضه في رحمها وبعضها في صلبه، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها، لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في

(1) سورة آل عمران، الآية: 45.

صلبها في رحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك)!

ولا بدّ لنا من الإشارة إلى ما أورده القرطبي أيضاً من تعليقه على: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[1] فقد أورد (وقيل ما استبعدت من قدرة اللّه تعالى شيئاً، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد: أمن قبل زوج في المستقبل أم يخلقه اللّه ابتداء)؟.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾[2]، أورد ابن كثير: (فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾[3] فهذه الفاء للتعقيب بحسبها).

وأورد الزمخشري في تفسيره (﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾، وقيل: كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل: حملت من الزنا، خاف عليها قتل الملك، فهرب بها).

وأورد ابن كثير القول بأنه: (وقال وهب بن منبه

(1) سورة آل عمران، الآية: 47.
(2) سورة مريم، الآيتان: 22 ـ 23.
(3) سورة المؤمنون، الآيات: 12 ـ 14.

ذهبت هاربة فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق).

وأورد ابن كثير في حديثه عن النخلة: (وقيل مثمرة، قال مجاهد: كانت عجوة). وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾، قال ابن عباس: المراد بـ(من) جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها.

وأوردت التفاسير أن (السري) في قوله تعالى ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1]، إنما يقصد به ـ وعلى رأي الجمهور ـ الجدول الذي كان قريب جذع النخلة.

فإذا أضفنا إلى هذا ما أورده ابن العربي في أحكام القرآن في كون قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[2] إنما هو أمر بتكليف الكسب في الرزق، وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسّب، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

قال علماؤنا: كان قلبها فارغاً ففرغ اللّه جارحتها عن النصب، فلما ولدت عيسى، وتعلق قلبها بحبه، وكّلها اللّه إلى كسبها، وردّها إلى العادة في التعلق بالأسباب، وإذا ما

(1) سورة مريم، الآية: 24.

(2) سورة مريم، الآية: 25.

(3) سورة آل عمران، الآية: 37.

أكملنا صورة ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام بما أورده القرطبي من قول الكلبي: (ولدت حيث لم يشعر بها قومها، ومكثت أربعين يوماً للنفاس، ثم أتت قومها تحمله)!

وإذا ما ذكرنا أن (الفاء) وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه وحسب تكلف الكسب في الرزق والأكل من الثمرات والشرب من السرى والاطمئنان النفسي أمر نترك تقديره.

وإذا ما التفتنا إلى ما أورده القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[1] حيث قال: (روي أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن اللَّه تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي! الذي كانت انتبذت فيه).

بعد كل هذا، وبعد تذكر قول ابن عباس: (ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها)، يستقيم للأخ الصادق فهم كون عيسى ابن مريم قد كلّم الناس في المهد وكهلاً. وقد لاحظ القرطبي أنه: لو كان يدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا يتكتم!

ويذهب الزمخشري إلى (وكهلاً) عطف عليه، أي عطف على (في المهد) في محل النصب على الحال، بمعنى: (ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، ومعناه: يكلم الناس

(1) سورة مريم، الآية: 27.

في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي ستحكم فيها العقل ويُستنبأ فيها الأنبياء).

ويذهب الطبري في تفسيره أن الله إنما أخبر بهذا من أمر المسيح احتجاجاً به على القائمين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى الباطل، وأنه كان (منذ أنشأه) مولوداً طفلاً ثم كهلاً، يتقلب في الأحداث، ويتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام، من صغر إلى كبر، ومن حال إلى حال، وإنه لو كان، كما قال الملحدون فيه، كان على ذلك غير جائز عليه. والخلاصة أنه (أعلمهم أنه كان كسائر بني آدم).

حدّثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] يقول: يكلمهم صغيراً وكبيراً.

حدثني المثنى قال، حدثنا إسحاق قال، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، ويكلم الناس في المهد وكهلاً، وقال: يكلمهم صغيراً وكبيراً.

وأورد القرطبي في تفسيره ـ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ـ عدة أقوال.. منها: والصحيح أن (من) في معنى الجزاء و(كان) بمعنى يكن، والتقدير من يكن في المهد صبياً فكيف نكلمه؟! كما تقول كيف أعطي من كان

(1) سورة آل عمران، الآية: 46.

لا يقبل عطية، أي من يكن لا يقبل. وقيل: المعنى كيف تكلم من كان في سبيله أن يقوم في المهد لصغره.

أما الحديث عن تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإعداده لأن يجعله اللّه نبياً فلا نعتقد أنه محل جدل على أن نذكر دوماً أنه عبد اللّه أتاه الكتاب وجعله نبياً. وقد أورد (متى) وذكر (مرنابا) أنه: (1) ولما مات هيرودوس ظهر ملاك الرب في حلم ليوسف ـ في مصر ـ قائلاً (2) عد إلى اليهودية لأنه قد مات الذين كانوا يريدون موت الصبي (3) فأخذ يوسف الطفل ومريم ـ وكان الطفل بالغاً سبع سنين من العمر ـ وجاء إلى اليهودية حيث سمع أن آرخيلاوس بن هيرودس كان حاكماً في اليهودية (4) فذهب إلى الجليل لأنه خاف أن يبقى في اليهودية (5) فذهبوا ليسكنوا في الناصرة (6) فنما الصبي في النعمة والحكمة أمام اللّه والناس (7) ولما بلغ يسوع اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى (8) ولما تمت صلواته انصرفوا بعد أن فقدوا يسوع لأنهم ظنوا أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم (9) ولذلك عادت مريم مع يوسف إلى أورشليم ينشدان يسوع بين الأقارب والجيران (10) وفي اليوم الثالث وجدوا الصبي في الهيكل وسط العلماء يحاجّهم في أمر الناموس (11) وأعجب كل أحد بأسئلته وأجوبته قائلاً: كيف أوتي مثل هذا العلم وهو

حدث ولم يتعلم القراءة؟ (12) فعنفته مريم قائلة يا بني ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام ونحن حزينان! (13) فأجاب يسوع ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدّم على الأب والأم (14) ثم نزل يسوع مع أمه ويوسف إلى الناصرة (15) وكان مطيعاً لهما بتواضع واحترام.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨﴾[1]، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾[2].

وقد: (سكتت الأناجيل عن المسيح من عهد أن كانت سنه اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ تسعاً وعشرين)، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[3].

ثم نجد رواية برنابا في الفصل العاشر عن (يسوع - وهو ابن الثلاثين - يتلقى على جبل الزيتون الإنجيل من الملاك جبريل) وهي تجري على الوجه التالي:

(1) سورة آل عمران، الآية: 48.
(2) سورة مريم، الآيات: 29 - 33.
(3) سورة آل عمران، الآية: 46.

1 ـ ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر كما أخبرني بذلك نفسه صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً.

2 ـ وبينما كان يصلي في الظهيرة وبلغ هذه الكلمات (يا رب برحمة) وإذا بنور باهر قد أحاط به وجوق لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون: (ليتمجد اللّه).

3 ـ فقدم له الملاك جبريل كتاب كأنه مرآة براقة.

4 ـ فنزل إلى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل اللّه وما قال اللّه وما يريد اللّه حتى أن كل شيء كان عرياناً مكشوفاً له.

5 ـ ولقد قال لي: صدّق يا برنابا أني أعرف كل نبي وكل نبوة، وكل ما أقوله إنما قد جاء في ذلك الكتاب.

6 ـ ولما تجلّت هذه الرؤيا ليسوع وعلم أنه نبي مرسل إلى بيت إسرائيل كاشف مريم بكل ذلك قائلاً لها: إنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد اللّه وإنه لا يجدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها.

7 ـ فلما سمعت مريم هذا أجابت ـ يا بني إني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد فليتمجد اسم اللّه القدوس ـ .

8 ـ ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ

﴿وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]. أما عن المعجزات فنعرض لقول بعض المفسرين في آيات المائدة، فنجد ابن كثير يورد القول: إن المائدة لم تنزل، إذ لم ينصّ القرآن على نزولها بالفعل، وإن الطالبين للمائدة قد عدلوا عن طلبها، إذ سمعوا اللّٰه ينذر بهذا العذاب المنقطع النظير لمن يفكر بعد نزولها:

(.. عن مجاهد قال: هو مثل ضربه اللّٰه ولم ينزل شيء.. وعنه: مائدة عليها طعام أبوها حين رضي عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم، وعن الحسن: لما قيل لهم ـ عن العذاب ـ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل. وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوّى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متوافراً ولا أقل من الآحاد).

ومن المناسب أن نورد ملاحظة الأستاذ فتحي عثمان[2] أن: آيات القرآن قد سكتت عن نزول المائدة

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان: 48 ـ 49.

(2) د. محمد فتحي عثمان: باحث إسلامي من مصر، ولد في المنيا عام 1928، حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة، وليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية، وعلى الدكتوراه في دراسات الشرق الأدنى من جامعة بريستون بأمريكا. عمل =

فعلاً، ومن الجائز أن القوم قد انصرفوا عنها بعد النذير، خاصة وأن طالبيها هم حواريو المسيح الذين يؤمنون بالله ويخشون عذاب الآخرة.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس: قالت قريش للنبي ادع لنا ربك أن يجعل (الصفا) ذهباً ونؤمن بك! قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم.. فدعا، فأتى جبريل وقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: باب التوبة والرحمة!.

أما في خاتمة أمر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فيكفينا أن نتذكر قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

وقد قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ

= مدرساً في التعليم الثانوي والأزهري، ومديراً للترجمة بالإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر. من مؤلفاته: (المدخل إلى التاريخ الإسلامي) و(الدين في موقف الدفاع) و(الفكر الإسلامي والتطور) و(السلفية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة) وغيرها.

(1) سورة النساء، الآيتان: 157 ـ 158.

﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾[1].

وهكذا..

لو كان هدف الأخ الصادق النيهوم هو إعادة المسيح إلى العالم الإنساني البسيط تأكيداً لمبادئ القرآن نفسه.. ولو كان كل ما يهمّ الأخ الصادق النيهوم هو أن يجعل الإنسان يعرف أن عيسى المسيح الذي رفعته الثقافات البدائية إلى مصاف الآلهة ـ أو أنصاف الآلهة ـ إنما كان في الواقع مجرد بشر نبياً.

أقول لو كان هذا هو هدف الأخ الصادق النيهوم، وكان يستهدف أن يفهم قصة ميلاد المسيح وحياته في حدود التفسير العقلي العادي أو العلمي، لكان في حاجة إلى العودة إلى التفاسير، ولأسعفته ولجنبته أن يرمي مريم أنها أتت شيئاً فرياً أو أنها أتت ببهتان افترته بين يديها ورجليها.

*** ما لا يقول به المفسرون وما لا نقول به:**

ونحن لم نجد من يقول، ولن نقول أبداً، إنه تجاوز المماراة في عيسى ابن مريم، أو القول به على أمه مريم البتول، التي أحصنت فرجها، ورميها بأنها أتت بهتاناً عظيماً، تماماً كما نرفض قول القائلين به على الله شيئاً إدّاً.

(1) سورة آل عمران، الآية: 55.

(8)
منطقة الخطأ
في خلفية النيهوم الفلسفية

أعتقد أنه من المنطقي أن أستأذن القارئ في أن أضمّن مقالتي اليوم، والتي أحاول فيها تسليط الأضواء على (منطقة الخطأ في خلفية النيهوم الفلسفية) بعضاً من الشرح الوافي لما اعتبره الخلفية الإسلامية الحقة التي تنبغي للمسلم في العالم المعاصر. ولا يفوتني أن ألاحظ مرة اخرى أنه يهمني أن نتفق أنه: (ليس فيما أكتب ملاحظاً أي إنكار للحق الطبيعي للحي في أن يفكر ويقول، وإنه لحق عرفنا الإسلام يقدره ويحميه).

وبعد، فإنني استأذن الأخ الصادق النيهوم في أن (نحرِّر) موضع المناقشة: ورغم أن الأخ الصادق أظهر دوماً أننا لا نختلف في تصورنا للإنسان المفكر (!) ولا نختلف في طريق تعرفه إلى عالم الشهادة.. أو العالم المادي من كون وحياة.. إلخ. ورغم أن الأخ الصادق أظهر دوماً إيمانه المطلق بأن اللّه هو الحقيقة الفكرية الكبرى التي يستنتجها العقل من الطبيعة ويرتاح بالوصول إليها من ألم الفراغ والشك والجحود والإنكار.

ومع أن موضع المناقشة كان يمكن أن (يحرر) في موضع واحد هو: ما هي طريق الوصول إلى حقائق عالم (الغيب)، وما هو الوحي الإلهي والنبوة.

* ومع أنني كنت أستطيع ـ إن اكتفيت بحصر المناقشة في طريق إلى حقائق عالم (الغيب) والوحي والنبوة ـ أيضاً أن أدمج الحديث عن (المعجزة) في هذا الجانب، باعتبارها جزءاً من ظاهرة النبوة.. إلا أنني رأيت أن تبدأ النقاش من البداية، فنتحدث عن الإنسان المفكر وكيف يكتسب المعرفة، وما هو تفسير أصل الكون والحياة والإنسان الذي نرتضيه، فنعرض للفرض المادي ونناقشه، وننتهي للفرض الغيبي ونحققه، فإذا انتهينا إلى أنه الحق.. بدراسة ظاهرة النبوة، فإن طريقنا إلى عالم الغيب سيكون سهلاً ميسوراً.

*** الفكر بين المذهب المادي والمذهب الغيبي:**

ولا أريد أن أثقل عليك ـ أيها القارئ العزيز ـ بمقدمات طويلة عن الفكر والتفكير وصعوبة التمييز بين التعليم والتذكر من جهة والفكر والتفكير من جهة أخرى. كما لا أريد أن أنضم إلى القائلين بأن التفكير لا يشمل أكثر من التعليم والتذكر، ولكن لنتفق أن التفكير يشمل: حلّ المشكلات، واتخاذ القرارات، والإبداع والتخيل والحلم، ولنسلم أن جانب حلّ المشكلات الذي تعرض للدرس أكثر، وأن هذه الدراسة قد أوضحت أن (التفكير) يمكن أن يدرس كإمكانية للنشاط الإنساني الذي يهتم بخطوات الحصول على المعلومات ـ تلك الخطوات التي يمكن أن تطوّر إلى (استذكار) لنتائج معروفة لدينا مقدماً ـ

وبعمليات خاصة ومحددة (لا نعرفها!) يستنتج معلومات يمكن اعتبارها - إلى حدٍ ما، أو بوجه ما - جديدة !! والمهم هنا ملاحظة هذه العمليات الخاصة والمحددة وكوننا لا زلنا لم نعرفها، وإن كان البعض يشير إلى (أن العمليات والخطوات التي تشكّل التفكير لعديدة ومتنوعة ومعقدة)!.

وخلاصة ما سبق: (التفكير هو اعمال معلومات سابقة أو الحصول على معلومات من المحيط لإيجاد حلّ يهدينا سواء الطريق)!

*** التفكير والمعرفة واللغة والعلم:**

ويقول (أوجرن) إن أي ابتكار لا بد وأن تسبقه حصيلة من المبادئ الأولية التي تكون الإطار الفكري.

واللغة أصل المعرفة وأول خطواتها وأهم ركن من أركانها، وقد قيل (إن العلم لغة محكمة البناء)!

ونشأة الألفاظ الأولية غامضة غموضاً يجعلنا نعدّها إلهامية لا سبب لها وهي ضرورية جداً للمعرفة الإنسانية.

والعلم بالأسماء أول العلم بالأشياء..

وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1]!

(1) سورة البقرة، الآية: 31.

*** لنعلق سؤالاً أمام الماديين؟!:**

ولا تفوتنا هذه المناسبة دون أن نعلق سؤالاً أمام الماديين، فنسألهم: ما هو أصل المعرفة عندكم؟!.. وكيف اكتسب أول إنسان ـ أو أول مجموعة إنسانية ـ الإطار الفكري الذي تحرك ـ أو تحركوا ـ به وأبدع أو أبدعوا؟!.. بل ما هي نشأة الألفاظ الأولية عندكم؟!

قد يعزون الأمر إلى وقوف الإنسان على رجلين اثنين ـ أو رفعه قامته! ـ مما أعفاه من استخدام فكّه وأسنانه، وبالتالي تعطلت هذه الأعضاء، ونجم عن ذلك تقلص العضلات والعظام الصدغية، واتسع مجال النمو للجمجمة ـ وبالتالي المخ.

ومع أن التجارب نقضت هذا الافتراض، فاتساع الجمجمة لم يتبعه اتساع في المخ، إلّا أننا سنناقش الماديين بوجهة أخرى، وسنسألهم: وماذا بعد اتساع مجال النمو للجمجمة.. واتساع مجال النمو للمخ؟!

كيف اكتسب الإنسان المعرفة؟!.. وكيف يمكنني أن أعتقد بمبادئ استنتاجاتي، إذا كان الحادث الخارجي هو وحده الذي أودعها في نفسي؟.. وأنّى لأمور هي حصيلة الظروف وحدها أن تكون مفتاح الطبيعة؟.. وكيف كان للحادث الخارجي أن يودع نفس استنتاجاتها؟.. وكيف للظروف وحدها أن تعطيني حصيلة لأمور ما؟.. وأين الإطار المبدئي الذي يمكنني من تلقيها والإفادة منها؟!

ثم انظروا إلى (لينين)[1] ـ وهو من أعظم أمخاخهما ـ وهو يقول: (ليس الوعي إلا انعكاساً للوجود، وهو في أحسن الأحوال انعكاس صحيح على وجه التقريب).

وإنني لأتساءل: من الذي سيقرّر ما إذا كانت الحالة الراهنة، أو الوعي المادي خاصة هو (أحسن الأحوال)؟!

*** مزيد من الأسئلة للماديين والجدليين:**

سيقول الماديون الجدليون: إن هذا خلط بين مادية ساذجة (كمادية هلفيتيوس[2] وهولباخ)[3] وبين المادية الجدلية.

سيقولون:

1 ـ إن ثمة حركة جدلية في قلب الطبيعة.

2 ـ وبهذه الحركة الجدلية (يصير) الجديد إلى ضده ليندمج في مركب آخر.

ولا شك أن جميعنا يعرف كيف أن فكرة من الأفكار

---

(1) فلاديمير لينين: (1870 ـ 1924)، زعيم الثورة الروسية ومؤسس الاتحاد السوفيتي.

(2) كلود أوريان هلفيتيوس: (1715 ـ 1771)، فيلسوف فرنسي، صاحب كتاب (الإنسان وملكاته وتربيته) نشر بعد وفاته.

(3) بول هنري هولباخ: (1723 ـ 1789)، فيلسوف عارض الديانة المسيحية وأيّد وجهة النظر المادية.

- في فلسفة هيجل[1] - تستدعي فكرة أخرى، وكيف أن كل فكرة تنتج ضدها. (وإني لأعرف أن باعث هذه الحركة الواسعة هو الجذب الذي يحدثه المستقبل في الحاضر، والذي يحدثه الكل - حتى قبل أن يعرف - في الأجزاء).

فنحن نعرف أن الديالكتيك يقوم على أساس:

1 - أن الكل يتحكم في أجزائه.

2 - وأن الفكرة تميل من تلقاء ذاتها إلى الاكتمال.

3 - وأن الارتقاء تركيبي متعدد الأبعاد.

فكل فكرة تضمّ في ذاتها وتتمثل جملة الأفكار السابقة، وبنية التصور ليست مجرد تراكم عناصر ثابتة يمكن عند الاقتضاء أن ترتبط بعناصر أخرى لتولد مركبات أخرى، بل هناك تكامل وانتظام ووحدة.

فنحن - وكما يقول سارتر[2] - نعرف جدل الأفكار،

---

(1) جورج هيجل: (1770 - 1831)، فيلسوف ألماني، كتب في الأخلاق والجمال والتاريخ والدين. نادى بالفلسفة المثالية والتي على أساسها قامت الفلسفة السياسية الألمانية لاحقاً ومذهب المادية الجدلية عند ماركس. طرح مذهبه وآراءه الفلسفية في مؤلفات عدة منها: (علم المنطق) و(موسوعة العلوم الفلسفية).

(2) جان بول سارتر: (1905 - 1980)، فيلسوف وجودي فرنسي، أعلن عن آرائه في مؤلفاته المختلفة في المقالات والروايات والقصص والمسرحيات. ولد بباريس وتعلم بها. قاتل ضمن القوات الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية. أسس مجلته الشهيرة (الأزمنة الحديثة) عام 1945. من مؤلفاته: (الوجود والعدم)، (الغثيان)، (الذباب)، (عاصفة على السكر).. وغيرها.

وأمره معروف لدينا، ولكننا نريد أن نقول إن الديالكتيك حركة مفاهيم، ونحن نتساءل عما قبل تكوّن المفاهيم، وبمعنى أوضح، أن قوام الاغتناء الديالكتيكي (الجدلي) هو الانتقال من مجرد إلى واقع من مفهوم إلى نقاش (أو جدل) وتكامله في مفاهيم كلية وهكذا.. ونحن لا زلنا في المرحلة الأولى ـ مرحلة الملاحظة والاستنتاج ـ أي سبيل معرفة معلومات عن المحيط من حولنا.. نحن نقول ـ والعلم يقول ـ إن المادة قاطرة تحمل على ظهرها حركات وطاقة، وهي محكومة من الخارج، وتخضع لقوى تأتيها دوماً من غير ذاتها، سمّها (الظروف) إن شئت!

وإن العلم، في كثير من الأحيان، يقرّ وجود علاقات تابعية بين الظاهرات ويختار المتحول المستقبل وفقاً للسهولة. ولكن أوضح خصائص المادة إحصائية، وعالم العلم نفسه كمي، والمادة تتألف من عناصر وذرات وإلكترونات وبروتونات ونيوترونات... إلخ.

وهذه العناصر يُضاف بعضها إلى بعض دون أن يدخل بعضها في بعض.

* والخلاصة:

إن عالم الشهادة والحس ـ وبناء على المشاهدة والملاحظة ـ إنما هو عالم متغير سائر وفقاً لسنن، وحركته وارتباط أجزائه وانتظام قوانينه وسننه إنما هي المظاهر التي يدرسها العلم، والعلم لا يكثر الجدل حول الجوهر.. بل

يقصر الاهتمام بمظاهر الظاهرة وأعراضاً دون تحديد للجوهر. وقوام الاغتناء العلمي هو المشاهدة والملاحظة والتحليل والتصنيف وفرض الفروض.. إلخ.

وعالم العلم إحصائي يهتم بالعلاقات وفهم القوانين إحصائياً ومن الخارج!

وعالم العلم كمي، والكمية نقيض الوحدة الجدلية!

ولا يملك العلم أي رمز للتعبير عن الكيفية من حيث هي كيفية.. وبالمناسبة، فإن هناك مغالطة أوردها (إنجلز)[1] في حديثه عن التراكم الكمي الذي يؤدي إلى تغيّر كيفي!

فقد ضرب (إنجلز) مثلاً بغليان الماء وتحوله إلى بخار، متناسياً أن (شعورنا) بالماء الذي يغلي هو كيفية، كما أن (شعورنا) بالبخار المتطاير كيفية، أما إن قصد المقاييس الكمية لدى العلماء فإن كلاً من (الحالتين) ـ هي تبدل كمي ـ عالم العلم تحليلي تصنيفي، وحتى في مجال نظرية (دارون)[2] فإن التطور انتقائي تصنيفي لا ديالكيتي تركيبي!

---

(1) فردريك أنجلز: (1820 ـ 1895)، اشتراكي من ألمانيا، أسهم مع كارل ماركس في وضع أسس النظرية الاشتراكية، وفي صياغة البيان الشيوعي عام 1848، من مؤلفاته: (معالم الاشتراكية العلمية) و(الدولة والملكية الخاصة).

(2) تشارلس دارون: (1809 ـ 1882)، عالم طبيعي إنجليزي، اشتهر بنظريته في (النشوء والارتقاء) من خلال كتابه (أصل الأنواع) عام 1859.

وأخيراً، ما رأي الماديين الجدليين في الثابتات المادية العددية التي يقول بها العلم؟!

*** السؤال الهام:**

ولنعد للماديين الجدليين، ونعيد كلمة أعظم أمخاخهم ا ـ لينين ـ وهو يقول: (ليس الوعي إلّا انعكاساً للوجود، وهو في أحسن الأحوال انعكاس صحيح على وجه التقريب)، ولنسأل الماديين: إذا كان الوعي الذي هو انعكاس للوجود ـ في أحسن الأحوال! ـ لا يعدو أن يكون على وجه التقريب ثمرة جزئية ولحظة من تطور تركيبي تالٍ.

إذا كان الأمر كذلك، وهو (أي الوعي) لا يعدو أن يكون حلقة من سلسلة بدايتها ونهايتها بعيدتان كل البعد، فكيف وبأية ضمانة عرفتم أو (وعيتم) أن الديالكتيك (أو الجدل) هو منهج البحث في بنية الكون والحياة وتاريخ الإنسان؟! وبأية درجة من اليقين تتحدثون و(الوعي ليس انعكاساً للوجود، وهو في أحسن الأحوال انعكاس صحيح على وجه التقريب)؟!

*** نظرتهم في الفكر تكشفهم:**

وهكذا، فإن نظرة الماديين جميعهم والجدليين منهم أيضاً، تكشف أنهم ضد للنزعة العلمية والعقلية السليمة، وهم مثاليون ميتافيزيقيون لقولهم بالديالكتيك المثالي وفرضه على أصل الكون والحياة.

وإني لأتساءل: (بصدد المادي الذي يأخذ على المثاليين أنهم إذ يردون المادة إلى الفكر يعمدون إلى الميتافيزيقا)، أية معجزة يمكن أن تعفي المادي من أنه يعمد إلى المتيافيزيقا حين يرد الفكر إلى المادة؟! إن التجربة لا تقول شيئاً في تأييد صنيعه، وإنما هي تكتفي بأن توضح الارتباط بين ما هو فسيولوجي وبين ما هو نفسي، وهذا الارتباط يمكن في الواقع أن يؤول ألف تأويل وتأويل.

ثم إذا كان الحادث النفسي يحدّده الحادث البيولوجي تحديداً صارماً، وإذا كان الحادث البيولوجي تحدّده حالة العالم الفيزيائية ـ فإننا نفهم أن الشعور الإنساني يمكن أن يعبّر عن الكون كما يعبر معلول عن علته، لا كما تعبر فكرة عن موضوعها. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن لعقل أسير تتحكم به الأشياء الخارجية، وتسيّره بسلاسل من الأسباب العمياء، أن يظل عقلاً؟!

* المهزلة:

وتكتمل مهزلة هذا الفكر الجدلي إذا ما قابلت أحد المؤمنين به وادعى لك أنه يفكر بالنظرة الموضوعية، وهو منغمس في إيمانه إلى قمة رأسه! ، وأراد أن يحاجّك في أصل المعرفة الإنسانية وتطورها.. أو أراد أن يحاجّك في الظاهرة الدينية... إلخ.

فأول ما يورده لك مثل هذا الإنسان الذي هو في نظر

العلماء (الذين يعتبرون أن التفكير كالإحساس محدود داخل نطاق المفاهيم والمقاييس الفكرية التي تكوّن الإطار الفكري)، كالحصان الذي يجرّ العربات، وقد وضُع على عينيه إطار، فهو لا يرى من الأشياء إلّا تلك التي تقع في مجال إطاره.

أول ما يورده لك مثل هذا الإنسان! هو المثل الذي يقول: (الحاجة أم الاختراع)، ويحاول بعد ذلك إقناعك بأن الاختراعات وتطورات الاختراعات قد أدّت إلى تطور الحياة الإنسانية وترقيها في مراحل تاريخية ما أنزل اللّه بها من سلطان!!

كما أنه إن ناقشك في الظاهرة الدينية وتردد المشكلة الغيبية ـ بانتظام ـ على الضمير الإنساني في جميع مراحل تطوره، تجده يحاول أن يعتبر الدين مجرد عارض تاريخي للثقافة الإنسانية.

*** هيا بنا، فلنهبط ولنقض على أباطيلهم:**

وإلى لقاء نعرض فيه إلى أباطيلهم، ونجري مقارنة بين الفكر العلمي والفكر الإسلامي ـ كما نراه ـ ونتناول بعدها المذهب المادي من أصل الكون والحياة وكذلك المذهب الغيبي في أصل الكون والحياة، فنعرض لظاهرة النبوة والظاهرة القرآنية وعالم الغيب، وكل هذا، ومن خلاله، نكشف منطقة الخطأ في تفكير اليهوم.

*** شهادة وإنصاف:**

ولكن، لا بدّ لي أن أقول ـ وكما أوضحت في مقال (هكذا تكلم النيهوم) إن الأخ الصادق يتجنب الكثير من أخطاء الماديين الجدليين وغيرهم، ولكنني استنسبت أن أبدأ مع المناقشة من أولها.. نثبت ما صحّ له من خلفية ونشير إلى ما نعتقده منطقة خطأ.

(9)
هكذا يعامل القرآن الكريم عالم العلم

لقد انتهينا في مقالنا الأخير إلى إجراء مقارنة بين المادية الجدلية والفكر العلمي، وكيف أن قوام الاغتناء في الفكر العلمي هو المشاهدة والملاحظة والتصنيف والتحليل وفرض الفروض وتحقيقها.. وهكذا دواليك بعكس الفكر الجدلي الذي قوام اغتنائه هو الانتقال من مجرد إلى واقع ومن مفهوم إلى نقاش (أو جدل) وتكامله في مفاهيم كلية.. وهكذا، كما أشرنا إلى أن الفكر العلمي إحصائي يهتم بالعلاقات وفهم القوانين إحصائياً ومن الخارج، فلا يقول بجدلية في قلب الأشياء، أو حتمية تدفعها من داخلها.. كذلك أوضحنا أن عالم العلم كمي، والكمية نقيض الوحدة الجدلية، ولا يملك العلم أي رمز للتعبير عن الكيفية من حيث هي كيفية، ثم أوضحنا أن عالم العلم تحليلي تصنيفي، وحتى في مجال نظرية دارون فإن التطور انتقائي تصنيفي لا

ديالكتيكي تركيبي، وأخيراً أشرنا إلى ما يقول به العلم من الثابتات العددية... إلخ.

* **القرآن وعالم العلم:**

مما يلفت نظر الباحث والدارس للقرآن الكريم أن القرآن لا يُكثر الجدل حول جوهر الأشياء، بل يقصر الاهتمام ويوجّه الأنظار إلى مشاهد الكون وآفاقه ومظاهر الظاهرات واستطراداتها، فهو يعدّد المظاهر المختلفة الدالة على وجود الله دون تطلع إلى معرفة ذات الله جلّ شأنه أو محاولة لإدراك كنهه.

ومن المقرر علمياً أنه ليس مما ينفي وجود الأشياء العجز عن معرفة حقيقتها أو جوهرها، وإلّا، وكما قال العلاّمة الفلكي المشهور (كاميل فلامريون) في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة). فإنا (نرانا نفكر، ولكن ما هو الفكر؟ لا يستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال. ونرانا نمشي، ولكن ما هو العمل العضلي، لا يعرف أحد ذلك. أرى أن إرادتي قوة غير مادية، وأن جميع خصائص نفسي غير مادية أيضاً، ومع ذلك فمتى أرفع ذراعي، أرى أن إرادتي تحرك مادتي، فكيف يحدث ذلك؟ وما هو الوسيط الذي يتوسط للقوى العقلية في إنتاج نتيجة مادية. لا يوجد من يستطيع أن يجيبني على هذا أيضاً، بل قل لي: كيف يدرك العقل هذا؟ وأين مستقره؟ وما هي طبيعة العمل المخّي).

قولوا لي أيها السادة، ولكن كفى كفى، فإني أستطيع

أن أسألكم عشر سنين، ولا يستطيع أكبر رأس فيكم أن يجيب على أحقر أسئلتي.

والقرآن يثبت في نفوسنا الشعور، ويوجّهنا إلى إدراك أن الظاهرات التي تحدث إنما تتمّ باقتران بعض العلاقات بعضها ببعض اقتراناً متكرراً إحصائياً، ولكن السببية هي بتقدير اللّه صاحب الإرادة المطلقة الطليقة.

فالفكر الديني وإن كان يسلم بالسنن والقوانين الكونية المطرودة التي لا تبدل ولا تتحول على الأقل بالنسبة لنا نحن المخلوقين وبالنسبة لواقع الكون ـ إلّا أن اللّه ـ مع أنه جعل هذه السنن والقوانين تطّرد ولا تبدل ولا تتحول، غير مقيد بهذه السنن والقوانين فلا سلطان لها على إرادته وقدرته.

حقيقة إن الفكر الديني القرآني يرجّح أن الصورة الراهنة للكون هي الصورة المختارة الثابتة العاكسة لصفات اللّه وكماله واتجاه إرادته، وحقيقة إن الفكر الديني يستنتج من ثبات سنن الكون وقوانينه، ومن أقوال القرآن الكريم عن اطرادها وعدم تبدلها وتحولها، وعن أنها ما وضعت إلّا بالحق والقسط، وعن: (أن الكون في اتساعه ورحابته الهائلة، من الأوج إلى الحضيض يسير بنظام واحد في الذرات الصغيرة والمجرات الكبيرة، بمليارات نجومه وأفلاكه، هو الجد الذي لا لهو فيه، والحق وموازين القسط). أقول: إن للفكر الديني أن يستنتج من ذلك كله أن الخالق قد اختار للكون أبدع سنن الحق والخير والجمال

وأقامه على صورة الكمال الدائم الذي يرتضيه وجعله صورة عكست صفاته وأسماءه الحسنى التي صدر الكون عنها، ومع ذلك، فإن الفكر الذي يحيط هذه الإحاطة، متحرر من أسار الحتمية، ولا يتصور ـ الإله الأحر ـ الإرادة والقدرة.

وكما يقول صاحب العقل المؤمن: (فرق كبير بين هذا العقل وبين العقل الواقف عند حدود البناء المادي، القاصر عن تخطي تلك الحدود بالتفكير الحر الذي يتناول الكون قبل بدئه وبعد انتهائه ويصاحبه مرحلة مرحلة، ويأبى أن يتصوره أزلياً وأن يتصوره أبدياً، بل يحكم بأن الأزلية والأبدية للخالق وحده «وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم»).

وإنه ـ يا أخ صادق ـ لمقام سامٍ غاية السمو أن يكرم القرآن العقل الإنساني هذا التكريم! فيجعله يرى الكون هذه الرؤية، ويزويه بين عينيه، ويضعه بين يديه، ويقيمه فيه مقام الشهادة العظمى مع شهادة اللَّه الخالق والملأ الأعلى على الحقيقة الأساسية الكبرى التي قام بها بناء الوجود وصلاح العالم، وهي وحدانية اللَّه وقيامه على الوجود بالرعاية والرحمة.

وهكذا ـ يا أخ صادق ـ كان يمكنك أن تتحرر من أسار الحتمية وتنظر للمعجزة على اعتبار أنها تخط بالتفكير الحر من حدود البناء المادي إلى مقام الشهادة العظمى مع شهادة اللَّه الخالق والملأ الأعلى.

وهكذا ـ يا أخ صادق ـ كان يمكنك أن تنظر إلى

ظاهرة النبوة باعتبارها مظهر قيام اللّه على الوجود بالرعاية والرحمة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. والقرآن وهو يوجه الأنظار إلى آفاق الكون ومشاهد الطبيعة فإنه يعرض كوناً عاماً شاملاً.. كوناً تجري على مسرحه حوادث ويجري فيه تبدل وتغيير ويتميز بالحركة وتنتقل حوادثه من طور إلى طور، ولكنها حوادث مرتبط بعضها ببعض، ما بين سابق ولاحق بانتظام واطّراد. ولكن القانون المنتظم وسنّة اللّه إنما هو وهي جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من القوانين والسنن وهي بمجموعها مخلوقة منفعلة متأثرة خاضعة موجهة تحتاج إلى من يوجدها ويقدرها ويوجهها.

والقرآن ينبهنا إلى ما في السنن الكونية من صفة (الكمية) وقابلية العدد والحساب، كما يبدو في الآيات التالية:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ۝١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾[1].

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[2].

(1) سورة الحجر، الآيات: 19 ـ 21.

(2) سورة يس، الآية: 12.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[1].

كما نبّه القرآن الكريم تنبيهاً متكرراً واضحاً إلى ما في الطبيعة من اختلاف وما فيها من تشابه وعدم تشابه وما فيها من تنوع وأصناف. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾[2].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾[5].

وهكذا يعامل القرآن الكريم عالم العلم.

فالقرآن الكريم يدعو إلى النظر والمشاهدة والملاحظة

(1) سورة الرعد، الآية: 8.
(2) سورة الأنعام، الآية: 141.
(3) سورة الأنعام، الآية: 99.
(4) سورة الأنعام، الآية: 38.
(5) سورة النور، الآية: 45.

بشمول يمتد عبر الآفاق الواسعة الممتدة المتنوعة الدائبة الحركة والمليئة بالحوادث والتبدلات المتكررة بصورة توحي باطراد السنن وانتظام القوانين، وهذا هو عالم الشهادة الذي يشهده الإنسان فيدركه بحواسه، وبعقله وتفكيره ويستثمره لمنافعه ويتمتع بما فيه من جمال.

والقرآن الكريم يدعو إلى النظر والتأمل والتفكير جاعلاً من هذا المنطلق طريقاً للوصول لله الخالق المقدر للسنن والقوانين.

*** إشارة إلى منطقة الخطا الأولى:**

وهنا لا بدّ من وقفة لنضع إصبعنا على منطقة الخطأ الأولى في (خلفية الأخ الصادق النيهوم الفلسفية)، فالأخ النيهوم قد أخذته (الطبيعة الثابتة والفطرة المسنونة والسبيل المطروقة) فلم يستطع منها فكاكاً، ولقد وقف بعقله عند حدود البناء المادي ولم يتخط تلك الحدود بالتفكير الحر الذي لا يتصور الإله الأحر الإرادة والقدرة.

ولكن القرآن في انتظارك ـ يا أخ صادق ـ يستقبلك بما يستقبل به العقل البشري من أنس وترحاب ويضع أمامك مفاتيح علوم الأرض والسماء ويشجعك على بحث كل شيء ورفع أستاره ومعرفة أسراره، ويخولك امتلاكه وتعريفه وتسخيره، ويذهب عنك ـ وعن الإنسان عامة ـ الروع والخوف من القوى المادية الجبارة، ويفتح لك

أبواب الطبيعة ويركبك فيها طبقاً عن طبق في أجواز الفضاء الكوني والأعماق النفسية. وكما يقول صاحب العقل المؤمن: (فأية كرامة أعظم من هذه؟! وأية نفس تأباها وترفض اليد التي تمتد بها إلّا أن تكون قد سفهت نفسها وجانبت الرشد ورضيت الضياع والوقوف موقف العجز والهوان على ذاتها وعلى العالم).

والذين يقفون عند الحدود المادية للكون ولا يرون بعقولهم من ورائه، هم الذين يأبون هذه الكرامة والرشد ويرفضون تبوأ هذا المقام المحمود، ويرضون لأنفسهم بالعجز وعدم التطلع إلى الكمال، ويحجرون على عقولهم أن تنتفع بما فيها من طاقات تؤهلها أن تكون من موازين الحكم والرأي في الكون ومن أدوات البحث عن النبأ العظيم والشأن الخطير الذي يعمره وينبث فيه! ويحملونها على أن تعيش حياتها آلة صماء أو قوة عمياء كتلك الآلات والقوى المادية التي تقف عند حدودها ولا تتطلع إلى ما وراءها.

وهم مهما كشفوا واستخدموا من أسرار التكوين والتخريب والقدرة على التسخير واختزال الأبعاد ومواجهة عوامل الفناء، ومهما صعدوا من أجواز الفضاء الكوني والكواكب، ونزلوا إلى أعماق الأرض والمحيطات، فإنهم بموقفهم المتحجر الخائف الواقف عند حدود المادة، قد برهنوا على أنهم ليسوا من الكائنات العليا، بل من الأحياء الدنيا التي لا تعرف حق لنفسها ولا حق الوجودا بل تعيش

بعقلية القطيع في ذهول إلّا عن الكلأ والسوم والرعي وعصا القهر التي تراها على رأسها، أما اليد التي أوجدتها وساقتها إلى ساحات رعيها وسعيها، وخوّلتها ما هي فيه من حياة ومتاع، وهي التي تحميها، وتدفع عنها وتحاول أن ترفعها إلى مستوى الرشد والحكم والاختيار والكرامة وحرية التطلع إلى النبأ العظيم الذي يُبنى به هذا الكون.. فهي لا تراها ولا تحاول أن تراها.

ومن هنا كان عماها عن رؤية اتساع الكون و(اتساع قدرة مالكه) واكتشاف أعماقه ومدى طاقات عقل الإنسان وقدرته على رؤية ما وراء ذلك البناء المادي العظيم، ومن العجيب أن ترضى هذه العقول الواقعة عند حدود المادة لنفسها وحياتها هذا الضيق أو الضنك بينما يناديها الكون بهواتفه التي لا عدد لها، ويدعوها القرآن بأنسه وترحيبه أن تنطلق وراء أشواقها الفطرية إلى المجهول الذي وراء حدود البناء المادي، وأن تحاول التعرف إليه كشأنها ودأبها مع كل مجهول.

*** حتى لا نقع في وهم بعض فلاسفة اليونان:**

أود أن أقول إن اللّه لم يضع قوانين وسنن الكون ليتقيد بها كالأغلال والأصفاد فهو حرّ الإرادة والقدرة ويجب ألّا نتوهم ـ كما توهم بعض فلاسفة اليونان ـ أن اللّه لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة.

وينبغي أن نتذكر دائماً أن كل شيء في الطبيعة معجز ومحير وأن إضافة شيء إلى الطبيعة من أعمال الخلق والإيجاد في ظروف استثنائية تقضي ـ الضرورة ـ بأحدث حجة حسية دافعة فيها، تلك الإضافة لا تزيد عجيباً ولا تستحق دهشة أكثر من غيرها من الموجود قبلها. وما هو القانون، وما هي الظاهرة سوى ما ذهب إليه (كولمب) من أن الظاهرة ضرورة!

فالمعجزة وقد قضت بها ضرورة فهي ظاهرة، وتكررها دليل وجودها، ثم لا ننسى أن القانون المنتظم والسنة الثابتة إنما هو وهي جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من القوانين والسنن. والأمور والأشياء من أولها إلى آخرها معجزات وآيات محيرات، ولو خلقناها بأيدينا لم يذهب ما بنا من حيرة ودهشة.

وبتعبير صاحب العقل المؤمن: (أقول هذا وأطيل، لأبين للذين تصدمهم المعجزات الحسنة المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد، وتصدّهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور الناس، إن أمرها أهون في التقدير مما يتصورون، وإنها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة، لأن اللّه يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين).

فدع عنك ـ يا أخ صادق ـ الرمز ودع تأول المعجزات في القرآن، فحديثه قاطع بوجودها و(القرآن المعجز الدائم

يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة، وعصا انقلبت حية، وطير خرج من طين، وعن كثير من الآيات بحديث صريح لا يقبل تأويلاً ولا تخريجاً غير ما يحتمله لفظه).

بقي أن أقول لك:

والحق أقول لك ـ كما يبدو من تتبع آيات الكتاب الكريم ـ إن هناك نوعين من حقائق الوجود، ولكل منهما طريق لكشف حقائقه فهناك عالم الشهادة أو عالم العلم والمشاهدة والحسي، والذي تحدثنا عليه، والقرآن الكريم يطالب بالنظرة في مشاهدة واستخدام السمع والبصر والفؤاد وكل أولئك كان عنه مسؤولاً، وهناك عالم الغيب والطريق الموصلة إلى حقائقه هي النبوة أو الوحي الإلهي.

(10)
خاتمة المطاف.. وأعمال تنتظرنا

لقد أوضحنا في مقالنا الماضي كيف يعامل القرآن الكريم عالم الشهادة والحس معاملة هي المعاملة التي انتهى إليها منهج الدراسة العلمية بعد رحلة شاقة طويلة، وانتهينا إلى القول: (إن هناك نوعين من حقائق الوجود، ولكل منهما طريق لكشف حقائقه، فهناك «عالم الشهادة» وعالم العلم والمشاهدة والحس، والذي تحدثنا عنه ـ والقرآن الكريم يطالب بالنظر في مشاهده).

وكان المقال قد أوضح تفصيلاً كيف طالبنا القرآن

الكريم ودعانا إلى النظر والمشاهدة والملاحظة بشمول يمتد عبر الآفاق الواسعة الممتدة المتنوعة الدائبة الحركة والمليئة بالحوادث والتبدلات المتكررة بصورة توحي باطراد القوانين، وهذا هو عالم الشهادة الذي يشهده الإنسان فيدركه بحواسه، وبعقله وتفكيره، ويستثمره لمنافعه ويتمتع بما فيه من جمال.

والقرآن الكريم يدعو إلى النظر والتأمل والتفكير جاعلاً من هذا المنطلق طريقاً للوصول لله الخالق المقدر للسنن والقوانين، وقد قلنا: (إن اللّٰه لم يضع الأغلال قوانين وسنناً ليتقيد بها كالأغلال والأصفاد، فهو حر الإرادة والقدرة، ويجب ألّا نتوهم ـ كما توهم بعض فلاسفة اليونان ـ أن اللّٰه لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة.

كذلك قلنا للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وتصدهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور الناس (إن أمرها أهون في التقدير مما يتصورون، وإنها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة لأن اللّٰه يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين). وختمنا بالقول: (وهناك عالم الغيب والطريق الموصلة إلى حقائقه النبوة أو الوحي الإلهي).

*** عالم الغيب:**

إن عالم الغيب غير مسلّم به عند المذهب المادي، إذ هو مبدأ متميز عن المادة، وعالم الغيب هو نقطة البداية

والنهاية في المذهب الغيبي، فالله خالق ومدبر الكون، وسبب أول ينبثق عنه كل موجود، وإليه المآب.

وكم كان بودي أن أتوسع فأبيّن أن هذا المبدأ هو الذي يتولى بيان أصل المادة الذي يبدو غامضاً موغلاً في الابهام في المذهب المادي، كما أن القوة الغيبية وإرادتها القادرة تسعفنا حين تعجز القوانين الطبيعية عن إعطاء تفسير واضح للظواهر، وكم تعجز هذه القوانين عن إعطاء تفسير.

والقوة الغيبية هي جواب الفكر الديني حين يفطن العلم لنطاقه المنتهى المحدود، فيما وراء السديميات السحيقة في البعد، وراء ملايين السنين الضوئية وربما ملياراتها، تمتد الهاوية التي لا قرار لها للانهائية التي يستحيل الوصول إليها، وحتى إدراكها بالنسبة للفكر العلمي، إذ لا يجد هذا التفكير موضوعه الخاص وهو الكم، والعلاقة والحالة.. فأي كم، وأية علاقة، وأية حالة؟

كل هذه الأسئلة لا معنى لها خارج حدود المادة، والعلم نفسه لا معنى له وراء السديميات الأخيرة التي تقف على الحدود بين عالم الظواهر واللانهائية واللامادية.

على العموم، فلنترك هذه الجوانب، ولنبدأ السير من النقطة التي يسلّم بها الأخ الصادق النيهوم، ولنصحّح ما نعتقده خطأ.

إن الأخ الصادق يوافق على أن المذهب الغيبي يعبر عن المطالب الفلسفية للعقل الذي يرمي إلى ربط الأشياء

والظواهر ربطاً منطقياً في تأليف متسق كما يوافق الأخ الصادق على أن المذهب الغيبي ينصب جسراً يتجاوز حدود المادة إلى مثل أعلى للكمال الروحي.. إلى الهدف الأساسي الذي لم تكف الحضارة عن الاتجاه نحوه.

*** منطقة الخطأ الثانية:**

ولكن الأخ الصادق، وهو يوافق على أن المذهب الغيبي يعبر عن المطالب الفلسفية للعقل، لا يرتب النتيجة المنطقية لذلك، والتي تجعل منك - متى سلمت بالقوة الخالقة والأمر القاهر لإرادتها العليا (كن) - ترى أن خلق المادة ينتج من هذا الأمر القاهر، وتطور هذه المادة سيكون طبقاً لأوامر إرادة توزع التوازن والاتساق اللذين قد يلاحظ علم البشر قوانينهما الثابتة، ولكن بعض مراحل هذا التطور ستخفى على الملاحظات المألوفة لرجال العلم دون أن ينطوي المذهب من أجل هذا على نقص ما، ففي هذه الحالات الاستثنائية نستعين بالحتمية الغيبية التي لا تعارض بينها وبين طبيعة المبدأ.

ولقد نجهل مؤقتاً القانون الذي يسيطر على ظاهرة ما زالت تخفى علينا طريقة حدوثها، ومع ذلك فإن المذهب يظل منسجماً منطقياً مع مبدئه الأساسي بما أن مثل هذه الظاهرة يمكن تسويغها في التحليل النهائي بناء على حتمية مطلقة طليقة.. هي إرادة الله التي تتدخل وتقضي بما تشاء.

*** وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً:**

أورد الأستاذ (سيد سابق)[1] في كتابه عن العقائد الإسلامية ما يلي: جاء في كتاب (الإسلام مع الحياة) بعنوان «العلم الحديث ورد الشمس»، جاء في قصص الأنبياء: أن يوشع بن نون كان في معركة مع أعداء اللّه، وكادت الشمس تغرب قبل أن ينتهي القتال، فخشي أن يعجزوه إذا امتد القتال إلى اليوم التالي، فقال للشمس: أنت في طاعة اللّه، وأنا في طاعة اللّه فأسألكِ أن تقفي حتى ينتقم اللّه من أعدائه قبل الغروب، فاستجاب اللّه الدعاء، ووقفت الشمس، وزيد في النهار حتى تمّ النصر ليوشع. وقال اللّه تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2].

قال المفسرون: إن موسى عليه السلام ومن معه هربوا من فرعون خوف القتل، ولما انتهوا إلى البحر، ولم يجدوا سبيلاً إلى ركوبه أوحى اللّه إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، وحينما امتثل ما أمر اللّه به تجمّع الماء على

---

(1) عالم مصري ولد عام 1915، وتخرج في كلية الشريعة بالأزهر، وصار عضواً في جماعة الإخوان المسلمين. اشتغل بدراسة الفقه. تولى عدة مناصب في وزارة الأوقاف بمصر، وقام بالتدريس في جامعات السعودية إلى وفاته في فبراير/شباط 2000، أصدر (فقه السُّنة)، في أكثر من مجلد، والعقائد الإسلامية.. وغيرهما.

(2) سورة الشعراء، الآية: 63.

الطرفين بعضه فوق بعض، حتى صار كالجبال، وخرج موسى وأنصاره، وتبعهم فرعون وقومه في نفس الطريق، فأغرقهم الله، وكان البحر يبساً في طريق موسى، وماء في طريق فرعون. وكذب الكافرون كلًّا من المعجزتين أو الحادثين:

أولاً: لأنها خرق لقوانين الطبيعة.

ثانياً: لو صحت لجاء ذكرها في الكتب الدينية، لأنها من الأحداث العالمية العجيبة.

وقرأت في جريدة الجمهورية عدد (13/ 12/ 1957) أن كتاباً في علوم الطبيعة ظهر حديثاً، وقد أثار ضجة كبرى في الأوساط العلمية ولدى المؤرخين حيث أثبت بالأرقام المحسوسة واقعة انشقاق البحر، ووقوف الشمس في كبد السماء. أما المؤلف فهو عالم روسي من علماء الطبيعة في جامعة أدنبدرج ودرس التاريخ والقانون والطب في جامعة موسكو، ودرس علم الأحياء في برلين وفي زيورخ، ودرس الطب النفسي في فينا، ولقد خرج المؤلف من أبحاثه التي استمرت أكثر من عشر سنوات إلى استنتاجات علمية تؤيد بدون قصد ما جاء في القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام.

وقد رأيت أن أنقل للقراء مقتطفات من الكتاب كما ترجمتها ونشرتها جريدة الجمهورية: قالت الجريدة، يقول المؤلف: إن نيزكاً هائلاً مرّ إلى جوار الكرة الأرضية في عهد يوشع خليفة موسى عليه السلام، ثم عادت الظاهرة إلى

الوجود بعد ذلك بسبعمائة عام، وهذه الظاهرة الكونية الهائلة تسيرها قوى خارقة غير مرئية تفسر المعجزات التي جاء ذكرها في الكتب السماوية والتوراة والإنجيل والقرآن.

إن اقتراب كوكب أو نيزك من الأرض يحدث ظواهر متعددة، منها أن دوران الأرض حول نفسها يقلّ أو يقف حتى يخيل إلى الناس أن الشمس قد وقفت في كبد السماء، ومنها انشقاق البحر وانعقاد أعمدة من الغمام في النهار والليل، ولقد مرّ كوكب في عهد الفراعنة فأمطر سيلاً أحمر طبع الأرض والنيل والبحر بلون الدم، وهذا ما يؤيد ما جاء في الآية الكريمة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾[1].

وقد تساقط هذا التراب الأحمر في جهات متفرقة من الأرض. إن المعجزة التي تخرق كل قوانين الفلك والطبيعة لا تصنعها سوى قدرة الخالق وحده.

لقد تمت المعجزة حين هرب موسى من اضطهاد فرعون مصر، فتابعه فرعون بجيوشه، ولكن انشق البحر، فمرّ موسى ومن معه بسلام حتى إذا أتبعهم فرعون وجنوده عاد البحر إلى سيرته الأولى، فانطبق على المطاردين وابتلع الرجال والفرسان ولم ينج منهم أحد.

ويقول المؤلف: إنه في العهد الذي يقابل عهد

(1) سورة الأعراف، الآية: 133

موسى، يقول المؤرخون الصينيون: إن الشمس آنذاك لم تغرب حتى لقد حرقت الغابات، وذاب الجليد. وهكذا لبثت الأرض ساكنة كأن قوة جبارة قد صنعتها ولا يعرف على وجه التحديد كم استمر وقوفها قبل أن تتابع دورانها حول نفسها مرة أخرى. ولكن هل تابعت الأرض دورانها في نفس الاتجاه؟ إن الأرض الآن تدور من الغرب إلى الشرق، فهل كانت هكذا دائماً؟

إذا رجعنا في الإجابة على هذا السؤال إلى الخرائط القديمة، فإن الإجابة هي% لا، لأن الخرائط التي رسمها قدماء المصريين في سقف أحد المعابد تدل على أن الأرض كانت تدور قبل وقوفها من الشرق إلى الغرب وهذا ما أكّده أفلاطون[1] في حواره عن السياسة من قبل حيث قال إن الشمس من قبل كانت تغيب حيث نراها تشرق ولعل هذا ما يفسر الآية الكريمة ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾[2].

*** ما اردت بهذا إلاّ مثلاً:**

وقبل أن يسارع بعض الحرفيين من الماديين ـ كما سارع بعض الحرفيين من الإسلاميين وأمسكوا بالمثل الذي

---

(1) أفلاطون: فيلسوف يوناني ولد وعاش قبل الميلاد، تتلمذ على يد سقراط. مؤلفاته عبارة عن محاورات اشتملت على نظريته الفلسفية.

(2) سورة الرحمن، الآية: 17.

ساقه الأخ الصادق النيهوم، ونسوا منهجه - إلى الإمساك بما سقته مثلاً والتمحك به فإنني أقول لهم، ما أردت بهذا إلّا مثلاً على أننا ما أوتينا من العلم إلّا قليلاً، وإن من يؤمن بالمذهب الغيبي وإن جهل مؤقتاً القانون الذي يسيطر على ظاهرة ما زالت تخفى علينا طريق حدوثها، فإنه - ومع ذلك - يظل منسجماً منطقياً مع المبدأ الأساسي في مذهبه إذ يمكن تسويغ الظاهرة - في التحليل النهائي - بناء على حتمية مطلقة هي إرادة اللّٰه الطليقة.

والفكر الديني وحده يستطيع - متى عجز العلم - أن يقول شيئاً واضحاً بيّناً حين يقول: - اللّٰه أعلم - .

* النبوة والوحي والمعجزة:

إن المذهب الغيبي (إضافة إلى أنه يتولى بيان أصل المادة، ويسعفنا حين تعجز القوانين الطبيعية على إعطاء تفسير واضح للظواهر، ويمكننا أن نقول شيئاً له معنى حين يعجز العلم ولا يجد الفكر العلم موضوعه الخاص من: كم وعلاقة وحالة)، فإنه يجد البرهان الذي يدعمه فيما يمكننا أن نصطلح عليه بـ(الظاهرة النبوية) و - الظاهرة القرآنية - التي تضع الدين في سجل الأحداث الكونية بجانب القوانين الطبيعية.

وقبل أن ندخل إلى مناقشة (الظاهرة النبوية) نود أن نلاحظ - كما لاحظ أستاذنا الفاضل المفكر المؤمن مالك

ابن نبي ـ[1] أن الدراسة الموجزة، لا تؤدي إلى فهم ـ الظاهرة الدينية ـ المعقدة، لأن لها مظاهر متنوعة ومتعددة في مختلف البيئات الإنسانية، ولقد قامت نظريات غريبة عن طبيعة هذه الظاهرة وتاريخها، فالمؤلفون المعاصرون يحاولون شرحها في ضوء تفسير تاريخي مجرد تبعاً لمنهج (ديكارت)[2] الذي يرجع كل شيء إلى معيار أرضي.

وإنه ليبدو أن تعقيد (الظاهرة الدينية) قد أضلّ الفكر الإنساني الحديث، وإننا ما زلنا ـ بلا شك ـ مزعزعين أمام المشكلة التي تشتمل على ربط أحداث متباينة كمذهب وحدة الوجود والشرك والوحدانية في نطاق واحد.

كذلك قد ضلّ الفكر الإنساني الحديث حينما حاول أن يقرر أن الفكرة الدينية قد انتقلت من جيل إلى جيل

---

(1) مفكر جزائري اهتم بمشكلات العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة. ولد عام 1905 بقسنطينة في الجزائر، ودرس الهندسة، عاش جزءاً من حياته في باريس ثم في القاهرة. كان كتابه (الظاهرة القرآنية) الذي صدر عام 1946، أول مؤلفاته التي تتابعت ومنها: (شروط النهضة)، (مذكرات شاهد القرن)، (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث).. وغيرها، توفي عام 1973.

(2) رينيه ديكارت: (1596 ـ 1650)، فيلسوف وعالم رياضي فرنسي. حاول تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة وأقام فلسفته على الشك المنهجي، وهو صاحب العبارة المأثورة: (أنا أفكر إذاً أنا موجود).

بواسطة انكشاف باطني، وهذه الفكرة المبسطة تزيد في تعقيد موضوع سبق أن قررنا أنه معقد.

ونعتقد أنه أولى بالدارس أن يهتم بدراسة ديانات التوحيد التي تتابعت وقدمت برهانها الأسمى على ألسنة الأنبياء، والواقع أن تتابع ديانات التوحيد دليل يمكن فحصه دائماً من الناحية الاعتقادية فحصاً يقوم على أساس النقد، ويتمثل هذا التتابع في ظهور النبوة وجميع المظاهر الأدبية والروحية التي تصحبها.

ومنذ سيدنا إبراهيمﷺ تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم، جاؤوا يخاطبون الناس بأن ـ حقيقة مطلقة ـ يقولون إنهم يعرفونها معرفة شخصية، وخاصة بوسيلة سرية هي الوحي. ويقول هؤلاء الرجال إنهم يرسلون من ـ اللّه ـ ليبلّغوا كلمته إلى البشر حيث لا يستطيع هؤلاء أن يسمعوها مباشرة. وإن مبدأ النبوة يعرض نفسه بفضل شاهده الوحيد ـ النبي ـ كظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبر عنه.

* منطقة الخطأ الثالثة:

وهنا لا بد لنا أن نقف مع الأخ الصادق لننقل له ما يقرره أستاذنا الفاضل المفكر المؤمن مالك بن نبي: (لا نستطيع ملاحظة ظاهرة النبوة إلّا من خلال شهادة النبي، وفي محتويات رسالته المتواترة المنزلة.. فالأمر يتعلق

بمشكلة «نفسية» من ناحية، و ـ تاريخية ـ من ناحية أخرى. ولنا أن نلاحظ أولاً وقبل كل شيء أن بعث نبي ما، ليس حدثاً فرداً بحيث يكون غريباً، بل هو العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ، منذ إبراهيم إلى محمد ﷺ، واستمرار ظاهرة تتكرر يُعتبر شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها).

(ويتصل بهذا المعنى الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

ومن المعلوم بناء على وجهة نظر (هيجل) ـ التي تعتمد على ملاحظة الظواهر ـ أننا إذا وجدنا حالة نبوية خاصة لا تشرح ولا تثبت شيئاً، فإن تكررها في ظل بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة سليمة، ويبقى علينا أن نبحث في ماهية هذا التكرار لكي نستخلص منه ومن صفاته الخاصة به القانون العام الذي يمكن أن يسيطر على الظاهرة في جملتها.

وقد قام أستاذنا المفكر المؤمن مالك بن نبي بدراسة منهجية دالّة أوضح الدلالة على ما عنى به من إثبات صحة دليل الوحي وأن القرآن تنزيل من عند اللّه وأنه كلام اللّه لا كلام البشر.

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 9.

وكما يقول أستاذنا العلامة المحقق محمود شاكر: (وهذا المنهج الذي سلكه مالك، منهج يستمد أصوله من تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية وفي غريزة التدين في فطرة البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض أحياناً، ولكنها تكشف عن مستوى التدين في كل إنسان، ثم هو يستمد أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في سيرة رسول اللّه. بأبي هو وأمي، منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، ثم في هذا الذي جاء ليكون بنفسه، دليلاً على صدق نفسه، وأنه كلام اللّه المفارق لكلام البشر من جميع نواحيه).

ومن شاء أن يعرف مزيد تفصيل على صحة دليل النبوة ومعرفة قوانين (ظاهرة النبوة)، وصدق دليل الوحي وأن القرآن تنزيل من عند اللّه، فعليه الرجوع إلى كتاب أستاذنا المفكر المؤمن مالك بن نبي والمترجم باسم (الظاهرة القرآنية).

ومن هذه الدراسة المنهجية يتضح:

1 ـ إنه لم يعد هناك تفسير آخر ممكن (الظاهرة النبوة) إلّا بأن نضع تفسيراً يقوم على وجود ذات غيبية لا يربطها بالذات المحمدية رباط ـ الوحي ـ .

2 ـ إن شهادة الأنبياء جميعاً تدعم هذا الرأي، إذ إنهم جميعاً ـ وهم الشهود الوحيدون ـ وشهادتهم مباشرة وبالإجماع قد وضعوا الظاهرة خارج كيانهم الشخصي.

ولو أدرك الأخ الصادق النيهوم الأمر على وجهه هذا الإدراك أن من خصائص النبوة صفة القهر النفسي الذي يقصي جميع العوامل الأخرى للذات، ولأدرك أن الوحي غير المكاشفة أو الاكتشاف أو الانكشاف الباطني.

والمكاشفة لا تنتج عند صاحبها يقيناً كاملاً بل كأنما تخلق نصف يقين، أي بعض ما يؤدي إلى ما يسمى (احتمالاً) والاحتمال معرفة يأتي برهانها بعدها، وهذه الدرجة من الشك هي التي تميّز المكاشفة من الوحي من الناحية النفسية.

وصفة القهر النفسي التي ترغم وتلزم النبي بسلوك معين ودائم لا تجد تفسيرها إلّا في يقين النبي الكامل من المعرفة الموحى بها وكونها غير شخصية وخارجة عن ذاته ومن قوة ظاهرة. وبهذا الفهم كان يستقيم للأخ الصادق النيهوم أن يعرف مهمة المعجزة باعتبارها البرهان الفرد والدليل المتين القاهر الذي يعطي النبي يقينه في مصدر المعرفة الموحاة ويكون آيته التي تقطع بأنه أرسل من عند اللّه، موصول بالملأ الأعلى، يتلقى منه، ويأخذ تعاليمه. وهذه الآيات ـ أو ما سُمِّيت بالمعجزات لعجز العقل عن تفسيرها كما تعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها ـ فوق مقدور البشر وخارج نطاق طاقاتهم ومعارفهم.. إلخ، فما الذي يمنع أن تكون مخالفة للسنن لما ألفنا من قوانين الطبيعة كما هي خارقة للعادات المألوفة؟ والمؤمنون باللّه

لا يتوقفون في تصديق شيء، متى ثبت بالدليل القاطع الذي لا يتطرق إليه الشك لأنهم يعلمون أنه سبحانه لا يتقيد بالسنن التي وضعها.

* جوانب أخرى للمعجزة:

ما قدّمناه من حديث عن المعجزة وسننها المطردة، وحول علاقتها باللّه موجد الطبيعة، وحول المعجزة باعتبارها البرهان والدليل المستبين القاهر الذي يكون آية للناس، ويبقى حديث عن علاقة المعجزة بالناس وعقولهم وآثارها في الدعوة ـ وبالأدق ـ هل هناك ضرورة لظاهرة المعجزة؟

للجواب على هذا ينبغي أن نستحضر صور المجتمع الإنساني في عصوره الأولى البدائية، الواقفة عند المحسوسات المنعزلة كل شعب وقبيل عن الأخرى، لا ترى إلّا قطعة محدودة من الأرض وأفقاً ضيقاً من السماء، ليس لها تاريخ وليس لها علوم وآداب، وهي ترى ظواهر الطبيعة ولا تستطيع لها تعليلاً.

ثم نستحضر سيرة الأنبياء وكيف حاولوا تحطيم الوثنيات والارتفاع من عالم الحس والمشاهدة إلى عالم الغيب والإيمان باللّه الواحد الأحد، وهم ـ أي الأنبياء ـ حاولوا أن يوسعوا آفاق البشر، وحاولوا أن يفهموهم أن الكون تنتظمه قوانين، بل إن المجتمع الإنساني نفسه تنتظمه قوانين هي الحق وموازين القسط.

ثم لا ننسى أن لكل أمة رسولاً. ورسولاً من بينها يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

وإذا ما ذكرنا كل هذا، فإننا ندرك أن من يستجيب لهذا الرجل هو العدد الأقل ممن يلبي كلمة الحق لأول سماعه بها، وهؤلاء حتى في زماننا قليل ما هم، أما غالبية البسطاء من الناس فلا بدّ لاستجابتهم من وسيلة أخرى بجانب وسيلة المنطق والعقل.

وإذا ما أدركنا أن النبوة رحمة اللَّه إلى عباده (فكيف يهمل اللَّه هذه النزاعات الطفلية ـ في نفوس أكثر القطيع الإنساني من غير أن يفهمهم من طريق الحس وإقامة الحجة الدامغة ـ في رأيهم حسب ما يقترحون؟).

وإذا ما علمنا أن الغاية من المعجزة غاية عظيمة، بل أعظم غايات الحياة وهي حمل كثير من الناس على الإيمان باللَّه، وإنقاذهم مما يهدر كرامتهم ويسفل بهم إلى أقل من درجة البهائم وهو السجود لصنم واللياذ به وبيع الحرية الفكرية والشخصية.

ـ إذا علمنا ذلك، تبين لنا أن المعجزة أمر محتم لتكملة السعي إلى سبيل إنقاذ الإنسان. وأخيراً، فلا بدّ أن نذكر أن المعجزات الحسية إنما أُجريت لتعجيز المكابرين وأخذ طرق الأفكار عليهم، حتى لا يفلتوا إلى عذر بعدها، وحتى يحملوا حملاً على الشعور بتعنتهم ولذلك كانت هي

الدور الأخير من حجج الرسل بعد أن تعييهم لجاجة الناس.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1]. فالمعجزة أجريت لإتمام الحجة. والناس متنوعو التفكير وطرق الاقتناع، ولا بدّ من تنوع وسائل إقناعهم، والبشرية في قرونها الأولى قد تكون كالأطفال لا يصدرون إلّا إذا رأوا ثمرة أو حجرة.. درهماً أو سوطاً. أما الرسالة الأخيرة فعمادها الحجة العقلية الدائمة ـ القرآن المعجز ـ .

* آية رسول الله، آيات القرآن المعجز:

لقد عبّر القرآن الكريم عن المعجزة بكلمة (آية)، ومعنى هذه الكلمة العلامة الظاهرة، وهي تطلق على الامارة والدليل القاطع والمعجزة، ويقال لكل جملة من القرآن آية، وإن في إطلاق هذه الكلمة على المعجزة وعلى جعل القرآن ما يفيد أن الآيات القرآنية في ذاتها تدل دلالة قاطعة على أنها حقيقة إلهية لا شك فيها.

ولذلك تعتبر أنها المعجزة الكبرى التي جاء بها النبي ﷺ، والحقيقة أن القرآن هو أعظم معجزة نزلت على نبي، لأنه قائم ما قامت الدنيا، وآياته لا تحتاج إلى دليل لتأيدها، هي بذاتها دليل قاطع وبرهان ساطع على صحتها،

(1) سورة الإسراء، الآية: 59.

وإنها حق منزل من عند اللّٰه على مدى الأيام والعصور، وإنه تحدى ببلاغته وأحكامه جميع بلغاء الأجيال وحكمائها على أن يحاكوه أو يأتوا بمثله فعجزوا جميعاً ونكصوا.

*** عود على بدء: القرآن المعجز:**

وهكذا تعود أطراف الموضوع المترامية لتتلاقى في الحديث عن إعجاز القرآن، وإعجازه لغوي أدبي نفسي، وقد سبق لي في مقالاتي الأولى، أن فتحت لي مناقشتي للأخ الصادق باباً للقول في (إعجاز القرآن) كنت أتهيب أن ألجه وأبقي نفسي دونه، ومع أنني اختصرت في ذلك وقصّرت وإن كان البعض قد رأى أنني أطلت، وأخشى أن أكون قد أمللت، ولكن عذري أنني كنت أكتب في موضوع ما كان ليثار لو أننا لا زلنا نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية.

إن عبقرية العربي هي أن أساس اكتمال نضجه، بعد خلقه، أن يتعلم البيان، تمهيداً لاكتساب رحمة اللّٰه بتعلم القرآن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[1]، وإن الآيات القليلة من القرآن، ثم الآيات الكثيرة، ثم القرآن كله أي ذلك كان في تلاوته على سامعه من العرب، الدليل الذي يطالبه بأن يقطع بأن هذا الكلام مفارق لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، هو وجه البيان والنظم. فإذا صحّ أن (الإعجاز) كائن في

(1) سورة الرحمن، الآيات: 1 ـ 4.

رصف القرآن ونظمه وبيانه بلسان عربي معين، وأن خصائصه مباينة للمعهود من خصائص كل نظم وبيان تطيقه قوى البشر في بيانهم.

فإذا صحّ هذا، وهو صحيح لا ريب فيه، ثبت ما ذهب إليه أستاذنا العلّامة المحقق محمود شاكر من أن:

أولاً: أن اللغة التي نزل بها القرآن معجزاً قادرة، بطبيعتها هي، أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلام يقطع هذه القوى بيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه.

ثانياً: أن أهلها قادرون على إدراك هذا الحاجز الفاصل بين الكلامين. وهذا إدراك دال على أنهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان، ومن العلم بأسراره ووجوهه، قدراً وافراً يصحّ معه أن يتحداهم بهذا القرآن، وأن يطالبهم بالشهادة، عند سماعه، أن تاليه عليهم نبي من عند الله مرسل.

ثالثاً: أن البيان كان في أنفسهم أجلّ من أن يخونوا الأمانة فيه، أو يجحفوا عن الإنصاف في الحكم عليه. فقد قرّعهم وعيّرهم وسفّه أحلامهم وأديانهم، حتى استخرج أقصى الضراوة في عداوتهم له وظلّ مع ذلك يتحداهم، فنهتهم أمانتهم على البيان عن معارضته ومناقضته، بل كفّوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئاً.

هذه واحدة، وأخرى ـ أنه لم ينصب لهم حكماً، بل خلّى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له، ثقة بإنصافهم في الحكم على البيان، فهذه التخلية مرتبة من الإنصاف لا تدانيها مرتبة.

*** الطريق الصعب:**

وأنت خليق أن تعرف أن الشيء الذي نطلبه، واحتججنا له بقول أستاذنا العلّامة المحقق محمود شاكر، إنما يتعلق بخصائص البيان في القرآن وخصائص بيان البشر على اختلاف ألسنتهم، وأن مخرج هذا غير مخرج هذا.

كما يتعلق الأمر، الذي حاولنا الكشف عن منهاجه ومذهبه، التماس ما ينبغي أن تكون عليه صفة كلام هؤلاء الذين اقتدروا على مثل هذه اللغة التي أُنزل بها القرآن، وأوتوا ذلك القدر من تذوق البيان، ومن العلم بأسراره، ومن الأمانة عليه، ومن ترك الجور في الحكم عليه، فهم لا شك قد بلغوا في الإعراب عن أنفسهم، بألسنتهم المبينة، مبلغاً لا يُداني. وبهذا ينهار القول بعجز هذه اللغة، وينهار القول بالرمز، تماماً كما فقد القول برفض المعجزة ما يسنده من خلفيات.

*** كلمة عن قصص القرآن:**

فالإقرار من وجه النظم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين يتطلب الإقرار بصحة ما جاء فيه فإذا استبان

من نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم، من وجه يحسم بالقطع بأنه كلام رب العالمين، فإنه من قبيل التزيد في القول، أن نقول إذا أقررتم أنه كلام رب العالمين فعليكم أن تؤمنوا أن ما جاء به هو القصص الحق وإن ناقض ما تعرفون، أو بأيّن من عندكم أو عند غيركم، مع ملاحظتنا الدائمة أن طابع السرد التاريخي الذي تميّزت به الرواية الكتابية لقصص الأنبياء ليست هي طابع القرآن الذي يسوق القصة لمقاصد تربوية نفسية لا تخفى على الدارس لقصص القرآن.

ونحن نعتقد ـ مثلاً ـ أن سورة مريم كان المقصد من ورائها ما ذهبنا إليه من حديث عن المعجزة وكيف أن أمرها هيّن على الله.. ابتداء بقصة زكريا ويحيى إلى عيسى... إلخ.

*** مهام صعبة تنتظرنا:**

ومع ذلك، فإننا نؤمن أن هذا القرآن ما كان ليفُترى من دون الله (ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) والقرآن يثبت ـ باعتداد ـ التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل وهو يؤكد هذه القرابة، ولكن حيث تتوثق القرابة بين القرآن والكتاب المقدس يؤكد القرآن استقلاله بعلائم مميزة كثيرة.

ففي رواية العهد القديم استخدم إخوة يوسف في سفرهم (حميراً) بدلاً من (العير) في رواية القرآن، على

حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلّا بعد استقرارهم في وادي النيل، كما أن الحمار عاجز عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين.

وأيضاً في رواية (سفر الهجرة) لمشهد عبور بني إسرائيل البحر الأحمر حيث غرق فرعون وجنوده نجد القرآن يكمل هذا العرض بتفصيل غير متوقع، وهو غير عادي!.. أعني (النجاة البدنية) لفرعون - ويقول الأستاذ مالك بن نبي (علماء الدراسات المصرية - بخاصة - يهاجمون الرواية الكتابية، مدّعين أن تاريخ ملوك مصر لم يسجل اختفاء فرعون المعاصر لموسى في البحر الأحمر).

ومن هذا القبيل أن نذكر الرواية الكتابية عن جبل «آرارات» في قصة الطوفان، ويحدّد التفسير اليهودي المسيحي موقع هذا الجبل في (أرمينيا) ثم يذكر القرآن اسماً خاصاً هو اسم جبل (الجودي)، الواقع في الموصل، ثم نجد أن الاكتشافات الجيولوجية والأثرية الحديثة تحدّد مكان ظاهرة الفيضان في مكان قريب من ملتقى دجلة والفرات.. غير بعيد من بلدة (آر) حيث ولد إبراهيم عليه السلام.

* **أما بعد:**

فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخر هذه الأمة، بعض ما يلحقها بفضل أولها، وعسى أن يتم على يد آخرها ما خبأها الله عن أولها. وأنا مكتفٍ في هذه المرة بمناشدة

الجامعة الإسلامية ووزارة الإعلام والثقافة أن ينهضا لأمر هذه اللغة ويمكّنا لعملين أن يُتما في ليبيا.. أول هذين العملين، معجم معالم اللغة، وهو عمل قرأنا عنه في مجلة اللغة العربية في الجزء (الثامن)، وهو معجم في ستين مجلداً، يزيد المجلد منها على ألف صفحة من الصفحات الكبيرة، وقد جرى المؤلف فيه على إيراد الكلمات على ما آلت إليه صيغتها.. كما تذكر مشتقاتها من إبدال وإعلال وإدغام إلى غير ذلك، ثم يورد في كل كلمة ما يلائمها أو يضادها، أو يحوم حولها أو يلابسها من الألفاظ والعبارات والجمل، وما ورد عليها من كلمة أو مثل، قال المؤلف: وجعلت له مقدمة تبلغ زهاء أربعة آلاف صفحة، تتضمن أبحاثاً في فن اللغة وأصول الكلمات وأوزانها، وفلسفة الحروف وتركيبها.

ثم قال، إني قد ذكرت مزية كل حرف من حروف الهجاء على اختلاف وروده أولاً وآخراً ووسطاً، بحيث إن المتدبر معرفة مزايا الحروف يستطيع أن يعرف حتى معنى الأوابد من الكلم بمجرد نظرة إلى ما ركبت منه من حروف وإلى غير ذلك من أسرار اللغة.

ثم قال، وقد توسعت في باب تعاقب الحروف، بحيث يؤلف هذا البحث زهاء بضع مائة صفحة، وقال: وبحثت في مقام لغة العرب من اللغة القديمة، ولا سيما السامية، والحديثة.. ،في صلاحيتها للاستعمال في مختلف

الأجيال وفي مرانتها وقابليتها لمجاراة العمران من كل وجه، وفي سهولة نحو العربية، بحيث إنك تلقنه اللقن الفهم فيتدبر في أقل من ساعة رفع المرفوع من الأسماء في ستة مواضع، ونصب المنصوب في أحد عشر موضعاً وجر المجرور في موضعي الجر، ورفع المرفوع من الأفعال، ونصب المنصوب منها وجزم المجزوم.

وتكلم المؤلف أيضاً في معجمه هذا على النحت والمفرد من معاني صيغ الكلام، ثم على الاشتقاق والقياس، واللفظ المشترك والأضداد والخصائص والفروض واللهجات والقلب والإبدال، والبلاغة والفصاحة، والمجاز والاستعارة، والعروض والقافية، وأنواع الخط العربي والكتابة ورسم الهمزة والألف إلى غير ذلك مما ورد في كتب اللغة وتفرق فيها.

ثم قال، وحاصل الأمر أن هذا المعجم سيكون ديواناً حديثاً، وجمهرة لفقه اللغة ولآداب العرب، نقرأ فيه تاريخهم وأخلاقهم في لغتهم بمختلف الصور.

ثم قال، ولم أقتصر في جمع ذلك على المعاجم المعروفة فحسب، ولكني جمعت من كتب الأدب والفن، بل جمعت فيه كل ما وصلت إليه بدرس من كتبهم، وقد قرأت له نحو مليون ونصف صفحة.. إلى آخر ما قال وهو كثير.

العمل الثاني هو دراسة (إعجاز القرآن) و ـ الشعر الجاهلي ـ وما لهذا العمل غير أستاذنا العلّامة المحقق الشيخ محمود شاكر أمد الله في عمره وأفاد منه، وقد قال أستاذنا الفاضل: (ولقد شغلني «إعجاز القرآن» كما شغل العقل الحديث، ولكن شغلني أيضاً هذا «الشعر الجاهلي» وشغلني أصحابه، فأدّاني طول الاختبار والامتحان والدراسة إلى هذا المذهب الذي ذهبت إليه، حتى صار عندي دليلاً كافياً على صحته وثبوته، فأصحابه الذين ذهبوا ودرجوا وتبدّدت في الثرى أعيانهم، في هذا الشعر أحياء، يغدون ويروحون، رأيت شابهم ينزو به جهله، وشيخهم تدلف به حكمته، ورأيت راضيهم يستنير وجهه حتى يشرق، الفارس على جواده، والعادي على رجليه، ورأيت الجماعات في مبداهم ومحضرهم فسمعت غزل عشاقهم، ودلال فتياتهم، ولاحت لي نيرانهم وهم يصطلون، وسمعت أنين باكيهم وهم للفراق مزمعون، كل ذلك رأيته وسمعته من خلال ألفاظ هذا الشعر، حتى سمعت في لفظ الشعر همس الهامس، وبحة المستكين، وزفرة الواجد، وصرخة الفزع، وحتى مثلوا بشعرهم نصب عيني كأني لم أفقدهم طرفة عين، ولم أفقد منازلهم ومعاهدهم ولم تغب عني مذاهبهم في الأرض، وحتى كاشفوني فلم يطووا عني شيئاً مما عاينوا وأبصروا، ولا مما أحسوا ووجدوا ولا مما سمعوا وأدركوا، ولا مما قاسوا وعانوا، ولا خفي عني

شيء مما يكون به الحي حياً في هذه الأرض التي بقيت في التاريخ معروفة باسم «جزيرة العرب».

* آخر الأمر.. وآخر الأمة:

وآخر الأمر أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلّا بما صلح به أولها، فإذا كان أولها لم يصلح إلّا بالبيان فآخرها كذلك لن يصلح إلّا به، وإن إمرأ يقتل لغته وبيانها، وآخر يقتل نفسه، لمثلان، والثاني أعقل الرجلين.. ودعائي بالعقل لمن لم يثرهم قول الصادق النيهوم بعجز لغتنا. وهذا ما بذلت جهدي أن أفحصه، وانفي عن لغتنا القذى، وأخلّصها من الأذى، مبتغياً بذلك وسيلة إلى ربي سبحانه.. طلبت القربة عنده. ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].. وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(1) سورة النحل، الآية: 111.

صادق النيهوم بين عقدة الانغلاق ورؤية الانعتاق

محمد عادل سليمان(*)

أخي صادق النيهوم، يدانا معاً.. نتصافح في البداية صديقين للكلمة الهادية دون ثورة هائجة ولا ضجيج هادر.. صديقين للكلمة، نقولها في رقة الهمس ووداعة الهدوء، ندفع برفقها الليّن عنف تهمة توجه أني أخرق اللسان كريه البضاعة.

ومتى مددت يدي إليك، وفتحت كفي لك، فليس وراء ذلك إلّا قلب إنسان يودّ لك الخير ويودّه لكل الناس ويتمنى لك الهداية ويتمناها لكل الناس، وما دفعتني شهوة الكلام ورغبة الحديث أن أكتب أو أتحدث وإنما حرص المسلم على المسلم الذي انفتحت نوافذه على صور جديدة فأقام في هيكلها عابد ريشة وألوان، واستقبلت رئتاه هواء غريباً فاندفقت إلى رئتيه ذرات الوهن وهبأة الداء وانكفأت

(*) كان وقتها حين نشر ردّه بصحيفة العلم طرابلس، ابريل/نيسان 1969، عضواً ببعثة الوعظ والإرشاد المصرية، وخطيباً في مساجد طرابلس.

على عينيه المرائي فحجبته عن صفاء أمسه وجلال ماضيه وهجعت في مرقده الدنيا ففصلته عن أرضه وأهله.

هو حرص المسلم على المسلم الموهوب طاقة فيها حرارة الأسلوب ودفء الكلمات أن تضيع طاقته صراخاً لاهثاً متعباً، وصوتاً تائهاً مبحوحاً ينماع ويتلاشى كما يهرب خفاش الباطل من جلال نور الحق وضياع هذه الطاقة في نيل الباطل عبث، والعبث جنون.. وأنت تعترف بذلك حين تقول: (عقولنا لم تخلق لمجرد العبث) وحرام على من يدرك هذه الحقيقة أن يبدّد ثراء عقله في عبث الآراء واهماً أنه بذلك يضع نمطاً جديداً للفهم الواعي في المفاهيم التي أقرها الدين وتواضع عليها كل الناس. وكان أولى أن يصرف همته ويوجّه طاقته للدفاع الحق عن الدين الحق، ويقف شامخ الكلمة في وجه الطاعنين والغامزين. وكما تفرش واحات النخيل مراوح الظلال في مصاهد التيه فلا ترى العيون القاصرة إلّا تخيلاً وظلاً بينما يغدو المتعبون إلى الظل لمفهوم النسيم الرطب فيه، كذلك تحمل الكلمات أكمام المعاني فلا يدرك الفهم السقيم إلّا ظاهر المدلول بينما تنفح الأكمام للأفهام الذائقة نوافح المسك وزكي العبير.

والبحث عن الحقيقة، شريعة الإسلام ما دام البحث مجرد النية للحقيقة، وما دام الباحث غير نازع لغرض، وقاصد لهوى.. والدراسة والبحث والفهم ليس واحداً منها قاصراً على أحد بعينه أو جماعة أو فئة أو طائفة بعينها،

وإنما هي مفتوحة الأبواب بشرطها وهو: التجرد للحقيقة وصدق النية في معرفتها.

ولكن الاجتهاد في النص القرآني أو الحديث، له ـ مع تجرد النية والصدق في معرفتها ـ شروط أخرى.. إحاطة المجتهد بأصول الدين وفروعه إحاطة شاملة، علمه بالمنقول والمعقول، إدراكه للعلوم والمعارف العامة والخاصة المتعلقة بالدين، معرفة علوم القرآن والسُّنة والناسخ والمنسوخ، وفوق ذلك كله التزام حدود اللّٰه في أوامر الطاعة ونواهي المعصية مع أداء الفرائض والسُّنن والصلاح والتقوى الكامنة في الباطن.

وكلمة التقوى هذه بمعناها وشمولها مقصودة في الاجتهاد.. فوراء التقوى قلب كشّاف ينظر بنور اللّٰه، غسلت التقوى أدرانه وملأت الطاعة بالنور جوانبه وحواشيه. فإذا نظر إلى نص كان نظره إليه باللّٰه لا بنفسه فنظرة النور غير نظرة الظلمة واجتهاد التقوى والطاعة غير رأي اجترار المعصية.. ولهذا ترى النور واضحاً في فهم المجتهدين، والظلمة رانية على أفكار الحاقدين، ولهذا تخرج كلمات المجتهدين حزم ضوء في طريق النص. وتأتي ألفاظ غيرهم بقعاً سوداء تحمل محاولة انطماس النص في حيرة ذاهلة وتشكيك مرتاب.

وكثير من الناس ولجوا هذا الباب ـ وفي أعماقهم نية الظهور والشهرة على حساب الدين وقداسته فظهروا على

الناس بالغثاء كما تظهر الفقاقيع الطافية بلا أعماق ولكنهم هووا ـ في النهاية وتحطموا في صغار ومهانة أمام كبرياء الحقيقة الثابتة في شموخ واعتداد، ولا يزال كثيرون آخرون ـ أبداً ـ يلجون هذا الباب، على نية الأسلاف، دون عظة من تاريخ أو عبرة من حدث أو رجعة، والبحث الجاد والدراسة الواعية أهل إلى أمس بعيد أو قريب، للمناقشة ما دام الهدف البحث عن الحقيقة والتطلع إلى الهداية.

والحديث عن الرمز في القرآن هو مدار الخطوط الممتدة في حوار (الرائد) يوم الجمعة (14/ 3/ 1969) بين سؤال الأستاذ (محمود الهتكي) وإجابة الأستاذ (صادق النيهوم). والرمز.. نقطة البدء في الحوار ومركز دائرته، وأودّ ـ أولاً ـ مناقشة هذا الحوار مناقشة موضوعية هادئة هادفة، وأنت ـ يا أخي النيهوم ـ ترى أن القرآن الكريم: (يستخدم الرمز عند التعبير عن الأفكار المعقدة التي لا تتحملها اللغة العادية). ونبدأ من هنا: لغة القرآن عربية وقد وسعت بثرائها كل الأفكار البسيطة والمعقدة، فاستخدام القرآن الكريم للرمز عند التعبير عن الأفكار المعقدة لا يقوم على دليل هذا أولاً.

والقرآن الكريم ـ وهو كتاب الإسلام ـ عربي، فإذا عجزت لغة العرب ـ كما تقول ـ عن التعبير عن العالم العظيم وكان لا بدّ من الرمز لتغطية عجز اللغة وجاء الرمز عربياً كذلك، فإن اللغة العربية إذاً قد هربت من عجزها إلى عجزها.. أليس كذلك؟ هذا ثانياً.

والحقيقة، أن القرآن الكريم من ناحية اللغة والبلاغة البيانية جامع بين اللغوية والمجاز اللغوي، والحقيقة العقلية والمجاز العقلي والتشبيه والاستعارة والكناية.. إلى غير ذلك من ألوان الجمال المعجز، وهو في ذلك كله لا يعبّر بالمجاز ـ مثلاً ـ عن فكرة معقدة تكون الحقيقة أو الاستعارة ـ مثلاً ـ دونه في التعبير الأمثل عن هذه الفكرة، وإنما القرآن الكريم تعبير الحق عن الحق بما جاء فيه من التعبير المتميز الحق. هذا عن فكرة الرمز بذاتها.

وتجيء الأمثلة عن الرمز بعيدة كل البعد عن موضوع الرمز في البداية وفي ذلك دلالة على أن الحوار مجرد إثارة للفتنة وإذكاء لخامدها.. إذ ما الصلة بين الرمز وبين ولادة المسيح من أب أو من غير أب؟ وهل فهمت أن القرآن الكريم عندما قال ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[1] رمز بذلك إلى أن زكريا تزوج بمريم وأن المسيح ابن زكريا؟.

إذاً فلنا أن نقول: إن القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً، وهو يقول عن ميلاد المسيح: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ «وفي رواية قراءة أخرى» ـ «ليهب لكِ غلاماً

(1) سورة آل عمران، الآية: 37.

زكيـاً» ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾[1]. ثم يقول القرآن: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[2].

هذا هو القرآن حجة المسلمين على المسلمين.. فهل وراء هذا البيان من غموض؟ وهل خلف هذا التصريح من رمز؟ وهل بعد ذلك أب للمسيح؟

إذاً، ما معنى تعجبها واستغرابها أن يكون لها غلام؟ وما مفهوم ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟ وما وراء ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾؟ وما دلالة تمنيها الموت لحظة المخاض؟ وما فحوى اتهام قومها لها إن كانت قد تزوجت بزكريا؟ ولمَ قال ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ ولم يقل بوالدي كما قال يحيى من قبل؟

(1) سورة مريم، الآيات: 16 ـ 23.
(2) سورة مريم، الآيات: 27 ـ 32.

وفي الإصحاح الأول من إنجيل (متى): (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا لما كانت أمه مخطوبة ليوسف - قبل أن يجتمعا - وجدت حبلى من الروح القدس)، ويتحدث (لوقا) في الإصحاح الأول من إنجيله: (كان في أيام هيرودوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وامرأته من بنات هارون واسمها اليصابات وكانا كلاهما بارين أمام اللّه، سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم ولم يكن لهما ولد إذ كانت إليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام اللّه حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر وكان كل جمهور الشعب يصلّون خارجاً وقت البخور، فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف.. فقال له الملاك .. لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك إليصابات ستلد لك ابناً وتسميه يوحنا). إلى أن يقول إنجيل لوقا بعد ذلك: (فقال زكريا للملاك.. كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها؟ فأجاب الملاك وقال.. أنا جبرائيل الواقف قدام اللّه وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا..) هذا عن زكريا وامرأته إليصابات في حديث لوقا.

وعن مريم والمسيح يقول (لوقا) في ذات الإصحاح الأول بعد الحديث عن زكريا وامرأته إليصابات: (وفي الشهر السادس - يقصد الشهر السادس بعد بشارة زكريا بابنه

يحيى ـ أرسل جبرائيل الملاك من اللّه إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم، فدخل إليها الملاك، وقال سلام لك أيتها المنعم عليها.. الرب معك.. مباركة أنت في النساء، فلما رأته اضطربت من كلامه، وفكّرت ما عسى أن تكون هذه التحية، فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم.. لأنك قد وجدت نعمة عند اللّه.. وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع).

ويستطرد إنجيل (لوقا): (فقالت مريم للملاك.. كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً؟ فيجيب الملاك.. هو ذا إليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقراً.. لأنه ليس شيء غير ممكن لدى اللّه). هذا حديث الإنجيل المسيحيين.

لم يقل ـ في العهد الجديد ـ أحد بأن المسيح ولد من أب كان زوجاً لمريم، ولكن اعتبار المعنى الضمني وحده لكلمة تحتمل معانٍ كثيرة ـ لأن هذا المعنى الضمني يخدم رأيك ـ يعتبر تحميلاً للكلمة ثقلاً، وتوجيهاً لها إلى غير ما تدلّ عليه الآيات الصريحة في كتاب اللّه.. وفرق كبير بين اعتبار معنى ضمني وبين أن يكون هذا المعنى مقصوراً بالذات ومراداً بعينه، فحملك الكفالة على الزواج إرهاق للكلمة في التضمين، واعتبارك هذا التضمين ـ أنه لا يخدم رأيك ـ هروب من واقع الآيات الدامغة في كتاب اللّه الذي

تحدّث عن مريم حديث البراءة والطهر والإحصان: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[1].

نخرج من ذلك بأن المسيح عليه السلام وُلِد ـ بلا أب ـ من أم عذراء لم يمسسها بشر وأن ولادته كذلك إعجاز للطب البشري عند مولده، وإن الله قادر ـ وحده ـ على ذلك فولادة عيسى بلا أب من أم عذراء دلالة عادية على بداية البشر في آدم بلا أب ولا أم في نشأة الإنسان: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2] فلا غرابة ولا عجب.. ومعجزات عيسى عليه السلام حية في واقع عصره ـ دون رمز إلى غائية أخرى ـ ولم يكن عيسى يزاول صناعة المعجزات.

ولم يقل بذلك واحد من العقلاء لأن الذي يزاول عملاً أو صناعة إنما مدفوعاً من نفسه وداخل ذاته بهذا العمل أو تلك الحرفة.. فكيف تكون معجزات عيسى من ذاته وتكون عملاً وصناعة وحرفة وتكون ـ مع ذلك ـ معجزة؟ ثم كيف تكون صناعة له وهي من الله حجة لعيسى على قومه بإذن الله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3]. ويمضي الحوار فيقول: (أنا أعتقد أن الآيات الواردة بشأن هذه المعجزات ـ يمكن ـ تفسيرها طبقاً لأبعاد

(1) سورة التحريم، الآية: 12.
(2) سورة آل عمران، الآية: 59.
(3) سورة آل عمران، الآية: 49.

الرمز)، ولكن كلمة ـ يمكن ـ هنا.. تعطينا أن الموقف غير جازم بالرمزية وإنما هو مجرد إمكان توجيه للآيات إلى مفهوم معنوي الدلالة الحسية، وما دام الموقف لا يفرض علينا رأياً، ولا يقول لنا هذا الصواب وغيره خطأ، فإنا نردّ ـ في أدب ـ بأن القرآن الكريم قال في ذات الآية: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

فإنباء عيسى وإخبار قومه بما أكلوا وما شربوا وما ادخروا في بيوتهم ـ وهو سر عند أنفسهم ـ يُعتبر آية على صدقه ومعجزة لقومه ودلالة على نبوته لمن يريد الهداية والإيمان.

وأنت حينما تقول: (إن عيسى المسيح قد جاء لكي يخبر الناس بما يجب أن يكتفوا به من الأكل ومن متاع الدنيا ومن الثروة)، إنما أخذت ذلك من قول المسيح نفسه في الإنجيل: (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.. بل بكل كلمة تخرج من فم الله..)[2] فهو ليس جديداً في الرأي، ولا سلفاً في الفكر، وإنما هو مستقى من مصدر مسيحي غير إسلامي، فماذا تقول إذاً؟

وقد تحدث القرآن الكريم عن معجزة كل نبي، وأنها لون فوق البراعة التي نبغ فيها قوم كل نبي وناس عصره،

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 49.

(2) إنجيل متى، الإصحاح الرابع.

ولما كان السحر ميدان النبوغ ومجلّاه، وقد بلغ أوجّه وقيمه - في عهد موسى عليه السلام - فليس إعجازاً للسحرة أن يقول لهم موسى.. أنا طبيب ماهر.. أو.. أنا متحدث بليغ، إذاً لرد عليه السحرة، لو نعلم شيئاً في الطب لأعجزنا فيه، ولو مارسنا الكلام لأخرسنا ألسن الناطقين.. فلا يملك موسى - مع هذا الرد - إلّا أن تلزمه الحجة فيلوذ بالصمت.

ولكن الإعجاز الحق لسحر الساحر أن يجيء موسى فوق هذا الطراز من السحر بلون آخر من ذلك النمط.. ظاهره - في أعين الناس - أنه من جنس السحر ولكنه في الواقع حق؛ ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] فأعجزهم الله بعصا موسى ويده: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[2].

وكان الطب في عهد عيسى عليه السلام فأعجز الله قومه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يد عيسى عليه السلام، وكان البيان في عهد رسول الله سيدنا ومولانا محمد ﷺ فأعجز الله قومه بالقرآن وتحدّى الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من طرازه فباؤوا جميعاً بالقصور والعجز والهوان، والقرآن الكريم - وهو كلام الله المعجز - لو أراد بقول الله: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 118.

(2) سورة الأعراف، الآيات: 119 - 122.

﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1]، لو أراد أن يخلق هيئة الطير من الطين رفيف الأرواح إلى السماء بالإيمان، لأمكنه أن يقول ذلك وغيره في صراحة، دون رمزية مبهمة لا يفهمها من الناس غير (الصادق النيهوم) وحده دون سائر خلق اللّه.

ولو أن الرمز مُراد لأمكن أن يرمز القرآن لمعجزة رسول اللّه ﷺ، وهي معجزة الهداية والسمو وصلة الخلق بالحق ـ كان يمكن أن يرمز بأشياء من مثل خلق هيئة الطير من الطين إلى غير ذلك. لكن اللّه تعالى تحدث عن كل شيء بما له وما فيه، بألوان البلاغة البيانية وصورها الواضحة دون غموض ولا استغلاق وضع مفاتيحه في يد (النيهوم).

وكلامك يا أخي عن الرمز يمكن أن يقال في غير كلام اللّه، أما والكلام لله عن معجزة واحد من رسله فالأدب عند دلالة النص على المعجزة أولى وألزم حتى يكون الإنسان واقفاً عند حدود الأدب مع ربه سبحانه وتعالى دون جرأة حمقاء ولا جنون أهوج.

وشفاء الأكمه إذا أريد به الرمز للإنسان الأعمى الذي لا يستطيع أن يرى آيات اللّه قد يكون في غير الحديث عن المعجزة.. لكن ماذا تقول في شفاء الأبرص ولأي شيء يرمز البرص في قول القرآن: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ

(1) سورة آل عمران، الآية: 49.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾[1]، ربما تغالي في أبعاد الرمزية وتقول البرص يرمز إلى تلّون الظاهر وهو رمز المنافقين الذين يتلونون في ظواهرهم وهم يضمرون قلباً آخر، ربما قلت ذلك فعلاً في مغالاة وعناد، ولكن صريح القرآن ظاهر لا يحتاج إلى تأول، وإن شئت فالإصحاح الخامس من إنجيل (لوقا) يقول عن المسيح: (وكان في إحدى المدن.. فإذا رجل مملوء برصاً فلما رأى يسوع خرَّ على وجهه وطلب إليه قائلاً يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني فمد يده ولمسه قائلاً أريد.. فاطهر. وللوقت ذهب عنه البرص). فهل يمكن أن ترمز هذه الحادثة بماديتها إلى معنى وراء الحس وعيسى جاء لشفاء المرضى الروحي. هذا حق، وكذلك جاء جميع الأنبياء.. ولكن لكل نبي معجزة على طريق الإيمان ومعجزة عيسى للناس شفاء الأجساد من العلل والأدواء الحسية الظاهرة لتكون معجزته الحسية طريق الإيمان تقديماً وتمهيداً لشفاء أدواء العقول وعلل الأرواح. إذاً.. فلم تكن معجزة عيسى الحسية مثلاً للإنسان عن كشف الحقيقة بالظاهر، وإنما هي دفع لتطلع الناس إلى الحق، وانطلاقهم إلى ما وراء المعجزة من صفاء الإيمان وإشراق نور اليقين.

ونأتي إلى عقدة (اليهوم) فنرى في ظلال كلماته عقدة العربي المسلم الناشئ في بيئة محدودة الأفق، قاصرة

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 49.

التعليم، ضيقة العادات، خانقة التقاليد، مغلقة النوافذ في وجه الثقافات، مسدودة الحدود في طريق الحضارة، مشلولة التطلع إلى الآفاق الفساح، قبعت في زوايا الزمان مع تهالك العصر الوسيط، ثم إذا به يخرج من قوقعة الأرض المسدودة.. إلى دنيا جديدة عليه في الثقافة والتواء تعابير الاستشراق والتبشير، وألوان صور الحضارة، وشهوة مباهج الفتنة فشاهد بعينه انفصال الرؤيتين، ورأى بعد مسافة الطريقين وهاله قومه المشدودون بلا تقدم، وقد أغلقوا نوافذهم على أنفسهم في ظلمة الماضي فثار عليهم: افتحوا نوافذكم على العالم وواجهوا أنفسكم.

وهذه عقدة النيهوم، (فإحساسه بأنه ولد عربياً محدود الثقافة إحساس بالانغلاق والموت.. فهو من هنا ميت..) وخروجه إلى البلاد الأجنبية إحساس بالبعث من موته القديم، وعجزه عن الشعور بالحياة مع الآخرين يجعله معقداً غاية في التعقد إذ ترسبت في أعماقه أكفان الأمس القديم بينما هو يحيا في انبهار الضوء الحديث، وهو لهذا يحس في قرارة ذاته أنه إنسان نصف ميت.. أحياه اللّه بالإيمان الراشد والهدى الأمين. آمين.

وبعد، فهذا (صادق النيهوم) بين عقدة الانغلاق ورؤية الانفتاح والانعتاق، هداه اللّه.. ووجّهه إلى الخير وفجّر طاقته الكامنة في طريق النور دفاعاً عن الدين وبحثاً عن الحقيقة والسلام.

(1)
رمز أم غمز في القرآن

عمرو النامي[*]

أحب أن أعرض في هذا الفصل لمسألة تبعدنا عن ميدان الشعر[1]، وإن كان يربطها بالشعر الجديد بعض الظلال والمعاني، أعني مسألة الرمز. وقد عرفنا الرمز فناً في التصوير والتعبير يتخذه الشعر الجديد لإخفاء بعض الأفكار وعرضها عرضاً غير صحيح يتجنب سخط المجتمع وبطش الحكومات. وقد انتشر هذا الأسلوب في الشعر

(*) عمرو خليفة النامي: باحث وأستاذ جامعي وشاعر ليبي، ولد في نالوت بالجبل الغربي عام 1939، وتخرّج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب، الجامعة الليبية عام 1926، عُيِّن معيداً بالكلية ودرس بالإسكندرية ثم كمبريدج حيث نال الدكتوراه عام 1971، ربطته صداقة بالنيهوم أثناء دراستهما في الكلية ببنغازي، وقد نشر مناقشته هذه على مدى حلقات ثلاث بصحيفة العلم، طرابلس، ابريل/مايو 1969.

(1) كان النامي قد نشر سلسلة من المقالات قبل ردّه على النيهوم في فبراير/شباط 1969 عن الشعر الليبي المعاصر.

الحديث وهو لم يكن معروفاً بهذه الصورة في الشعر العربي القديم لأن العرب في القديم لا يواجهون أنظمة القهر والبطش بتلك الصورة. فهم لم يعرفوا إلّا المواجهة المباشرة للجور والظلم قولاً وعملاً، لأنهم يعتقدون (أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر). ولن يعبر الرمز عن الحق، ولن يبلغ الرمز دعوة صريحة واضحة تواجه فساداً ظاهرياً قوياً. ومن الامتهان الشديد للحق أن يتدسس بعرضه، بينما يتعلن الباطل قوياً في كل الصور والمظاهر.

لذلك لم يعرف أسلوب الرمز بصورته الحديثة في الماضي، وهم قد عرفوا الكناية والمثل والمجاز ولكن ذلك كان يؤدي عمل الكلمة الصريحة المباشرة بل وأبلغ أحياناً. وظهور الرمز عند العرب في الحديث أمر غير مستغرب، فهم قد ظهرت بينهم كل أغراض التعبير، إن لم تكن نتيجة لظواهر أصيلة فلمجرد التقليد الأعمى.

ولكن المستغرب حقاً أن نلبس هذه الأساليب الجديدة في التعبير للنصوص القديمة التي عبّر بها أصحابها عن أفكارهم وآرائهم بما عهدوه من صور التعبير وتعرّف عليه الناس حينذاك. أما المستهجن جداً فهو أن نحاول أن نلبس ذلك القرآن الكريم. ولو أنني لم أعرف الصادق النيهوم لكتبت غير هذا عن هذا الأمر، فأنا أعرف الصادق شخصاً لا ينطلق من أسس واضحة فيما يفعل أو يكتب، وهو يصنع ذلك استجابة لما يقرأ أو ما يطرأ عليه من

أحوال تكتنف حياته التي لا يحكمها تصور واضح للحياة، أو سلوك ثابت محدود.

ولذلك فعندما نشر بعض فصوله عن الرمز في القرآن في جريدة الحقيقة حسبت ذلك على ما قدمته من أحواله، وقلت نوبة ستمضي بما جاءت. وهو شيء غير ذي قيمة في الواقع لا من ناحية الجهد والدراسة والبحث العلمي السليم، ولا من حيث آثاره ونتائجه.

فالناس يقرأون للصادق عندما يتحدث لهم عن صديقته السائحة الأجنبية التي لا يعجبها أسلوب الليبيين في المغازلة[1]، ويضحكون من ذلك. ويقرأون له عندما يترجم لهم رسالة العامل التشيكي سائق الجرار إلى حبيبته يلعن فيها الناس والذباب في بنغازي[2]، وقد يضحك من ذلك بعضهم أيضاً. ولكنهم عندما يبصرون موضوع الرمز في القرآن فهم يضحكون قبل قراءته.

فالذي يعرف الصادق من قرب يعرف صلته بالقرآن، والذي لا يعرفه يعرف أن مناهج كلية الآداب وقسم اللغة العربية فيها لا تؤهل الطالب فيها لمواجهة مثل هذا البحث دون رعاية أكاديمية أمينة يخضع فيها الباحث لإشراف أحد

---

(1) (2) إشارة إلى مقالتين للنيهوم نشرتا في الحقيقة، بنغازي، خلال عام 1968: (زوروا ليبيا لكي نفرصكم)، و(بطانة بريد من بنغازي).

الدارسين من العلماء المختصين. وهو أمر لم يتيسر للصادق على الأقل في موضوع الرمز في القرآن، ولذلك فإن اضطلاع صاحبنا بمثل هذه الدراسة أمر تحفّه الكثير من المزالق والمخاطر ولقد رأينا ذلك في ذلك الخلط والتناقض الذي وقع فيه وهو يتحدث عن دراسته في جريدة الرائد (العدد 485)، وهو أمر لا يمكن تلافيه لما أسلفت.

فالمنهج العلمي يقتضي أن نعتبر هذه القضية مجرد فرض، وهذا أيضاً يأتي بعد دراسة شاملة في الموضوع، فقد يكتشف الدارس لهذا الأمر أن الموضوع قد تطرق من قبل، فيعود إلى تقييمه بالصورة التي درس بها، وإذا رأى أن هناك ما يمكن أن يُضاف إلى ذلك فيبدأ في دراسة شاملة للموضوع في جميع جوانبه.

وفي مثل الموضوع السابق فينبغي أولاً استقصاء كتاب اللّه من أوله إلى آخره، مع دراسة حديث رسول اللّهﷺ فيما يتعلق بأطراف الموضوع، وقراءة كل التفاسير السابقة وكل الدراسات في القديم والحديث، وعند العرب وغيرهم. ثم يستطيع الباحث بعد ذلك أن يؤكد صحة افتراضه ويحدّد صوره ومظاهره، أو ينتهي إلى استبعاده وإهماله. وهذه جوانب لم تكتمل للصادق وأنا أقول هذا جازماً به رغم عدم اطلاعي على كامل النسخة العربية السيئة الحظ إن بقي منها ما لم ينشر، أو أخواتها الأربع.

أما أنه لو استشار الصادق بعض المتخصصين في دراسته الأخيرة لوجد أن الباطنية[1] قد سبقوه إلى هذه الدراسة نظرياً وتطبيقياً ولأراحه من هذا العناء، ولجنّبه موقفه المحرج.

ولنتحدث الآن عن تحقيق محمود الهتكي الذي نُشر في مقابلة مع الصادق النيهوم تكلم فيها هذا الأخير عن أقرب الأعمال إلى نفسه (الرمز في القرآن)، وهو الرمز الذي استخدمه في محاولة جديدة ـ (يزعم) ـ لتفسير القرآن بما يحققه هذا المنهج من:

1 ـ مدّ اللغة الإنسانية البسيطة بقدرة الرمز على التعبير.

و2 ـ إيجاد الطريقة المثلى للتعبير (عن فكرة أكثر تعقيداً) مما تحمل اللغة العادية.

ونحن نبادر إلى إخبار الصادق أن اكتشافه هذا جاء متأخراً عن وقته جداً، فإن القرآن قد نزل بما نزل به من الحق ورعاه رسول الله ﷺ وأصحابه بما ألفوه من معاني لغتهم وأساليبهم، وعبدوا الله بما أمرهم على فهمهم ذاك، واعتقدوا كل حقائقه على فهمهم ذاك أيضاً، ولحقوا

(1) نسبة إلى الباطن، وهو مقابل الظاهر. والباطنية هم الذين يجعلون لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً. ومنهم فرق إسلامية: كالإسماعيلية والقرامطة، وغير إسلامية: كالمزدكية.

بربهم وهم صفوة عباده مما أكرمهم بصحبة رسوله والهجرة معه ونصرته ومؤازرته، وما نعلم أنهم عرفوا من أمر هذا الرمز شيئاً.

ونحن على يقين أن الله تعالى لن يكلّفهم غير ما فهموه وكلّف رسوله بتبليغه، فهل نراهم عبدوا الله على حق وجهلوا هذا الرمز، أم أن للقرآن دوراً آخر ومعانٍ أخرى غير تلك التي كلف الله بها رسوله وصحبه، وهي مدخرة للهتكي والنيهوم يعلنانها ويبشران بها؟.

لقد نزل هذا القرآن على لغة العرب، وهو قد أبان عن الدعوة الإلهية ببيان باهر وواضح، ولو نزل بمعميات لم يعوها لأخذوها عليه، ولعدّوها من نقائص البيان، وقد كان المشركون يتهزون مثل تلك الفرص ويتحينونها لتكذيب الرسول والطعن فيما يجيء به من ربه.

وكذلك فإن القضايا التي عرض لها القرآن مما عُدّ من الغيب أو عجز العقل البشري عن تفسيره، ولم يأت فيه علم توفيقي من الله سبحانه، ولا سمع فيه عن رسول الله ﷺ، فقد درج السلف الصالح من المسلمين على إدخال تلك القضايا في نطاق الغيبيات التي قد تنكشف لعلم الناس وقد لا تنكشف، ولكن الأصل الأساسي هو أن القرآن هو المهيمن على غيره من وسائل المعرفة والعلم.

ونحن لا نتوقع أن يأتي يوم يعتمد فيه المسلمون في

فهم قرآنهم على التلمود اليهودي أو العهدين القديم والجديد المحرفين أو على دراسات آرنولد تويبني[1]، ومستشاريه اليهوديين، أو ويل ديورانت[2] وسلفه المؤرخ اليهودي يوسيفون، وهو ما فعله أو يحاول أن يفعله معيد فقه اللغة في هلسنكي (أي صادق النيهوم).

وقد تكلم صاحبنا في مقابلته تلك في الموضوعات التالية:

1 ـ حالة ميلاد المسيح ﷺ ميلاداً طبيعياً ثم بزواج زكريا ﷺ، وقرر أنه كان للمسيح إخوان وأخوات. أما أدلته على هذا فهي كلها من خارج القرآن قطعاً، والذي استشهد به من كتاب اللّٰه آيات آل عمران وخرج منها: إن القرآن قد نصّ على أن مريم امرأة قد بلغت الرشد حين كفلها اللّٰه زكريا، وهذا ما لا يدل عليه السياق مطلقاً، واعتمد على أن كلمة (كفل) تحتمل معنى تزوج، وهذا باطل قطعاً، ولا

(1) مؤرخ إنجليزي مشهور، ولد عام 1889، درس في أكسفورد، وخدم في الخارجية البريطانية. فسّر قيام الحضارات على ما أسماه (التحدي والاستجابة)، وهو ينكر قيام التاريخ على فلسفة قدرية. من مؤلفاته الشهيرة (دراسة التاريخ) في (12) مجلداً، أنجزه في الفترة من 1934 ـ 1961م، و(الوحدة العربية آتية).. وغيرها. زار ليبيا أواخر عام 1963، وألقى محاضرة في جامعتها ببنغازي. توفي عام 1975.

(2) مؤلف (قصة الحضارة) ولد عام 1885 ويُعدّ أحد أشهر مؤرخي القرن العشرين.

يمكن أن يعتمد في هذا الصدد، فلم يرد استعمال لكلمة (كفل) بمعنى تزوج، ومن العجيب أن يتخلى القرآن عن استعمال كلمة تزوج في هذا الموضوع بالذات، ويبدلها بكفل بينما قد درج على إيرادها في آيات كثيرة تتجاوز سبعين موضعاً أو أكثر بلفظ الزوج والتزواج والتزويج صريحاً واضحاً سواء في معرض التشريع أو العرض القصصي، بينما استعمل القرآن كلمة كفل بمعنى الرعاية والكفالة والعناية: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾[1]، وكذلك في آية أخرى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾[2]، فهي تعني هنا كفالة طفل رضيع حرم الله عليه المراضع ليرجعه إلى أمه ليطمئن قلبها وهو موسى عليه السلام، ووردت كذلك في الآية التالية: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾[3]، ومعنى أكفلنيها هنا (اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي)، وهكذا لا تجد أنه لا معنى مطلقاً لذلك التمحك الفاسد الذي يريد أن يُفهم من كفل (زوج).

وأنا لا أكتب لأن في المسألة كبير نقاش، ولكن ليرى القارئ مدى الجرأة وسوء الفهم التي يتناول بها هؤلاء كتاب الله تعالى، فهم يبدأون بالتي هي أسوأ ويطالبون أن

---

(1) سورة طه، الآية: 40.

(2) سورة القصص، الآية: 12.

(3) سورة ص، الآية: 23.

نجادلهم بالتي هي أحسن. وهذا الذي يردّونه ليس جدالاً سلحاً والعياذ بالله.

ونحن نعرض للحديث في هذا الأمر في سياق الآيات الكريمة التي تعرض لها صاحبنا واتخذها منطلقاً لحديثه وهي آيات سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى

وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وتقول الروايات إن الآيات من سورة آل عمران نزلت في مناسبة قدوم الوفد من نصارى نجران اليمن ومناظرته للرسول ﷺ وسؤاله عن أمور لم ترد في سورة مريم، وهي سورة مكية وآل عمران مدنية نزلت بعد الهجرة بفترة، بعضهم يؤقّتها بعام (الوفود) وهو العام التاسع للهجرة، وبعضهم يقدّمها على ذلك الوقت، والذي يهمني الوقوف عنده هو ما يتابع في هذه الآيات من أمور كلها خارق للعادة، يصوّر أفضال اللّه على هذا البيت الكريم الذي أكرمه اللّه بالاصطفاء والهداية.

وأول هذه الآيات والأفضال ما يذكره اللّه سبحانه من شأن مريم الطاهرة المصطفاة: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ

(1) سورة آل عمران، الآيات: 33 ـ 47.

عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[1]. فهذه معجزة أولى لن نطيل الوقوف عندها، وينتقل بنا النص إلى تصوير زكريا كيف ترق نفسه وتحنّ إلى ذرية طيبة من صنف مريم، فيضرع بالدعاء إلى ربه بذلك.

وقد وردت صيغة ذلك الدعاء في الآيات الأولى من سورة مريم كذلك، ويستجيب له ربه الكريم، وكان الأمر معجزة أخرى جعلت زكريا نفسه وهو نبي كريم يعجب من نداء الملائكة الذي يبشره بيحيى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2].

وهكذا تتوالى المعجزات والأفضال على هذا البيت الكريم، ويطل علينا المشهد الجديد في الآيات السابقة بالملائكة الكرام يبشرون مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم فتتساءل في إشفاق واستغراب: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

وفي سورة مريم قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾[4]. فهاتان الآيتان تنصان نصاً

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 37

(2) سورة آل عمران، الآية: 40.

(3) سورة آل عمران، الآية: 47.

(4) سورة مريم، الآية: 20.

صريحاً على أن بشارة الله لمريم بالمسيح كانت مستغربة من قبلها لأنها لم تتزوج، ولم يمسها بشر، ولم تك بغياً، وهي طرق الإنجاب العادية في أفهام الناس.

وكان الجواب في الحالتين يذكّرها بالحقائق الكبرى، وهي المقدرة الإلهية على الخلق عندما يشاء كما يشاء: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[1] و: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[2].

فالآيات في السورتين تؤكدان أن حمل المسيح عليه السلام كان على غير الطريق المألوف والمعتاد بين البشر، وأنها ستلد ولداً وهي عذراء لم يمسها بشر لا نكاحاً ولا سفاحاً: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ و﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[3].

والقضية هنا واضحة، ويسوق القرآن الآيات في سورة مريم بما يدلّ على هذا المعنى ويؤكده، فهي عندما ألجأها المخاض إلى جذع النخلة قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[4]، وهذه الشكوى الضارعة الأليمة

(1) سورة آل عمران، الآية: 47.
(2) سورة مريم، الآية: 21.
(3) سورة التحريم، الآية: 12.
(4) سورة مريم، الآية: 23.

تصوّر مدى الحيرة والذعر مما ستواجه من قومها الذين يستنكرون هذا الحديث، فكيف تلد من غير أن يكون لها زوج؟ وقد كان ما توقعت: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[1].

وهذا كله تلميح لما يعتمل في نفوس القوم من الظنون والشكوك في مريم البتول التي تأتيهم بولد من غير زوج، وهم يستنكرون منها هذه الفعلة التي لا تكون إلّا من بنات آباء السوء وأمهات البغايا، وقد تكلّم عيسى في المهد بما أجلى تلك الشكوك وأزاح تلك الظنون، وليعلن نبوته وطهارة أمه المصطفاة، ولو كان زكريا زوجاً لمريم لما جاء كل هذا الاستنكار والاستغراب، ولو كان ذلك كذلك لما كان لكل هذه الآيات معنى، ولكن اللّه سبحانه لا يترك بتلك الآيات الواضحة الصريحة القاطعة المجال لأي تصوّر آخر في القضية كلها، فقد حملت مريم العذراء بالمسيح ﷺ بأمر اللّه وإرادته، وكان ذلك بنفخة من روحه سبحانه ـ هو أعلم بكيفيتها ـ ، وكان المسيح ﷺ محفوفاً بالمعجزات في حمله وفي كلامه في المهد وفي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من بعد.

(1) سورة مريم، الآيتان: 27 ـ 28.

(2)

ومرة أخرى، فأنا لا أكتب هذا الكلام لأن في القضية كبير نقاش أو صغير نقاش، ولكنني أكتب هذا للصادق والهتكي ليصححا عقيدتهما، ولمن لم تتح له فرصة الاطلاع على الموضوع ودراسته، وليعلم القارئ مدى جراءة صاحبنا على حقائق القرآن.

أما اليهود ـ لعنهم اللّه ـ فهم يعتقدون أن وراء مولد المسيح بهذه الصورة سرّاً لا يشرّف، وأنها قد حملته سفاحاً من يوسف النجار.. ونحن نبرأ إلى اللّه تعالى من قولهم هذا ونستغفر اللّه من إيراده هنا، فذلك من بهتانهم وقولهم غير الحق، وهم قد كذبوا النبيّين وقتلوهم فلا يستكثر منهم هذا الطعن في القديسة الطاهرة المصطفاة.

أما المسيحيون فقالوا عن المسيح إنه ابن اللّه ـ تعالى لله عن ذلك ـ فوقعوا في شر آخر، وهكذا جاء القرآن يبين للمسلمين الحق الواضح في شأن عيسى ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وهكذا يتبين أن ما يريد النيهوم أن يلفقه هراء منكر، وأن كل ما فعله هو أن عدّل قليلاً في عقيدة اليهود في هذه المسألة، وجاء ليزوّرها على القرآن من غير مستند ولا دليل، فهو يقترح زكريا أباً لعيسى بدلاً من يوسف النجار

---

(1) سورة مريم، الآيتان: 34 ـ 35.

ويقترح الزواج بدل السفاح الذي تنصّ عليه نصوص اليهود وكتبهم التاريخية، وفي سبيل هذا يبطل الآيات الكثيرة الواضحة، ويصادم كتاب الله بصورة قبيحة مستهجنة.

2 ـ والموضوع الثاني، الذي عرض له صاحبنا هو معجزات عيسى عليه السلام التي جاء يفسرها لنا طبقاً لأبعاد الرمز ـ (زعم) ـ ، يقول صاحبنا: «أما شفاء الأكمه والأبرص فأنا أعتقد أن الرمز هنا للإنسان الأعمى الذي لا يستطيع أن يرى آيات الله في العالم من حوله».

ولصاحبنا أن يعتقد ما يشاء، ولكن أن يقول إن ذلك من معاني هذه الآية فذلك افتراء محض وفساد في الفهم (هذه الألفاظ ليست شتائم ولكنها صفة لهذا الذي يصنعه صاحبنا) فقد استعمل القرآن لفظ الأعمى والعمى في أكثر من ثلاثين موضعاً للدلالة عن عدم الاهتداء فذلك قد جاء في مواضع كثيرة ولكنه استعمل اللفظ في مدلوله القريب، أعني العمى، الذي هو فقدان البصر وذلك في المواضع التالية ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾[2] ـ الآية، فهاتان تختصان بالتشريع لهذا الصنف من الضعفاء وذوي العاهة، الأولى ترفع

(1) سورة الفتح، الآية: 17.

(2) سورة النور، الآية: 61.

الحرج عن أولئك الصنف من العمى والعرج والمرض في أمر الخروج إلى الجهاد.. والثانية، ترفع عنهم الحرج في أن يأكلوا في بيوت أقربائهم أو من يأخذهم إليه صديقهم من البيوت التي حددتها الآية.

أما الآية الأخرى التي يقول فيها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[1] فهو صحابي معروف اسمه ابن أم مكتوم[2]. ولذلك فإن قول صاحبنا في مقابلته: (هذا يعني أن كلمة الأعمى وكلمة الموتى تستعملان في القرآن للرمز إلى أولئك الناس العاجزين عقلياً عن الارتباط بالعالم العلوي..) قول منفلت وتعميم فاسد لا يصدق على كل موضع في القرآن خصوصاً في آية معجزة المسيح ﷺ، أما قول صاحبنا: (.. أما قوله ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ..﴾[3] فالطين رمز للمادة المرتبطة بالأرض.. أي للإنسان المرتبط بعالمه المادي.. والطير رمز للسمو الروحي.. وعيسى المسيح الذي جاء لنقل الإنسان البسيط من عالم التراب والمادة إلى عالم اللّه الرحب.. كان في الواقع يؤدي مهمة أكثر تعقيداً من مجرد صناعة الدمى الطائرة):

(1) سورة عبس، الآيتان: 1 ـ 2.

(2) عبد الله بن أم مكتوم: كان كفيف البصر، جاء إلى الرسول ﷺ وهو مشغول بكبراء قريش يدعوهم للإسلام فقطع عليه كلامه، وكره الرسول منه ذلك، فنزلت سورة (عبس) في حقه، وهي السورة الثمانون من سور القرآن، مكية وجملة آياتها (42) آية.

(3) سورة آل عمران، الآية: 49.

أولاً: إن الآية قالت ﴿أَخْلُقُ لَكُم﴾ وليس منكم.

وثانياً: من قال للصادق إن المسيح جاء ينقل الإنسان البسيط من عالم المادة والتراب إلى عالم الله الرحب، أو إنه جاء يصنع الدمى الطائرة. إنه لا هذا ولا ذاك، هو جاء ليبلغ رسالة الله لهذا الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض يعيش فيها، ويعبده فيها، وجاء يعبده لله، لا لينقله إلى عالم الله الرحب.. فهذه كلمة غائمة شديدة الغيمومة لا مضمون لها في الواقع، كذلك فإن المعجزة التي يخلق فيها المسيح طائراً من الطين فيبث فيه الحياة ليس صناعة دمى طائرة، فذلك ما يصنع اليوم في مصانع أوروبا الشرقية والغربية. ولكنه كان يخلق لهم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيصبح طائراً بإذن الله.. من تمثال من الطين، إلى طائر حقيقي بلحم ودم وريش، وذلك كله آية من الله، وبإذن الله، وكذلك إحياء الموتى وإنباء بني إسرائيل بما يأكلون ويدّخرون في بيوتهم وليس ذلك كل ما يسره الله من معجزات على يد عيسى ﷺ فهناك غيرها، ولا أريد أن أطيل في هذا أيضاً فليس فيه كبير نقاش ولا صغير نقاش، ولكنني أوردت هذا لتصحيح ذلك الكلام الفاسد الذي قد يظن الناس أنه على شيء.

وهو يعتذر اعتذاراً قبيحاً عن ذلك الذي سلف بأن: (ذلك لا يعني أن الله عاجز عن تحقيق المعجزة، ولكن يعني أن الله يحترم العقل الإنساني ويعطيه فرصته لكي

يكتشف طريقته بقدرته وحدها بعيداً عن عالم المعجزة الغامض. هذا يعني أنه يحترم كبرياء الإنسان ويترك له شرف اكتشاف الحقيقة بنفسه دون أن يعمد إلى شلّه بمظاهر المعجزة الخارقة).

يقول السيد صادق لمحمود الهتكي في خلوة الخزعبلات: (ومرة أخرى أنا مثلك أؤمن باللّه، وأنا مثلك أعرف أنه على كل شيء قدير، ولكن أريدك أن ترى أن عقولنا لم تخلق لمجرد العبث) ـ ربما يعني أبعد من العبث وذلك ما يمكن أن نحمل عليه ما كتب ـ .

وتعالوا أحدثكم أنا الآخر من خلوتي في كامبردج[1]: أولاً، من أخبر الصادق أن اللّه سبحانه وتعالى (يحترم) العقل الإنساني، وما تعني كلمة الاحترام في حق اللّه تعالى؟ وهل هي من الصفات الجائزة عليه سبحانه؟.

إن اللّه تعالى لا يجوز عليه أن يحترم شيئاً معيناً ولا يحترم غيره، وهو سبحانه خلق الإنسان بما فيه عقله على النسق الذي أراده، فحدّه بحدود لا ينال ما وراءها، ولأن اللّه سبحانه قد خلق الإنسان ليعبده، ولأنه يعلم حاجته إلى الهداية لما يعلمه من خلقه وشأنه، وأنه لا ينال هذه الهداية (بقدرته وحدها) فقد أرسل إليه الرسل.

(1) حيث كان النامي ـ وقت كتابته لردّه على النيهوم ـ يواصل دراسته العليا هناك.

والقضية هنا أن الرسل كلهم ﷺ، مع كمال عقولهم، لا يعتمدون في رسائلهم التي يبلغونها إلّا في حدود التبليغ وما يتصل به، أما الرسالة فيتلقونها من اللّه عن طريق الوحي، وهم أمناء على تبليغ ذلك الوحي. ومجرد الوحي من اللّه وتسليم قبوله، تسليم بالمعجزة، لأن ذلك يتمّ خارج نطاق العقل، ولا بد من التسليم بذلك لقبول حقيقة النبوة وإلّا نكون قد رفضنا هذه الحقيقة من أساسها، ولذلك فإنني أقول لكم من هذه الخلوة التي لم يحضرها الهتكي والنيهوم، إن اللّه لم يحترم عقل الإنسان بذلك المفهوم الذي عرضه صاحبنا مطلقاً، وإنه قد أحاطه (بعالم المعجزة) بإرسال الأنبياء وهديهم ومعجزاتهم كذلك.

قال الإمام أبو عمار عبد الكافي[1]، في كتاب الموجز: بعث اللّه موسى صلى اللّه على محمد وعلى موسى وعلى جميع المرسلين، والغالب على الناس إذ ذاك أمر السحر، وقد فشى فيهم حتى اتخذوه صناعة يوجد عند كبيرهم وعند صغيرهم، وأظهر اللّه على أيدي موسى ﷺ من العلامات والشواهد والمعجزات ما دوّخ به أمور جميع السحرة، وأعجزهم عن الإتيان بمثله وأعلمهم أنه ليس من

(1) عبد الكافي بن أبي يعقوب الوارجلاني المشهور بأبي عمار، عالم شهير من الأباضية. عاش في القرن السادس، توفي عام (1174 تقريباً)، له مؤلفات عديدة وقد اشتهر بكتابه (الموجز) وهو يقع في جزأين، حقّقه الدكتور عمار الطالبي في رسالة جامعية وجعل عنوانه (آراء الخوارج الكلامية).

جنس ما يأتون به من السحر بوجه ولا سبب من انقلاب العصا حية تسعى وثعباناً مبيناً، حتى اشترطت جميع حبالهم وابتلعت جميع عصيهم فذهبت ولم يوجد لها أثر مع ما جاء به من النور إذا هو أخرج يده صارت بيضاء صافية من غير برص ولا سوء، وما كان من رجوع مياههم دماً، وما سلّط عليهم من الجراد والقمل والضفادع، وفلق البحر حتى صار براً يابساً، ونقعاً ساطعاً فشقّه موسى ومن معه فخرجوا منه سالمين، وأتبعهم فرعون وجنوده على آثارهم فظلوا فيه غارقين، في سائر تلك الآيات المشهورة على يد موسى ﷺ، فتبين للسحرة عند ذلك أن الذي جاء به موسى ليس من فعلهم ولا من فعل أحد من البشر لمعرفتهم بنهاية السحر ومبلغه، فاتضحت لهم الحجة فآمنوا بموسى وما جاء به، وكفروا بفرعون وما يدعو إليه، فإيمان السحرة حجة على فرعون ومن معه وقطع لمعاذيرهم ومعاذير جميع المبطلين المكذبين للرسالة، وبعث الله عيسى ﷺ والغالب على أهل زمانه أمر الطب والتداوي وبه يفتخرون وفيه يتنافسون، فأتاهم عيسى ﷺ من عند الله بإحياء الموتى ويبرئ لهم الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله، فأول ذلك أنه لما أن أبرأ لهم الأكمه والأبرص حاروا وشكّوا وقالوا: هذا من شبيه ما يأتي به أهل صناعة الطب فلما أن أحيا لهم الموتى زادت الدلالة وتأكدت الحجة ثم خلق لهم شيئاً لم يكونوا يرونه بين أيديهم فنفخ فيه وأحياه لهم فجاء لهم بأعظم من

الثانية والأولى)[1].. وقد تحدث أبو عمار رحمه الله عن معجزة الرسولﷺ: (وهي هذا القرآن الكريم الذي عجز الكفار أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة من مثله وهو قد أعلن التحدي لهم بذلك، فأعجزهم ذلك وهم أهل البلاغة والفصاحة والبيان مع ما هم فيه من شدة الحرص والاجتهاد في التكذيب للنبيﷺ).

وهكذا كانت المعجزة هي الدليل القاطع على أن رسالات الأنبياء ليست من عند عقولهم وقدراتهم كبشر ولكنها من عند الله تعالى، ذلك أن هذه الرسالات جاءت إلى الناس لتعبدهم لله فوجب أن يعرفوا أن ذلك من الله سبحانه.

أما التفسير الآخر الذي ألحقه اليهوم فهو أن كلامه السابق يعني أن الله سبحانه يحترم (كبرياء الإنسان).. فكيف يا ترى علم الخبيث بذلك السر العجيب الذي كنا نجهله قبل اليوم؟ وما يقول هو وزميل خلوته في حديث الرسولﷺ عن طريق أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله عز وجل: العز إزاري، و«الكبرياء» ردائي فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته)[2].

---

(1) مخطوط جـ1: 27 ـ 26.
(2) رواه مسلم.

فذلك شأن الكبرياء فيما ألف الناس يتكبرون به من شؤونهم، أما عندما تكون هذه الكبرياء فيما يجاوز هذه الحدود البشرية، وتحب أن تتطاول إلى معرفة الحقائق المطلقة من غير الطريق الذي حدده اللّه للناس، أو أن تصور تلك الحقائق بالصورة التي تريد فتلك الكبرياء شرك خسيس، مما لا يغتفره اللّه لأصحابه. وهكذا نرى مع صاحبي الخلوة أن عقليهما قد صنعا أكثر من العبث واللهو والخلط والتخريف والتحريف وأشياء أخرى.. وأين العبث أكثر من القول بأن اللّه سبحانه يشلّ عقولنا بالمعجزات؟

إنه لا يشلّ عقلنا بالمعجزات، ولكنه يصره حدوده.. والعقل كل شيء في الإنسان محدود المدى والقدرة، وأقرب شيء إلينا جميعاً هو عمر هذا الإنسان في هذه الأرض فكلنا يعرف أن اللّه قد خلق الموت ليحدّ وجود الإنسان كله في هذه الدنيا، فليس بدعاً أن يحدّ عقله بحدود وإنما العبث واللعب أن يخلق اللّه العقل في الإنسان بقدرة محدودة ثم لا يعلم ذلك الإنسان بتلك الحقيقة، وتعالى اللّه عن كل ذلك وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[1].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 16.

(3)

.. أما لماذا يريد صاحبنا أن يفسّر القرآن بالرمز، فإنه يفعل ذلك للأسباب التالية:

1 ـ إن اللّه يحترم العقل الإنساني، ويعطيه فرصة لكي يكتشف طريقه بقدرته وحدها بعيداً عن عالم المعجزة الغامض، ولذلك فلا معنى للحديث عن المعجزات وشؤون الغيب في القرآن، وكل الآيات التي عالجت ذلك يجب مصادرتها لحساب الرمز. وقد رأينا أن ذلك من التخريف المحض الذي لا سند له في مجال الدراسة العاقلة.

2 ـ إن الرجوع إلى الرمز في التفسير يجعل فهمنا متفقاً (مع ما ورد في المصادر التاريخية، وفي نطاق الفهم البشري) ولم يذكر المصادر التاريخية، وهي كتب التلمود والعهدين القديم والحديث وول ديورانت، ومعتمده المؤرخ يوسيفوس اليهودي.. إلخ.

3 ـ إن عيسى ﷺ لم يقل قط طول حياته إنه قد ولد ولادة غير عادية، ولم يشر إلى ذلك قط. وليت شعري من أين له ذلك الادعاء، وماذا يقول في آيات سورة مريم، فقد وردت عند الحديث عن يحيى ﷺ هكذا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾[1]، أما عندما أوردت كلام

(1) سورة مريم، الآية: 14.

عيسى عليه السلام وهو في المهد يخاطب قومه فقد جاء فيها ما يلي: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾[1]، وهذا نصّ صريح يتوجه فيه المسيح عليه السلام ببّره لوالدته فقط لأنه لا والد له.

ثم إذا أسلمنا أن عيسى عليه السلام لم يشر إلى هذا مطلقاً ـ وهو باطل بدليل الآية السابقة ـ فذلك لا يزيد ولا ينقص من حقيقة أن القرآن قد قرّره وأشار إليه، والقرآن حجة على عيسى وموسى عليهما السلام، وعلى كل خلق الله.. وخصوصاً عندما يكون الأمر عن الرمز في القرآن.

4 ـ إن ولادة عيسى عليه السلام، لم تكن بالنسبة له أو بالنسبة لأهدافه وأداء رسالته ذات قيمة محددة سواء كان قد ولد من أبوين بشريين عاديين، أو كان قد ولد بمعجزة، ونحن نقدّر أن الذي يحدّد هذه القيمة هو اللّه سبحانه الذي خلق عيسى عليه السلام وأرسله بالرسالة الإلهية وجعله آية للناس، وليس الصادق النيهوم ولعله يسلم بذلك، أما إذا سلمنا بما قال صاحبنا فإن ذلك يعني أن كل ما ورد في القرآن بشأن مولد عيسى عليه السلام شيء غير ذي قيمة. ونحن نبرأ إلى اللّه من مثل هذا القول ونستغفر اللّه لأنفسنا وللقراء من إيراده.

5 ـ إن صاحبنا يكره أن يفترض أن يولد أحد بدون أب وبطريقة خارقة للعادة وكما قلت سابقاً، إن له أن

---

(1) سورة مريم، الآية: 32.

يحب وأن يكره ما يشاء، له مزاجه ولكنه لو ملك بعض الذوق لعلم أن لا يكفي مبرراً لطرح كتاب اللّه وتكذيب آياته، أو على الأقل لا يكفي مبرراً لإقناع الآخرين بما يحاول إعلانه.

6 ـ وهو يصنع كل ذلك أيضاً لأنه يؤمن بالإنسان، وأن الإنسان مخلوق عظيم عهد إليه اللّه بمهمة تحقيق (الدفق الروحي القادر على نقل الجسد الطيني إلى عالم اللّه بطريق الإيمان) وقد رأينا فيما سبق فساد هذا القول وخلوّه من المعنى.

7 ـ وهو بعد ذلك ينتهي إلى صفقة في القضية مفادها: (ليس مما يضير المسيح أن يظل إنساناً.. أن يعرف أن عيسى الذي رفعته الثقافات البدائية إلى مصاف الآلهة كان في الواقع مجرد إنسان).

ويطيب لي أن أذكر الصادق أنه يساوم في صفقة ممضاة لا رجوع فيها ولا مساومة فقد جفّت الأقلام وطُويت الصحف، ومضى حكم اللّه في ذلك بما مضى به، وعلى الإنسان أن يسلم بالحق كما جاء في القرآن، أو يتركه ويعتقد ما يشاء فهو مسلم في الأولى ومشرك مكذّب في الأخرى. ونحن لسنا ممن يتدينون بما تقرّره مجالس خاصة كما تفعل الكنيسة التي تعدّل معتقداتها كلما اشتدّ عليها نفوذ اليهود، ولكننا ندين بما في هذا القرآن الذي تكفّل اللّه بحفظه.

ثم إن شأن القرآن مع الثقافات البدائية التي ترفع عيسى إلى مصاف الآلهة، وإنصاف بيّنته ووضّحته آيات القرآن التي تناولته ورأينا بعضها، وذلك ما يهمّ المسلمين من أمره. أما أصحاب الثقافات البدائية فنحن ننصح أن يذهب إليهم ليبشّر بينهم بدينه الجديد.

تلك هي دوافعه وأسبابه التي أوردها مفرّقة في تلك المقابلة، وقد علّقنا عليها بما يكفي وهذه الوجوه والأسباب كلها لا تزيد على كونها هوى من الهوى الذي يملأ نفس الصادق وأمثاله، وهي إن صلحت أن تكون مظاهراً للحيرة والضياع في نفس صاحبنا حول قضايا معينة فهي لا تصلح بحال أن تكون منطلقاً لدراسة من أي شكل وخصوصاً فيما يتعلق بالقرآن.

وأنا أقول للصادق الذي بعث من موته القديم بيننا وعجز عن الشعور بالحياة مع الآخرين، (وهؤلاء الآخرين هم الناس في ألمانيا الغربية، وأصهاره في فنلندا)، والذي لا يستطيع أن يقبل ظروفنا الثقافية وسوف يفعل أي شيء في وسعه لكي لا يقبلها في يوم من الأيام ما دامت عاجزة عن احتضان قضايا الإنسان، وحب الإنسان..

وأقول للصادق الذي جاء يقول لنا افتحوا نوافذكم: إن الإنسان الذي تريدنا أن نحتضن قضاياه قد حطّم نوافذنا تحطيماً كاملاً، ولم يترك لنا نوافذ مغلقة حتى نفتحها وقد

هزّتنا من جراء ذلك تيارات عنيفة من الفكر الفاسد والتصور الفاسد والخلق الفاسد.

والمشكلة هي أننا لم نصلح نوافذنا بعد، ولم نهيئ لها أبوابها بدليل أنه نفسه قد قال ما قال ولم يجد النافذة مغلقة، أما بالنسبة للإنسان فنحن لا نشك أننا من فصيلته، ولسنا من غيره ولا نحتاج إلى تأكيد إيماننا بذلك، ولكننا نؤمن باللّه وبالقرآن وبالإنسان الذي يكون خلقه القرآن، وسوف نواجه بذلك كل إنسان آخر يريد أن يضلّنا عنه وعن هداه، سنواجهه بكل أصناف المواجهة.

ونحن لا نطالبك بقبول ظروفنا الثقافية، وقد كنا نرجو أن تكون ممن يصلحها، وإذ تبين أنك لا تملك القدرة على ذلك فخير لك أن تدرس فقه اللغة في هلسنكي، وألّا تزيدنا على آلامنا الكثيرة بما تتحدث به ولا تعيه. أما عن الهداية فثق أنها من اللّه وحده وليست من أحد فالتمسها واجهد في البحث عنها قبل أن تتصدى لمثل هذا فعليك أن تتم أمورك أولاً بأول.

وأما بالنسبة لكتاب اللّه فقد حاول معه مثل ما يحاوله الصادق اليوم أسلاف له فما نالوا منه شيئاً وقد أفضوا إلى ما قدّموا، وكتاب اللّه هو هو، وسوف يلحق بهم صاحبنا كذلك، وسوف يدرك عندئذٍ أن الأمر أكبر من ترف عقلي ولو بهذا الكلام وإلقاء له على عواهنه. وأن صوته مهما ارتفع فلن يكون أبلغ أثراً من أصحاب الطامات الذين

تحدث عنهم الجيطالي[1] في كتاب القناطر، نقلاً عن الإمام الغزالي في قوله: (وأما الطامات فيدخلها ما ذكرنا في الشطح وأمر آخر يخصها، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الإفهام فائدة كدأب الباطنية في التأويلات، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى بذلك بطلان الثقة وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسول اللهﷺ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، الباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى).

(قال: وبهذا الطريق توصلت الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم، قال: ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[2]، إنه إشارة إلى قلبه، وقال هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان، وفي قوله

---

(1) إسماعيل بن موسى الجيطالي (أبو طاهر): عالم أباضي، ولد بجبل نفوسة في ليبيا، اشتهر بحافظته القوية، من مؤلفاته: (قناطر الخيرات) في ثلاثة أجزاء، وهي موسوعة فقهية وأخلاقية، حقق جزأها الأول د. عمرو النامي. توفي ودفن بجربة في تونس عام 1349م.

(2) سورة طه، الآية: 24.

تعالى: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾[1]، أي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عزّ وجل وينبغي أن يلقيه.. وأمثال ذلك، حتى يحرّفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء..)[2].

وهكذا ترى أيها القارئ الكريم أن ما يردّده صاحبنا اليوم هو نفس ما جاءت به دعوة القرامطة اليهودية، ونفس ما روّجته نصوص التلمود وعقائد اليهود في عيسى وأمه ﷺ، فليت شعري هل يعلم الصادق كل ذلك أم تراه يحسب نفسه قد اكتشف شيئاً جديداً.

(فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم)

ونحن نتغاضى عن هناته الأخرى في تلك المقابلة مثل قوله: (المفسرون المذكورون أعلاه يزعمون بلباقة أن ذلك كله ـ وتأمل قوله يزعمون بلباقة ـ مستمد من نصوص القرآن..) وقوله: (وكلمة السماء التي يفترض المفسرون أنها هذا العالم الأزرق). فذلك ما يفترضه هو على المفسرين، وهم يعرفون عن السماء وشأنها أكثر مما يظن ويتخيل بكثير، وقوله: (إن اللغة العربية نفسها وإن الناس الذين يكتبون باللغة العربية لم يكتشفوا بعد ماذا تعني كلمة النقاش

(1) سورة الأعراف، الآية: 117.

(2) تناطر الخيرات، ط القاهرة 1965، جـ: 271 ـ 277.

المتزن) وهو يعني النقاش المتزن لما كتبه ورأيتم بعضه.

ثم دعك من ذلك التطاول المعيب الذي ما كنت أحسبه من أخلاق المتعلمين في قوله: (ولكن أتمنى أن يقبل المفسرون «فكرتنا»)، ولعله يقصد الجمع كله، أعني هو والباطنية والقرامطة واليهود ومن هم على ذلك الرأي.

فإن كان الأمر كذلك فلا بأس، ومثل ذلك قوله: (إنه يعني انفصالكم عني) يجيب على سؤال صاحبه: ألا يعني هذا انفصالك عنا ثقافياً ونفسياً؟

أما أنه لو كان لهذا الدين بعد ذلك من يروّج لمثل هذا الباطل في أي صورة على (الردّة) ولا أبالي، ولرجوت حماة لحموه من كل هذا العبث، ولو كان لي شأن لحدّدت الثواب من الله على ذلك[1].

(1) في إطار الردود والمناقشات حول الدراسة والحوارات شهدت أيضاً تلك الفترة ما بين (1967 ـ 1969) إلقاء خطب يوم الجمعة من الشيخ محمود القزيري في مساجد البركة ببنغازي ثم نشرها في صحيفة (الرقيب)، ومن الشيخ الطاهر النعاس، ومحاضرة للشيخ محمود الملاتي ألقاها في جمعية الفكر بطرابلس. كما حصلت مناظرة فكرية أمام النائب العام في مكتبه بطرابلس، مارس/آذار 1969 بين النيهوم واثنين من الوعاظ المصريين.

حول الرمز في القرآن:
النيهوم يعيش محنة التشويش الفكري فأنقذوه

محمود الهتكي(*)

في صورة من قريب.. بجريدة (الرائد) الغراء، العدد رقم (485) بتاريخ (14 مارس/آذار 1969) أجريت حواراً مع الأخ صادق النيهوم عن: الرمز في القرآن. ولقد تركّز الحوار على قضية مولد السيد المسيح ﷺ.. فالأخ صادق يرى: أن السيد المسيح ولد من صلب اسمه يوسف النجار.

وهذا الرأي.. اعتقاد استشرى في حديث يستمد

(*) انظر التعريف به في ص 107 من هذا الكتاب. وقد نشر الهتكي هذه المقالة في صحيفة (البلاغ) الصادرة في طرابلس في 24/ 5/ 1970، وقدّم لها بهذا التنبيه: (قد يفسّر البعض ما أكتبه الآن بأنني تخليت عن صداقتي للأخ صادق النيهوم.. فأنا لم أتخلّ عنه أيام الشدة.. والقهر الفكري، فما بالك الآن. فأنا لا زلت وسأظل صديقاً صادقاً للأخ صادق.. الذي يُعتبر ظاهرة فكرية يجب احتضانها ورعايتها، فالفكر ملك لهذه الأمة التي هي في حاجة إلى كل عقل سليم!).

جذوره من منطق بعض الشعوبيين الزنادقة الذين ادعوا التصوف في أواسط عصر الانحطاط للثقافة العربية، ولمس الموضوع أيضاً: قضية المعجزات التي جاء بها الأنبياء وجهر بها السيد المسيح عملياً حيث أبرأ الأبرص وأبصر وأحيا الموتى بإذن ربه.

والأخ صادق - وهو يأخذ برأي المستشرقين - يؤكد حدوث المعجزة.. إلّا أنه ينفي مصدرها الغيبي، أعني أن الأخ صادق ينسبها لذكاء السيد المسيح، وهذا رأي استشراقي أيضاً، وله من الخطورة ما يذهل.. كيف ذلك؟

من حيث قصة مولد السيد المسيح عيسى ابن مريم بأنه ولد من غير أب ليس بمعجزة في اعتقادي بل هو تأكيد لمعجزة حصلت، وهي قصة خلق آدمﷺ، فنفي الأخيرة سابقة تؤكد وجود اللّه في الأولى.. وتجرّنا إلى نفي وجود اللّه، وهو المقصود أساساً بالمنطلق.

وأما الثانية، فهي أيضاً تسوقنا إلى المنطلق الذي وصلت إليه الأولى.. أعني نفي وجود اللّه.. كيف؟

حين نقتنع بعدم وجود المعجزة، وأنها لا تأتي من عند اللّه، وأنها من صنع ذكاء (الأنبياء) فذلك يعني: أن البشر في إمكانهم إحداث المعجزات (الخارقة) وبالتدريج نصل إلى القرآن وننفي كونه معجزة، ونقول هو كلام من عند محمدﷺ، وبالتالي ليس هناك إله.

والأخطر من ذلك، هو أن يدّعي أحد من البشر النبوة دون أن يحتاج إلى برهان يؤكد مزاعمه.. أعني المعجزة الخارقة للعادة، التي هي بالضرورة من عند اللّه، ولقد كشف عن هذا الدكتور مصطفى محمود في محاولة تفسيره العصري للقرآن[1]، وهو اكتشاف فتح بصيرتي بعد أن عجز بصري عن كشف السر من وراء التشبث بنفي المعجزة، فشكراً للدكتور.

ولكن لماذا أخوض ثانية في هذا الموضوع الذي مرّ عليه أكثر من سنتين؟

أولها: إنني تعرّضت للعديد من الأسئلة.. فيما إذا كنت أومن بما قاله النيهوم أم لا؟

وثانيها: تعرضت إلى أن يقف إنسان ـ يعلم اللّه بسريرته ـ ويعلن خروجي من الإسلام ويشهر تكفيري، أقول تكفيري وليس بكفري، لأنني لست بكافر فأنا مؤمن، بل أعشق عقيدتي الخالية من الشوائب التي ألصقت بها في سنوات الانحطاط والقهر.

وثالثها: إنني تعرضت للهجوم من قبل الكثيرين.. فمنهم من كان صادقاً مع نفسه، وبدافع الحرص على

(1) عن هذه المحاولة انظر ما كتبه النيهوم في مقالته (تقرير) في هذا الكتاب.

العقيدة، ومنهم من (نهق) بدافع المصلحة الذاتية (تشعيط)، وبعضهم من النوع الذي يتلذذ بتعذيب الآخرين (ماشوسيت). فهذا الصنف استعدى عليّ الأخ صادق وعليّ السلطة.. وقد استدعيت لتحقيق شكلي من قبل النائب العام.

ولم أتكلم، ولم أدافع عن نفسي، لسببين:

الأول: الثقة في النفس ـ ولا مؤاخذة ـ، ثم إيماني الذي دفعني بعدم التخلي عن الأخ صادق الذي ورّطته في ذلك الحوار، ولإيماني أيضاً بإيمان الصادق، رغم أنه أخطأ دون أن يقصد الإساءة للإسلام.

والثاني: وهو الأهم، هو أن سلطات العهد البائد لم تكن صادقة في حرصها على العقيدة الإسلامية، والذي دفعني للسكوت هو أنني أريد أن أبرهن للجميع على صدقي، ولو كانت صادقة لأمرتني بأن أقول رأيي، ولكن الإهمال والتشفي في العقيدة الإسلامية جعل سلطة العهد الفاجر تنسى وتتجاهل تلك القضية التي أساسها التشكيك في عقيدة هذه الأمة. إذاً فالسلطة الباغية التي كانت تتحكم في رقاب الشعب باسم الإسلام.. لم تكن مسلمة. ولكن ماذا عن صاحب الرمز.. الأخ صادق النيهوم الذي جاء بتلك الفرضية الفاسقة؟!

أذكّر أنا لما أقل رأيي في السابق، واليوم ونحن في عهد الحق، والحرص على عقيدة الشعب وثقافته أقول:

إن الأخ صادق النيهوم، صاحب فطرة سليمة، وخلفية ثقافية صافية فهو مسلم مؤمن.. ابن مؤمن ومؤمنة، وهذا الأمر أساس في بناء الإنسان (يولد المرء على الفطرة وأبواه يمجّسانه أو ينصّرانه.. إلى آخر الحديث).

وفي فترة التفتح الفكري سافر الأخ صادق إلى أوروبا، التي لا همّ لها إلّا تخريب العقائد جميعها، والعقيدة الإسلامية بالذات ثقافياً وعسكرياً، وحين يستقر الفرد المسلم في أي مكان في أوروبا.. تتلقفه العقول المخربة وتبدأ عملية (غسيل المخ)، وهنا تتدخل الفطرة، وتفرض نفسها كعازل يبعد التأثيرات الثقافية، إلّا أن العقل يتشرّب بعض الأفكار التي تحدث بعض التشويش يصل إلى درجة التشكيك دون وعي.. وهذا ما حدث للصادق بالضبط، هل يعني ذلك أن صادق النيهوم كافر؟!

لا.. لا، إنه يعيش الصراع الذي سينتهي به إلى التصوف، وهذا أمر له شرط وهو أن يعود صادق إلى الوطن كي يوازي بين فطرته.. وبين ما اكتسبه من ثقافة إسلامية على أيدي أساتذة الإشراق، والذي أعنيه بفطرته.. عقيدته، وأعني أن يأخذ ما يفيد من تلك الثقافة، ويمزجه بفطرته.. هذا إذا سلمنا أن ثقافتنا في حاجة إلى إضافات من قبل الثقافات الأخرى.

أما إذ بقي هناك، فسيعيش الأخ صادق بقية حياته سجيناً في قفص الثقافة المخربة.. فأنقذوه من محنته.

ثمة سؤال مهم، وهو هل ما قام به صادق يُعتبر الأول من نوعه؟

لا ، هناك الكثير ممن وقعوا تحت تأثير الثقافة الغربية وردّدوا آراءها عند رجوعهم إلى أوطانهم، نذكر منهم الدكتور طه حسين وحملته المشهورة على الشعر الجاهلي، ويقول الأستاذ مالك بن نبي في كتابه (الظاهرة القرآنية): كان طه حسين يردد (الفرض) الذي وضعه المستشرق الإنجليزي (مرجليوت) عن الشعر الجاهلي.. فقد نشر الفرض في يوليو/تموز 1925 في إحدى المجلات الاستشراقية، وفي خلال عام 1926 نشر طه حسين كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي)، ويستطرد الأستاذ مالك بن نبي قائلاً: إن هذا التسلسل التاريخي معبّر تماماً عن تبعية بعض قادة الثقافة العربية للأساتذة الغربيين.

إذاً، من هنا يتضح الحقد التاريخي في هذه المعركة التي نحن طرفها باعتبارنا معتنقي هذه العقيدة التي أساس ثقافتها السلام ومحبة السلام، وأما طرفها الثاني ثقافة بلا جذور يعتنق أصحابها الحقد على ثقافتنا فجرّهم حقدهم إلى تخريب ثقافتنا من الداخل بكل السبل.

وحين أقول هذا الكلام، فإنني أنبّه من الدعوة التي تدعو إلى فتح نوافذنا على جميع الثقافات كما يرغبها البعض.

حول دراسة الرمز في القرآن

نادر راشد(*)

أود في البداية أن أعبّر عن إعجابي الشديد بمجلة القاهرة وبالقائمين على إخراجها للنور في صورتها هذه والتي تدلّ على كم المجهود والعناء المبذول من أجل هدف التنوير الواضح وحرية الرأي.

ويسعدني أن أكتب إليكم لأول مرة، برغم أن مناسبة الكتابة كنت أتمنى لو تغيّرت.. على أية حال، أعتبرها البداية إذا سمحتم لي..

لقد لفت انتباهي البحث المنشور بالعدد الأخير (164) تحت عنوان «دراسة الرمز في القرآن» للباحث صادق النيهوم، وبرغم أني توقعت أن أقرأ فيه كثيراً من الأفكار الجديدة الموضوعية التي تفتح آفاقاً جديدة للمعرفة الإسلامية، إلّا أني ـ وللأسف ـ كنت أنتقل من فقرة إلى

(*) باحث مصري، نشر مقالته بمجلة القاهرة عدد سبتمبر/أيلول 1996، رداً على دراسة (الرمز في القرآن) للنيهوم التي أعادت المجلة نشرها في عددها الصادر في يوليو/تموز 1996.

أخرى وبداخلي ثورة عتاب على هذه الأفكار التي ينقصها كثير من الدقة والموضوعية في البحث، وعلى الكاتب الذي سمح لنفسه أن يخرج من إطار بحثه ليتطرق إلى مسائل فرعية وصلت إلى حد اتهام المسيحيين بتحريف الإنجيل والشرك باللّه وتعدد الآلهة، إلى غير ذلك من الاتهامات غير اللائقة بالبحث العلمي بل وغير لائقة أيضاً بمجلة القاهرة أن تنشر مثل هذا الكلام الذي أثارني وأثار عديداً من القرّاء المحبين لمجلتهم والحريصين دوماً على تألقها دون الخوض في مثل هذه الاتجاهات.

وإذا سمحتم لي أحب أن أعرض عدداً من النقاط ـ بشأن هذا البحث ـ وتحتاج إلى وقفة:

لقد وقع الباحث في كثير من الأخطاء التاريخية والبحثية والفكرية في محاولته لتفسير النص القرآني الخاص بسورة الكهف مستخلصاً بعض الأفكار التي بنى عليها استنتاجاته وتفسيراته للرواية، ومن هذه الأخطاء:

أولاً: الأخطاء التاريخية:

1 ـ يقول الباحث «المسيح لم يولد في الخامس والعشرين من ديسمبر/كانون الأول كما يزعم الإنجيل ص 53 العمود الأول والحقيقة أن الإنجيل لا يذكر هذا التاريخ أو غيره ولا أعرف ما سبب هذا الاتهام الذي يطرحه دون توثيق كلامه بآيات من الإنجيل تثبت ذلك؟

2 ـ وفقاً لسنة ميلاد السيد المسيح والتي تسبق

التقويم الميلادي المعروف بحوالي 5 سنوات ـ وهو ما يعتقده الباحث أيضاً ـ تكون عدد السنوات من ميلاد المسيح وحتى إعلان المسيحية كديانة رسمية وهو ما يُعرف بمنشور ميلانو الصادر سنة 313 م من قبل الإمبراطور قسطنطين الذي اعتنق المسيحية[1]، بناء على ذلك تكون المدة من 5 ق. م وحتى 313 م هي 318 سنة على التقريب وهو ما يخالف ما يقرّره الباحث بأنها 300 سنة أو حتى 309 سنة وخطأ الحساب واضح دون شك.

بل ويقرّر أيضاً ـ بدون مراجع ـ أن «الدين الجديد ظل مطارداً ثلاثمائة عام بالضبط وظل عبادة سرية يزاولها القديسون في الكهوف طبقاً لكل المراجع المعتمدة حتى عصر قسطنطين» (ص 53 العمود الثاني) والعبارة السابقة تتضمن مغالطة تاريخية أخرى، فهو يدعي سرية الدعوة المسيحية حتى عهد قسطنطين (أي القرن الرابع الميلادي) والحقيقة أنه قد غاب عن باله أنه في غضون القرن الأول الميلادي كانت المسيحية قد انتشرت من أورشليم والهند شرقاً إلى إسبانيا وفرنسا غرباً ومن البحر الأسود شمالاً إلى إفريقيا جنوباً[2] فأي سرية هذه التي يتحدث عنها الباحث؟ ولعل هذا يقودنا إلى نقطة أخرى:

(1) إسحق إبراهيم فارس، مدخل إلى العهد المسيحي الأول، ص 148.

(2) المرجع السابق، ص 135.

3 ـ يقول الكاتب في موضوع آخر، المسيحية انتشرت أولاً في أوروبا فوق مدار السرطان، صـ 53 العمود الثاني.. من الفقرة السابقة، اتضح لنا عدم سرية الدعوة المسيحية ـ كما يزعم ـ وإنما انتشرت في مناطق متفرقة في آنٍ واحد وتؤكد دراسة الفرق التبشيرية ـ ومناطق تبشيرها ـ التي تنتمي للعهد المسيحي الأول أنه في الوقت الذي كان بعضهم يدعو للمسيحية في اليهودية كان آخرون في آسيا الصغرى وآخرون وصلوا إلى بلاد الهند وأخرون وصلوا إلى أوروبا هذا بالإضافة إلى مصر وأثيوبيا وإفريقيا[1] بل وبشيء من التركيز والإيجاز نستطيع أن نلمح ذلك، فلنأخذ واحداً من المبشرين ـ على سبيل المثال ـ وهو القديس مرقس الذي عاش في القرن الأول الميلادي، فقد وصل في تبشيره من اليهودية وجبل لبنان إلى إنطاكية وسوريا وقبرص وباقوس وبرجة بمفيلية وروما وكولوس ومصر[2] وليس المجال هنا لنستعرض كل الدول والمناطق التي وصل إليها تلاميذ السيد المسيح ـ فقط ـ في القرن الأول الميلادي.

4 ـ هذا ويضيف الباحث في مكان آخر أن المسيحية قد بدأت «في كهوف الرهبان» صـ 54 العمود الثاني، هذا بالرغم من أنه لم يكن هناك واحد من تلاميذ السيد المسيح

(1) المرجع السابق، ص 68 ـ 69.
(2) البابا شنودة الثالث، مرقص الرسول، مطبعة الأنباروس، ص 20.

راهباً بالمعنى الذي نفهمه اليوم والذي يقصده الباحث بل حتى الرهبنة لم تبدأ بمعناها المعروف كجماعة تعتزل المجتمع ـ وهذا ما رمى إليه الباحث في تفسيره لقصة الكهف ـ ولم تظهر بشكلها هذا إلّا في عهد الأنبا باخوميوس وهو الملقب بأبي الشركة حوالي سنة 323 م وقد اعتبر هذا التاريخ بداية لما صار للرهبانية من صفة الديرية (الحياة الجماعية)[1] ولا أعتقد أنه ظلت المسيحية رابضة في الكهوف حتى القرن الرابع أو أن تلاميذ السيد المسيح لم يكن لهم أي دور في نشر المسيحية، وهذا أيضاً ما لا تقبله كتب التاريخ، وأستطيع باقتباس بضع عبارات من قصة الحضارة لديورانت أن أوضّح من نشر المسيحية هل الرهبان.. أم تلاميذ المسيح؟! يقول ديورانت عن التلاميذ «على يد هذه الجماعة الصغيرة البسيطة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم».

ثانياً: اخطاء بحثية وفكرية:

1 ـ ينسب الباحث إلى المسيحيين بعض الأساطير الغربية (صـ 54 العمود الأول، صـ 56 العمود الثالث) دون توثيق لمعلوماته بالمراجع اللازمة حتى يمكن التأكد من صحتها ودقة نقلها!

2 ـ يقول الباحث إنه قد «صدر قرار التثليث بعد

(1) إسحق إبراهيم فارس، مرجع سابق، ص 132.

325 م استناداً إلى أقوال بعض المعاصرين ذوي السمعة المريبة» صـ 61 العمود الأول، والحقيقة أن لنا على هذه الفقرة ثلاث ملاحظات:

1 ـ يحاول الكاتب بمنتهى عدم الاكتراث أن يشكّك في سمعة هؤلاء الذين عاصروا هذا التاريخ المذكور برغم أن الكنيسة في جميع أنحاء العالم بمختلف طوائفها تعدّهم من أعلام المسيحية.

ب ـ يحاول الكاتب التشكيك في عقيدة التثليث التي آمنت بها الكنيسة منذ بداية البشارة بالمسيحية والتثليث حقيقة أعلنها السيد المسيح نفسه وتضمنها الإنجيل وهناك من المخطوطات الأثرية والتي ترقى إلى عهد يسبق التاريخ المذكور أعلاه 325 م ومنها البردية «P66» وترقى لمنتصف القرن الثاني الميلادي وتوجد في مكتبة جون ريلاندز Rylands بمدينة مانشستر بإنجلترا، وبردية «P45» ضمن مجموعة برديات تشستر بيتي Chester Beaty والتي ترجع إلى أوائل القرن الثالث الميلادي وهي محفوظة في دبلن، هناك أيضاً «P66» ضمن مجموعة برديات مكتبة بودمر Bodmer في جنيف بسويسرا وترقى إلى منتصف القرن الثاني الميلادي وهناك عديد غيرها[1].

كل هذه البرديات والمخطوطات تحوي ما تحويه

(1) دائرة المعارف للكتابة، الجزء الثالث، ص 283، ص 284.

الأناجيل التي بين أيدينا من عقائد ومن بينها عقيدة التثليث والتي زعم الباحث أنها اعتُبرت، ليس لأنها عقيدة معلنة من قبل السيد المسيح ولكن لأنه قد صدر قرار بالإيمان بها.. ويحاول الباحث أن يثبت فكرته برغم أي شيء فيقع في خطأ آخر فيقول «ذلك بالضبط هو ما سيعمل الرهبان على تزويره في نسخ الإنجيل حتى كُتب في نهاية القرن الأول صـ 54 العمود الثالث.. وأتساءل أي رهبان هؤلاء الذين كانوا في القرن الأول الميلادي، وقاموا بتزوير الإنجيل؟

وكيف يتسنى لهؤلاء القيام بمثل هذا التزوير دون أن يلاقوا مقاومة من رجال عصرهم والذين كانوا شهود عيان لكل الأحداث المدّونة في الإنجيل؟ وأود هنا أن استشهد ببعض عبارات للعقاد فيقول «ومن بدع (أهل) القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا في تاريخ الأقدمين فوجدوا كلامهم أنباء لا يستسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان أو أعاجيب النقل، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام، لأنه أصعب تصديقاً عن القول بأن أولئك العداة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق، فشتان عمل المؤمن الذي لا يبالي الموت تصديقاً لعقيدته وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم أنه يكذب وأنه يدعو الناس إلى الأكاذيب، مثل هذا لا يقدم

على الموت في سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها، وهيهات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون»[1].

ج ـ والملاحظة الأخيرة على «قرار التثليث الصادر سنة 325 م» صـ 61 يلاحظ أن التاريخ المذكور هو تاريخ «مجمع نيقية» والذي فيه اجتمع 318 أسقفاً مسيحياً من جميع أنحاء العالم ليفصلوا في أمر المعتقدات التي نادى بها بعض الخارجين عن إيمان الكنيسة وقد انتهى بإعلان ـ وليس ابتكار أو اختلاف ـ الإيمان المسيحي في نصّ محدد فيما يعرف بقانون الإيمان النيقاوي والذي يبدأ بالكلمات «نؤمن بإله واحد» انطلاقاً من الحقائق المعلنة في الإنجيل المقدس أما عن التثليث فهو حقيقة لا تُخالف أو تتعارض مع الإيمان بوحدانية اللَّه، فالتوحيد للذات أما التثليث فهو من جهة صفات الذات ولم تكن هذه الحقائق من ابتكار هذا المجمع وإنما كانت إيماناً عاشته الكنيسة منذ ميلادها كأمور مُسلمة من السيد المسيح نفسه[2].

3 ـ وفي موضع آخر يقول من الواضح أن القرآن يتعامل مع مجموعة من الموحدين المسيحيين الذين رفضوا

(1) عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح، ص 118، ص 119.
(2) الأب متى المسكين، أثناسيوس الرسولي، دير أنبا مقار، ص 327.

قضية الثالوث ورفضوا اعتبار المسيح ابن اللّه معلنين أن فكرة التثليث فكرة باطلة لا دليل عليها (صـ 57 العمود الثاني) ويضيف في موضع آخر، والواضح حتى الآن أن القرآن يشير إلى أول ثورة دينية في المسيحية وهي تلك الثورة التي يعرف أتباعها باسم (الموحدون) في الشرق وباسم (المفكرون) في الغرب لأنهم رفضوا الاعتراف بعقيدة التثليث والآلهة هي عيسى المسيح ومريم العذراء، (صـ 54 العمود الثالث)، ولنا على الباحث هنا عدة نقاط:

1 ـ ليس هناك في التاريخ المسيحي ما يُعرف بثورة (الموحدون والمفكرون) ولا أعرف بالضبط مصدر هذه الفكرة عند الباحث أو حتى المرجع الذي استند إليه..

ب ـ ينسب الباحث بكل هدوء الشرك للمسيحيين وإيمانهم بتعدد الآلهة وبالإضافة إلى عديد من الآيات التي يتضمنها الكتاب المقدس بين دفتيه معلنة الإيمان بالإله الواحد[1]، ليس في تاريخ المسيحية من نادى باعتبار مريم إلهة حتى في الجماعات المنشقة والخارجة على التقليد المسيحي منذ عهد المسيح وحتى الآن!

ج ـ لقد رأى الباحث أن رجال الكهف هؤلاء هم

---

(1) (تث 6: 4) (تث 4: 35) (طوبيا 8: 19) (2 صم 22: 32) (مز 70: 19) (الحكمة 12: 13) (لش 45: 21) (مز 2: 7) (مز 12: 29) (رو 3: 30) (اكور 8: 6) (غلا 3: 20) (يعقوب 2: 19).

مسيحيون موحدون رفضوا عقيدة التثليث، والحقيقة أنه قد اختلط على الباحث أمران أولهما: إن جميع المسيحين هم موحدون لأنهم يؤمنون باللّه الواحد لا شريك له، والأمر الثاني هو ما عُرف عن الرهبان الأقباط ـ بداية من عصر الأنبا أنطونيوس سنة 285 م ـ فيما عُرف بنظام التوحد أو الرهبنة القائمة على حياة الوحدة أو العزلة الفردية ـ هذا النوع من الرهبنة يختلف عن الرهبنة الديرية أو الجماعية التي سبق وأشرنا أنها بدأت بعهد الأنبا باخوميوس سنة 323 م ـ وقد عرف الرهبان الذين ساروا على نهج أنبا أنطونيوس ـ أقصد الخلوة الفردية ـ باسم (المعتزلون أو المتوحدون) Mon-aches وصارت تسمية هؤلاء الرهبان المعتزلين العالم باسم «الموحدون»[1] ومن الواضح أن هذه التسمية لا تعبّر عن مذهب أو عقيدة إيمانية، وإنما تعبّر عن اتجاه رهبنة أو نوع من أنواع الرهبنة.. وهكذا نجد الباحث يخلط بين التوحيد باللّه الذي هو سمة أساسية لإيمان جميع المسيحيين وبين التوحد كاتجاه رهبنة لا يعارض الإيمان، وقد بنى الباحث على سوء الفهم هذا استنتاجه أن رجال الكهف رهباناً ـ كانوا أو مسيحيين ـ رفضوا الإيمان بالتثليث ومن ثم فهم موحدون ومن ثم أيضاً اعتزلوا الناس المشركين.

---

(1) إسحق إبراهيم فارس، مرجع سابق، ص 128.

4 ـ وأخيراً يختم الباحث القدير بحثه بكلمات لا تقلّ في إيذائها للمشاعر عن أفكاره السابقة محاولاً التشكيك في حقيقة ميلاد السيد المسيح الإعجازي من مريم العذراء فيقول: والواقع إن الإنجيل نفسه ـ وبالذات الإصحاح السادس والعشرون من إنجيل لوقا ـ يعلن مؤكداً أن مريم تسلمت البشرى بميلاد عيسى بعد أن تمّت خطبتها إلى يوسف النجار، صـ 61 العمود الثالث.

والمفاجأة أن الباحث في المرة الوحيدة التي فيها يوثق كلامه بالرجوع للإصحاح 26 من إنجيل لوقا نجده يقع في خطأين أولهما أن إنجيل لوقا ينتهي عند الإصحاح الرابع والعشرين اين إذن الإصحاح الـ26؟! والأمر الثاني الذي غاب عن باله هو أنه بالفعل برغم من أن البشرى جاءت لمريم وهي مخطوبة بالفعل إلّا أنه في جوابها دليل على أن هذه الخطبة قد كانت شكلية ولم يمسسها يوسف كزوج لها مطلقاً فقد أجابت الملاك قائلة: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً، (إنجيل لوقا الإصحاح الأول الآية 34) وواضح أنه برغم خطبتها أمام الكهنة إلّا أنها ظلت بكراً طاهرة لم يمسسها بشر وقد احترم يوسف رجلها ذلك[1].

كلمة أخيرة بشأن هذه النقطة وهي أني لأول مرة أجد

---

(1) أنبا جريجوريوس، القديس يوسف النجار خطيب العذراء مريم، ص 7.

من يشكك في ميلاد السيد المسيح المعجز وهذا ما يرفضه علماء المسلمين أنفسهم. أخيراً أرجو ألّا أكون قد أطلت الحديث ـ برغم أن ما سبق لم يكن أكثر من مجرد تعليق موجز على بعض الأفكار التي طرحها الباحث في بحثه..

أشكركم، وأشكر سعة صدوركم للرأي الحر.

مقالات ذات صلة

من أكل القديد[*]؟

جاء العيد وذهب.

ونال كل امرئ نعجته في القافلة المعدة لزيارة الجنة، وجفت شرائح القديد في الشمس وجفت البطانة أيضاً، وبات من اليسير أن يتحدث المرء إليكم دون أن يتعرض لأحد المطاوي.. فاجلسوا فوق النطع الآن ودعوني أحدثكم عن القافلة.. والجنة.

أنتم أكلتم خلال هذا العيد ماية ألف نعجة. وذلك يعني أن الدولة قد دفعت مليونين ونصف من الجنيهات لكي تستورد لكم (ثمن) ما تملكه سوريا من الحيوانات البالغة القادرة على الإنجاب، إلى جانب النعاج القليلة التي نسيتم أن تقتلوها خلال العيد الماضي لأنها لم تكن قد ولدت بعد.

فإذا وضعتم نعاجكم في طابور، فإن نهاية الصف ستقف في بنغازي وأوله في مدينة البيضاء. وإذا استطعتم أن

(*) مقالة للنيهوم، نشرت بصحيفة الحقيقة في ابريل/نيسان 1967، واستدعت رداً من الجامعة الإسلامية في حينها.

تجعلوها تقف على رؤوسها فإنها بالتأكيد ستصنع لكم سلماً تتسلقون إلى الشمس.

ولكن النعاج لا تقف على رؤوسها. وأنتم لن تذهبوا إلى الشمس. أنتم ستبقون هنا، فوق هذا الكوكب البديع، حتى تنقرض آخر نعجة في العالم، ثم تذبحون إسماعيل!

فلا داعي للعجلة. دعونا نتحدث على مهل:

مليونان ونصف من الجنيهات كانت ذات يوم ضعف ميزانية ليبيا بأسرها، وما زالت ضعف ميزانية (بوتسوانا) التي يمكنكم رؤيتها إذا تسلقتم بيت الفقي في جالو.

ومليونان ونصف من الجنيهات ثروة هائلة لا يجوز أن يجفّفها أحد الشعوب في الملح ويصنع منها قديداً، إلّا إذا حلّ كل مشاكله وأصبح سيد الموقف.

وأنتم ـ في ليبيا ـ لم تحلّوا مشاكلكم بعد. أليس كذلك؟

إنكم ما زلتم مثل شعب بوتسوانا بلداً نامياً مليئاً بالثقوب والمتناقضات، وما زلتم تقعون على بعد ألف ميل من هذا القرن المدهش.. أعني ألف ميل على الأقل. ولكنكم من جهة أخرى الشعب الوحيد في إفريقيا بأسرها الذي يستطيع أن يقفز هذه المسافة ويلحق بالمقدمة دون أن يقطع أنفاسه بالجري.

فقد لعب الحظ دوراً طيباً في بلادنا. وأعطانا ما يحلم به الآخرون بالضبط، ووضعنا على الطريق، وبقي أن نتعلم نحن المشي على زوج واحد من الأرجل. فتصوروا يا إخوتي السباع: لو تخليتم هذا العام عن نفخ المصارين ووضعتم نقودكم في عمل تعاوني آخر كما تقول الحكايات.. أعني بنيتم مدارس للعمال، بمليونين ونصف من الجنيهات يبني المرء مائتي مدرسة ويزوّدها بحاجتها من المدرسين والطباشير.. فإذا التحق بكل مدرسة عشرة عمال فقط، فإن ليبيا ستمحو الأمية بين العمال في العامين القادمين وتواجه احتياجات التعليم لأربعة أجيال أخرى دون عطاء واحد لبناء مدرسة جديدة.

ولكن سؤالكم لا يمكن تجاهله: (ليش الحكومة ما تدير)[1]. وأنا أتبرع لكم بالإجابة، وأرجو ألا تأكلوني، إن الحكومة لا تملك بنداً في ميزانيتها لتجفيف مليونين ونصف من الجنيهات، ولو فعلت الحكومة ذلك لما سكت عليه أحد. أما أنتم فتملكون ذلك البند وتجففون القديد كل عام. وتأكلون الطعم والصنارة.

ولو قرأ أحدكم ميزانية ليبيا مرة واحدة في حياته لأدرك أن القروش توزّع كلها على مصادر محددة للإنفاق،

(1) عامية وتعني: (لماذا الحكومة لا تفعل).

ولأدرك أيضاً أن مجلس النواب لن يصدّق على بند خاص بتجفيف مليونين ونصف من الجنيهات.

أما أنتم، فما أكثر بنودكم التي لا تُعرض على مجلس النواب. وما أشد حرصكم على توفير المبلغ اللازم لشراء نعجة العيد. فهل عرفتم وجه المشكلة؟

إن أحداً لا يطالبكم بالتخلي عن شراء الخبز لكي تبنوا مدارس للعمال، وكذلك لا يمكن مطالبة الدولة بالتخلي عن مشروعاتها الحيوية لبناء تلك المدارس، ولكن إذا كان أحدكم، أنتم أو الدولة، يقوم بتجفيف مليونين ونصف من الجنيهات كل عام من أجل لا شيء فإنه مطالب بأن يكفّ عن هذه اللعبة ريثما تحلّ ليبيا مشاكلها.

والسؤال الآن: من يأكل القديد؟ الدولة أم الشعب؟

وأنا لا أستطيع أن أتبرع لكم بالإجابة هذه المرة حتى لا أستثير غضبكم، فاهدأوا فوق النطع ودعونا نحلم باقي الطريق:

بمليونين ونصف من الجنيهات تستطيع ليبيا أن تزرع ماية كيلو متر مربع من الأرض المقفرة، وتقطر لها مياه البحر وتشتري كل آلاتها لكي تعدّها للعمل خلال عام واحد من الآن.

فإذا زرعنا تلك المنطقة شوفاناً فإننا نستطيع أن نتكفل بإطعام أغنام سوريا ست سنين كاملة، ونحقق دخلاً يتراوح

في قيمته بين عشرين مليوناً وبين ثلاثين مليوناً من الجنيهات الصعبة.. أعني ميزانية ليبيا عام 1952 سبع عشرة مرة.

فإذا قررنا أن نترك الأغنام تموت من الجوع، وأنشأنا مستشفيات لمرضانا، فإن المرء يستطيع أن يبني عشر مستشفيات عملاقة بمليونين ونصف من الجنيهات، ويزوّدها بكل ما يملكه العالم في ميدان العلاج والأطباء والممرضات من مدريد.

فإذا قررنا أن نترك الأغنام والمرضى يموتون وبنينا رياضاً للأطفال، فإن كل طفل في ليبيا سوف يجد مقعداً نظيفاً في مواجهة السبورة خلال العشرين عاماً القادمة، وينال إفطاره بالمجان.

نعجة العيد لعبة باهظة التكاليف:

واللعبة كلها - يا إخوتي الساع - تشبه الحلم المحزن الذي حقّقه رجل ألماني اسمه إيرهارد[1] في بلاده، ودعاه الناس بعد ذلك (المعجزة الاقتصادية).

فقد كانت خطة إيردهارد غاية في اليسر. كان يقول لمواطنيه، لا تضعوا زبداً في أرغفتكم حتى ننشئ مصنعاً للزبد. وكان مواطنوه يفهمون هذه النصيحة.

(1) لودفيغ إيرهارد: (1897 - 1977)، اقتصادي ألماني، حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية، واختير وزيراً للاقتصاد في ألمانيا، ثم مستشاراً لألمانيا عام 1963 خلفاً لأديناور، وبقي في المنصب إلى عام 1966.

فأين ألمانيا الآن؟

وأين أنتم، وسيدتي نعجة العيد؟

أنا لا أريد أن أستثير غضبكم، فاهدأوا فوق النطع ودعوا العالم يذهب إلى الجحيم، ودعوني أحلم هنا بالحلول:

ثمة لعبة في هذا العصر يسمونها (الوعي).. لعبة معّقدة تهدف إلى إنقاذ الإنسان من الغرق في تفاصيل العالم. فمظاهر الحياة ـ كما تعرفون ـ مليئة بالجزئيات فإذا كان المرء لا يملك عقلاً قادراً على التجميع فإنه يغرق ـ عادة ـ قبل أن يموت.

والعقل الجاهل أسهل ضحايا هذا الطوفان، لأن المرء لا يستطيع اختيار الطريق الصحيح بغير فرصة المقارنة بين عشرات من الطرق.. والعقل الجاهل لا يملك هذه الفرصة. إنه مجرد آلة خرقاء لمواصلة المشي على طريق أجداده.

ولذا يا إخوتي السباع

فأنتم ما زلتم توقدون النار عندما يكبر الهلال وتذبحون نعجة العيد في نفس المكان الذي وضعت فوقه علامة السكين. وما زلتم تجففون شرائح القديد وتملّحون البطانة وتحلمون بالوصول. تماماً كما فعل أجدادكم.. وبنفس السلاح. ولكن ليس في نفس العصر، فالهلال ـ كما تعرفون ـ أصبح الآن قاعدة عسكرية.

نهاية المطاف:

أنا لم أنغِّص عليكم عيدكم، وقد انتظرت حتى خفت صوت الطبول، ولم أهدف إلى إيذاء مشاعركم الدينية، فأنا أيضاً لا أملك سوى تلك المشاعر، ولكن اللّه أكبر، أليس كذلك؟

وأنتم لا تستطيعون شراء رضاه بالحيل الصغيرة، ولو كان يريدكم أن تذبحوا نعاجكم في كل الأوقات وتحت كل الظروف لأصبحت قواعد الإسلام ستة. فاللّه لا يخطئ التعبير.

أما أنتم، فتسيئون الفهم وتأكلون الطعم والصنارة.. وتجففون الصياد في الملح. ثم تأتون ـ بعد ذلك ـ للشراء في سوق السمك.

لغز ديني محير!

«مريم العذراء تتبدّى لراهبة برتغالية»(*)

البابا الحالي (بولس السادس)[1] استلم رسالة سرية تحمل ختم رئيس الدير في كومبارا بالبرتغال. وكانت الرسالة تضم صورة راهبة تقف في وضع خاص مفردة يدها اليسرى، وتحتها هذا التعليق: (هكذا رأيت مريم العذراء)!.

وفي عيد الفصح الماضي[2] طار البابا إلى البرتغال لكي يتحدث مع الراهبة التي تعيش لغزاً دينياً منقطع النظير

(*) مقال نشره النيهوم في صحيفة الحقيقة في أغسطس/آب 1967، متزامناً مع نشره لحلقات (الرمز في القرآن).

(1) أحد أساقفة روما، والبابا الثاني والستون بعد المائتين، انتخب لكرسي البابوية عام 1963 خلفاً للبابا يوحنا الثالث والعشرين. ولد عام 1897، درس اللاهوت والقانون، وصار عام 1937 نائباً لوزير خارجية الفاتيكان ثم وزيراً للخارجية كان أول بابا يزور الأرض المقدسة في فلسطين في يناير/كانون الثاني 1964، ويخطب في الأمم المتحدة أمام جمعيتها العمومية في نهاية العام نفسه، وفي عهده صدرت من الفاتيكان أواخر عام 1967 وثيقة تبرئ اليهود من دم المسيح، توفي عام 1978.

(2) من عام 1967.

في التاريخ المعاصر. وكان وصول البابا إلى ذلك الدير المتواضع في إحدى قرى الرعاة حدثاً حاسماً نقل قصة الراهبة إلى الصفحات الأولى في صحف العالم. الراهبة اسمها (دونا لوشيا). وتعتبرها الكنيسة المسيحية المخلوقة الوحيدة التي عاشت ثلاث معجزات على التوالي:

الأولى: أنها رأت بعينها الأرواح الخبيثة والشياطين تسبح في جهنم.

الثانية: أنها تحدثت ـ وجهاً لوجه ـ مع مريم العذراء، ورأت يسوع الطفل، ورأت أيضاً زوج مريم المدعو (يوسف النجار).

الثالثة: أنها سمعت نبوءة بنهاية العالم من العذراء نفسها وما زالت تحتفظ بسرها إلى الآن.

أما القصة فتبدأ قبل ذلك بزمن طويل، وبالتحديد في الثالث عشر من مايو/أيار سنة 1917، عندما كانت لوشيا ترعى خرافها في تلال قرية ـ فاطمة ـ محاولة أن تقوم بنصيبها من العمل لكسب قوت عائلتها إلى جانب دخل غابة العنب الصغيرة التي يملكها والدها في طرف القرية.

كان عمرها إذ ذاك عشر سنوات، وكانت صديقاتها (جاكتا) و(فرنشيسكا) ترعيان خرافهما معها في نفس التلال وقد أعلنت الفتيات الثلاث أنهنّ رأين مريم العذراء في الثالث عشر من مايو/أيار سنة 1917.

وفي البداية لم يشأ أحد أن يصدّق خرافة الأطفال خصوصاً عندما بدأن في وصف رؤيتهن بدقة مثيرة للشكوك، حتى أعلن قس القرية أن الفتيات قد وقعن في قبضة رجال يلقنهن ما لديهم من الأكاذيب.

وفي ذلك اليوم قرر والد لوشيا أن ينقذها من رؤياها المعقدة، وضربها بعصاه حتى دقّ أضلاعها، ولكن الفتاة لم تكفّ عن زعمها بأنها ترى مريم العذراء وتتحدث إليها في التلال، وعندما قرر بعض سكان القرية أن يذهبوا معها إلى ذلك المكان، لم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً سوى كلام الطفلة وحدها.

وكان مأمور القرية على وشك أن يأمر بحبس الفتيات الثلاث عندما أعلنّ معاً أن العذراء قد قررت الظهور بنفسها أمام جميع الأنظار في الثالث عشر من شهر أكتوبر/تشرين الأول عام 1917، وسرى الخبر في أوروبا بأسرها. وتجمع خمسون ألف من الناس على تلال فاطمة في الميعاد ونصب المصورون كاميراتهم في كل مكان استعداداً لالتقاط صورة المعجزة، وعندما وصلت الفتيات الثلاث حيّاهن الجمهور الغفير بإشارة الصليب.

ثم حدث اللغز الذي لم يستطع أحد تفسيره حتى الآن، ورأى خمسون ألف مشاهد ومنهم من يزال حياً[1]،

(1) وقت وقوع الحادثة عام 1967.

السماء الملبدة بالغيوم تتجلى فجأة في أكثر صورها صفاء ثم رأوا الشمس ـ أو شيئاً يشبه الشمس ـ تهبط من مجراها وتشرع في الدوران مغرقة السهول والناس والتلال بألوان عميقة تتوالى بين الزرقة الداكنة وبين الحمرة والصفرة.

ثم أعلنت لوشيا بأن العذراء قالت لها: (اليوم الثالث عشر من أكتوبر/تشرين الأول عام 1917 تنتهي الحرب العالمية[1] ويعود الجنود)، ورغم أن أحداً ـ غير لوشيا وصديقتيها ـ لم ير العذراء، ورغم أن الحرب لم تنته في الثالث عشر من أكتوبر/تشرين الأول، ولم تنته ذلك العام أيضاً بل استمرت حتى نهاية عام 1918، فإن حركة الشمس المفاجئة كانت بمثابة دليل كافٍ على مزاعم الداعيات الصغيرات.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت ـ لوشيا ـ أسطورة من أساطير العالم الكاثوليكي، أما صديقتاها فقد ماتتا في العام التالي إثر انتشار وباء الطاعون. ومرت خمسون عاماً أخرى قضتها (الدونا لوشيا) في وحدة صارمة منقطعة عن العالم وراء جدران دير كومبارا، وقد حاول الناس في البداية أن يعرفوا منها تلك النبوءة التي أعلنت أنها لن تبوح بها لبشاعتها ثم نسي الناس القصة بأسرها وتركوا الراهبة العجيبة تعيش عالمها المحُير، حتى عادت فأعلنت بنفسها

(1) الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918).

أن العذراء قد زارتها مرة أخرى وأخبرتها بأن الحرب الثانية[1] ستنشب في عصر البابا بيوس الحادي عشر، وأن السماء ستومض بنور مفاجئ من جهة الشمال. وفي ليلة السادس والعشرين من يناير/كانون الثاني عام 1938 أعلنت لوشيا لرئيس الدير أنها رأت النور الشمالي.

ورغم أن الحرب لم تبدأ في ذلك اليوم ـ فمن المؤكد أن هتلر أعلن ضم النمسا في السابع والعشرين من يناير/كانون الثاني، والمعروف أن البابا بيوس الحادي عشر مات في فبراير/شباط التالي أي قبل إعلان الحرب رسمياً. فإذا كانت الراهبة تعتبر ضم النمسا بداية الحرب فإن رؤياها صادقة إلى حد كبير، ولكن معظم المؤرخين لا يقفون إلى جانبها في هذا الزعم.

والواقع أن نبوءات الدونا لوشيا تبدو غير دقيقة جداً في نهاية المطاف، ولعل ذاكرتها تخونها تحت وطأة رؤياها المحيِّرة، ولعل عجزها شبه التام عن القراءة والكتابة هو مصدر ارتباكها في تحديد الأرقام والحوادث، ورغم ما يزعمه المسؤولون في دير كومبارا عن معجزات تلك الراهبة فإن شيئاً منها لم يثبت بعد باستثناء ظاهرة الشمس التي حدثت في أكتوبر/تشرين الأول عام 1917. أما الباقي فما يزال موضع ريبة بين جميع الطوائف.

---

(1) الحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945).

تقرير(*)

قام الأستاذ الفاضل خالد محادين[1] في بداية هذا الشهر[2] بعرض شبه مفصل لكتاب عنوانه (القرآن.. محاولة لفهم عصري) بقلم الطبيب المصري مصطفى محمود[3]، ولأن ذلك العرض افتقر إلى عنصر التقيم لأفكار الكتاب، ولأن إغفال التعتيم يبدو أحياناً بمثابة محاولة سلبية لخداع القارئ العادي، فقد أردت هنا أن أكتب وجهة نظري في

(*) عنوان لمقال نشره النيهوم في الحقيقة حول تفسير القرآن الذي قام به مصطفى محمود.

(1) شاعر وصحفي أردني، وصل للعمل في بنغازي صيف 1969، وكتب مقالاته وقصائده في صحفها، كما اشتغل محرراً بصحيفة الحقيقة إلى عام 1971 حيث انتقل إلى طرابلس.

(2) نوفمبر/تشرين الثاني 1970، الموافق لشهر رمضان.

(3) مصطفى كمال محمود حسين، ولد في المنوفية عام 1921، ودرس الطب وتخرج عام 1953. تفرّغ اعتباراً من عام 1960 للكتابة في الصحف والمجلات، وإعداد البرامج العلمية في التلفزيون المصري. من مؤلفاته: (اعترافات عشاق)، (غومه)، (حوار مع صديقي الملحد)، (الماركسية والإسلام)، (عصر القرود).. وغيرها. وكتابه عن القرآن نشره في هيئة حلقات بإحدى الصحف الأسبوعية في القاهرة ثم صدر في عدة طبعات عن دار المعارف بمصر.

هذا الكتاب باعتبار أن القضايا الفكرية الكبرى تملك أحياناً أكثر من زاوية واحدة للرؤية الواضحة:

أولاً: بخصوص ما ذكره المؤلف عن تفسيره العصري، أريد أن أشير هنا إلى أن أفكار الأستاذ مصطفى محمود ـ كما بدت في كتابه على الأقل ـ ليست في الواقع عصرية جداً، أعني حتى بالنسبة لمقاييسنا المتواضعة في الشرق الأوسط. فالتفسيرات التي تبناها المؤلف موجودة بالحرف الواحد تقريباً في كتاب طُبع في لاهور سنة 1906، أي منذ نصف قرن وثلاثة عشر عاماً بالضبط. ذلك الكتاب مطبوع باللغة الإنجليزية مع نص عربي للقرآن، واسمه (القرآن الكريم)، واسم مؤلفه (مولاي محمد) زعيم طائفة الأحمدية. وإذا كانت أفكار الزعيم الأحمدي لم تصل إلى الأستاذ مصطفى محمود إلّا في السنة الماضية فلا بدّ أن ذلك دليل ساطع على أننا نعاني حقاً من مشكلة المواصلات في الشرق الأوسط، لكن الدليل نفسه بالطبع يعني بوضوح أننا لسنا عصريين على أي حال. أعني سواء (استعار) الأستاذ مصطفى محمود تفسيراته متعمداً أو غير متعمد. كما استعار لنفسه لقب دكتور مقابل طبيب ـ فإن الثابت على أي حال أن أفكاره (العصرية) كانت مطبوعة على الورق قبل أن يولد في هذه الدنيا الشقية التي ما يزال يبذل جهده لإصلاح حالها. بل إن (مولاي محمد علي) ومعه أيضاً بعض المفسرين الإيرانيين قد اكتشفوا في القرآن

أشياء لم تخطر ببال الأستاذ مصطفى محمود حتى الآن.. منها مثلاً (الفحم الحجري) الذي وجدوه في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[1].

ما قاله الأستاذ مصطفى محمود عن الجنة والنار. وما قاله عن قصة الخلق، والأسرار العلمية في القرآن وما قاله في بقية كتابه العصري موجود كله في تفسيرات الكتّاب المسلمين في آسيا منذ بداية هذا القرن[2]، أعني سواء عرف الأستاذ مصطفى محمود ذلك أم لم يعرفه، فأنا هنا لا أريد أن أفضح (لصاً) بل أريد أن أعلن حقيقة صغيرة فقط.

ثانياً: إنه منهج غير علمي ولا سند له في مناهج الدراسات الحديثة، أن يلجأ المرء إلى أي نص ديني أو أدبي لكي (يكتشف) فيه ما سبق أن اكتشفه العلم وحده معتمداً على مهارته في تفسير الألفاظ، وليس ثمة محفل علمي واحد في العالم يستطيع أن يعتبر مثل هذا العمل الشعري شيئاً يستحق النقاش، فاللفظ - أي لفظ - قابل لأكثر من تفسير، والجملة - أي جملة - قابلة لأكثر من معنى، سواء جاءت في نص ديني أو في نص أدبي عادي.

ولعل الأستاذ مصطفى محمود يعرف معلقة طرفة بن

(1) سورة الأعلى، الآية: 5.

(2) القرن العشرين.

العبد[1] التي قال فيها (**ويأتيك بالأخبار من لم تزود**)[2] ولعله يصدقني إذا قلت له إن الشاعر الجاهلي كان يتنبأ باختراع الراديو. فاللعبة سهلة وغير قابلة لسيطرة المنطق ولكنها بالتأكيد غير علمية.

ثالثاً: من شأن هذا المنهج ـ ومن طبيعته المزيفة أيضاً ـ أن الشارح يقتصر على تفسير بعض الآيات ويترك البعض الآخر لمجرد أنها ليست مطاوعة لمنهجه، وقد اقترف الأستاذ مصطفى محمود هذا الخطأ بالذات فيما يخصّ الأحداث التاريخية في القرآن، وكان عليه أن يلقي نظرة جانبية أخرى على كتاب الزعيم الأحمدي لكي يتعلم منه مزيداً من المهارة في اللعب بالألفاظ. فالتاريخ أيضاً علم معترف به والقرآن يضم تاريخاً هائلاً للفترة الواقعة بين دخول بني إسرائيل مصر تحت حماية يوسف[3] إلى تأسيس الأمبراطورية الإسرائيلية في عصر سليمان بن داود. ولقد بذل (مولاي محمد علي) جهداً مضنياً في متابعة هذا التاريخ، وكان بوسع الأستاذ مصطفى محمود أن يستفيد من ذلك الجهد بطريقة ما، أعني على الأقل يتعلم منه سوء المنهج.

---

(1) الشاعر الجاهلي المعروف، صاحب المعلقة:

(لخولة أطلال ببرقة ثهمد

تلوح كخط الوشم في ظاهر اليد)

(2) صدر البيت: (**ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً**).

(3) النبي يوسف بن يعقوب عليه السلام.

رابعاً: من شأن هذا المنهج ومن طبيعته المزيفة أيضاً، أنه يبدأ بالبحث في إعجاز القرآن لكي يصل إلى إثبات (سماويته) متناسياً أن القارئ مضطر إلى التسليم مقدماً بسماوية القرآن لكي يتابع شرحه ويقبله منه.

(فالدليل) على إعجاز القرآن يأتي من (الإصرار) على تفسير معين بغض النظر عن تفاصيل العلم، أي أن النتيجة حاصلة سلفاً من المقدمة رغم أبسط قواعد المنطق التي ترفض الدخول في هذه اللعبة.

فالمؤلف يقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[1] ويفترض أن ذلك معناه أن القرآن يشير إلى الأغلفة الثلاثة التي يكمن وراءها الجنين هي: (البطن والرحم والغلاف الأمنيوسي) ثم يعلن لقارئه منتصراً بأن ذلك دليل على سماوية القرآن متناسياً أن القارئ لا بد أن يسلّم بسماوية القرآن مقدماً لكي يوافقه على أن (الظلمات) الثلاث تعني حقاً (الأغلفة) حقاً.

أما إذا أصرّ القارئ على المطالبة بمنطق أفضل فإنه يستطيع أن يلفت نظر الطبيب الفيلسوف إلى أن الجنين لا تفصله ثلاثة أغلفة فحسب إلّا في مراجع العصور الوسطى، أما في هذا العصر فإن أي دائرة معارف عادية

(1) سورة الزمر، الآية: 6.

تستطيع أن تؤكد بوضوح أن التقسيم نفسه غير علمي في جميع الوجوه.

فالبطن ليس (غلافاً) واحداً بل عدة طبقات من الجلد والأنسجة، والرحم لا يقع وراء جلدة البطن فحسب بل يقع أيضاً موازياً لها، وإن البيضة المخصبة التي تلتصق بجدار الرحم ليست محاطة بالغلاف الأمنيوسي فحسب بل بخلايا الجريب أيضاً.

وإن الغلاف الأخير ليس حاجزاً يحتمل الوصف (بالظلمة) لأنه زجاجي وشفاف.

وبعد ذلك يستطيع القارئ أن يلفت نظر الطبيب مصطفى محمود إلى أن الإنسان لم يعرف (علم الأجنّة) في العصر الحديث فحسب بل عرفه منذ عصر أرسطو طاليس، وأن ذلك الطبيب القديم المتناه في القدم كان يتابع تطور الجنين في البيضة بدل أن يضيّع وقته في العبث بألفاظ النصوص الدينية، وأن كل فلاح ذبح نعجته أو بقر بطن جارته في غارة ليلية كان يعرف أن (الجنين) مُحاط بجلدة البطن والرحم وطبقة مائية. أعني إذا أصرّ القارئ العادي على المطالبة بمنطق أفضل، فإن الطبيب مصطفى لا يستطيع أن يبدو عصرياً أكثر من أرسطو طاليس.

خامساً: من شأن هذا المنهج ـ ومن طبيعته المزيفة أيضاً ـ أنه مضطر لتجاهل وحدة القرآن لكي يتجنب التورط

في التناقض. فالمحاولة اليائسة التي قام بها الأستاذ مصطفى محمود للبحث عن نظرية التطور في القرآن، انتهت - في الواقع - بفضيحة خلقية، لأن المحاولة نفسها جزء طبق الأصل تقريباً من الخطأ الذي وقع فيه الزعيم الأحمدي منذ أكثر من نصف قرن، ولأن الأستاذ مصطفى محمود الذي قرر أن يعتبر خلق (آدم) رمزاً قرآنياً نسي بالطبع قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[1].

فالنبي عيسى ابن مريم ليس رمزاً قرآنياً، بل حقيقة تاريخية واقعة، والقرآن لا يقارنه برمز، لأن التاريخ لا يمكن أن يصبح رمزاً بحال ولأن القرآن لا يقع في أخطاء الأستاذ مصطفى محمود. والمقصود بالآية - طبقاً لوحدة القرآن - أن عيسى كان بداية في حد ذاته لأنه ولد بدون أب[2] وأن ذلك بالضبط ما حدث بالنسبة لخلق آدم.

إن الزعيم الأحمدي، والمفسرين الإيرانيين، والأستاذ مصطفى محمود الذي جاء بعدهم بأكثر من نصف قرن نسوا جميعاً - بطريق السهو فيما يبدو - أن القرآن يربط بين خلق آدم وبين خلق عيسى وأن التفسيرات المقبولة لدى الباحثين في الإنجيل لا يمكن أن تكون مقبولة هنا، لأن الإنجيل لا

(1) سورة آل عمران، الآية: 59.

(2) تبدل واضح في رأي النيهوم السابق في دراسة الرمز في القرآن، وحواره مع الهتكي.

يربط أصلاً بين آدم والمسيح.. ولأن المرء يستطيع أن يعتبر (آدم) رمزاً في كتاب العهد القديم، أما في القرآن فإنه حقيقة تاريخية مثل عيسى المسيح بالضبط.

سادساً: نسي المؤلف أنه يسيء إلى نص ديني مقدس لدى كل قارئ تُتاح له الفرصة لكي يكتشف عبث منهجه وتجاهله للتفاصيل العلمية والتزامه بحيل الخداع اللفظي. وإذا كان التنبؤ بالحقائق العلمية وحده دليلاً على سماوية الفكر فإن ثلاثة أرباع كتّاب الروايات الخيالية عن عصر الفضاء في القرآن الماضي قد كتبوا رواياتهم في السماء.

سابعاً: ليس ثمة شك أن الأستاذ مصطفى محمود قد كتب كل حرف في كتابه العصري باقتناع وإخلاص كاملين، ولكن المشكلة ـ التي نسيها المؤلف على أي حال ـ أن الاقتناع والإخلاص خصلتان حميدتان، ولكن (العلم) يحتاج إلى (المعرفة) فقط.

ثامناً: هذه وجهة نظر قد تبدو قابلة للنقاش من زوايا مختلفة، وقد لا يمكن حسم نتائجها في جولة واحدة من الأخذ والرد الساخنين، وقد يمكن مدّها لكي تشغلنا عن قضايانا الحياتية إلى آخر يوم في العالم، لكن نقطة واحدة فيها ستظل دائماً غير قابلة للنقاش أنها حقيقة مسطحة. إن المحاولة (العصرية) التي بذلها الأستاذ مصطفى محمود لكي ينقذنا من فكرنا الرجعي عمرها حوالي قرن كامل.

تاسعاً: أنا أريد أن أشكر الأستاذ الفاضل خالد محادين الذي أتاح لنا هذه الفرصة للنقاش بعرضه للكتاب على القارئ مزوّداً بمنحتي الاقتناع والإخلاص الكاملين.

(الرمز في القرآن) دراسة في سلسلة مقالات شرع الصادق النيهوم في كتابتها على مدى أسابيع في شهري يوليو / تموز وسبتمبر / أيلول 1967 في صحيفة الحقيقة الليبيّة.

والواقع أن (الرمز في القرآن) لم يكن موضوعًا عجيبًا أو غريبًا بتلك الدرجة التي تستأهل التهويل والمبالغة، لكن الغريب فيها أن نشرها وما تداعى عنها من ردود وحوارات جريئة من النيهوم أنجز في ظروف اجتماعيّة محافظة وتقليديّة.. وكأن شيئًا لم يحدث أو يستدعي الانتباه.

(.. فالدراسات الدينيّة لا علاقة لها بالتشريع السماوي، والمرء لا يستطيع أن يقبل إبقاء الباب مغلقًا بحجة الفقهاء وحدهم، فالدين ليس مهنة لأحد. إنه علاقة بين الله وبين إنسان من خلقه تخرّج عن اختصاص الفقي. ونحن نملك القرآن. نملك النص السماوي الوحيد الذي وصل إلى العالم كاملاً فإذا استطعنا أن ننقله إليه بأمانة، وإذا لم نفقد إيماننا بأنفسنا، فأنا أتوقع أن نساهم في إيجاد جسر أكثر متانة بين إنسان هذا العصر وبين الله..).


ISBN 978-614-404-034-8